تاريخ الدولة العثمانية
منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي
تأليف
د. أحمد فؤاد متولي
كلية الآداب - جامعة عين شمس
السلطان محمد الفاتح
القاهرة 2002 م
تاريخ الدولة العثمانية
منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي

د. أحمد فؤاد منتو
كلية الآداب - جامعة عين شمس

د. هويديا محمد فهمى
كلية الآداب - جامعة عين شمس

القاهرة
2005
لا يجوز نشر أي جزء من الكتاب أو اختراع مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله
على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بخلاف ذلك
إلا بموافقة الناشر على هذا كتابة ومقدماً.
بِلِسْلَٰم،
خالد
المقدمة

أسس العثمانيون إمارة صغيرة على حدود العُلَّام الأسلامي، كرست جهودها منذ أن قامت على الغزو في سبيل الله. ولم تثبت هذه الإمارة الصغيرة أن غزت الولايات البيزنطية في الأناضول وفي البلقان.

ولما فتح العثمانيون الشام ومصر وضموا الحجاز 1017 هـ (1607 م)، أصبحوا أكبر قوة في العالم الإسلامي.

وفي عهد سليمان القانوني (1520-1566 م) استمر العثمانيون في النجاح العسكري في منطقة تمتد من وسط أوروبا إلى المحيط الهندي، مما جعل الإمبراطورية العثمانية في مرتبة القوى العالمية. إلا أن الحروب الطويلة التي حدثت في القرن السابع عشر الميلادي جعلت الميزان يتأرجح في صالح أوروبا. وانحاطت القوة العثمانية، ومع التسلل بالتقويض الغربي في القرن الثامن عشر، فقد اعتمد العثمانيون على أوروبا سياسياً واقتصادياً في هذه الفترة. (1)

إن قصة تاريخ الإمبراطورية العثمانية معقدة ومتشعبة. إنها لا تشمل تاريخ الأسرة العثمانية فقط، ولكنها تضمن أيضاً تاريخ كثير من الشعوب التي فتح العثمانيون بلادهم. فقد حكم العثمانيون شعوباً متعددة منطها المترك والعرب والصرب واليونان والأرمن والبلغار والهنغاريون والألبان وغيرهم الكثير. وكان للدولة العثمانية مع جيرانها في أوروبا وأسيا علاقات متنوعة، فمنها الحروب ومنها الفتح ومنها العلاقات الدبلوماسية ومنها التجارية وغيرها.

---

(1) Dr. Halil Inalcik: The Ottoman Empire, the Classical Age 1300-1600 Translated by: Itzkovitz and Colen Imber, P. 3

London 1975
إنها تشمل التاريخ السياسي والإداري والاجتماعي والاقتصادي للامبراطورية استرخبت فيها القوميات والثقافات العديدة. وهذه الإمبراطورية الواسعة التي عمرت طويلة، تحتاج منا إلى دراسات علمية مطولة دقيقة وعميقة.

ولا يمكن لنا والأمر كذلك أن ندرس تاريخ العرب مثالاً منفصلًا وملحوظًا عن التاريخ العام للإمبراطورية العثمانية، فمظاهر الضعف في الإدارة العثمانية، لها علاقة بالانهيار الاقتصادي والفوضى السياسية التي حلت بالولايات العربية خلال تلك الفترة.

ومنذ وفاة أقدم العثمانيين البلقان، والأوروبيون لا يكونون من إقامة الأحلاف لطرد العثمانيين وارجاعهم إلى الأنتفاضول. ولكن هذه الجهود الأوروبية رغم كثرتها، لم تتمكن من تنفيذ أغراضها عندما كانت الدولة العثمانية في عقاقير شبابها ومجدها.

رفعت الدولة العثمانية لواء الإسلام خفاً في ربيع أوروبا حتى أسوار فينا، وتصدت للقوى الأوروبية التي كانت تناصبها العداء.

إن الفتح الإسلامي للأندلس الذي جعل البحر الأبيض بحيرة إسلامية، انتهى خلال القرن الأول لقية الدولة العثمانية. وقد أعاد السلطان محمد الثاني للأذلهان أمجاد الإسلام في الأندلس، عندما فتح القسطنطينية معقل المسيحية.

---

(1) Stanford Shaw: History of the Ottoman Empire, Vol. 1, Preface
(2) د. عمر عبد العزيز: دراسات في تاريخ العرب الحديث، 1009 هـ، بيروت 1976
الأرثوذكسية. واستحق القائد بجدارة أن يطلق عليه "أبو الفتح" أو "الفاتح". وهو ذلك البطل الذي لم يتجاوز الثانية والعشرين من العمر ساعة هذا الفتح العظيم.

كانت عادة لدى العثمانيين إذا فتحوا بلدة أن يحولوا أكبر كنيسة فيها إلى جامع، ثم يذونون للمسيحيين بإنشاء مكان آخر للعبادة. وبعد فتح أي مدينة يؤمن للصلاة فوق قلاعها، ثم تقام صلاة الجمعة الأولى في كنيستها التي حولت إلى جامع في احتفال ديني مهيب، وتُقرأ الخطبة باسم السلطان، ثم يرفع الدعوات الله سبحانه وتعالى على ما من به على العثمانيين من التوفيق في الفتح. وأكبر مثال على ذلك الكنيسة العريقة أيا صوفيا بستانبول التي حولت بعد الفتح إلى جامع كبير يرفع الأدن من فوق مآذنه(1). ومن الجدير بالذكر أن مصطفى كمال أتى ورك حول الجامع فيما بعد إلى متحف ترتاده جميع طوائف السياح.

لقد شق الأذان عنان السماء بعد تحويل الكنيسة إلى جامع، وعلت الابتهاجات والتكبيرات، وازداد التضرع لله. وجثا الفاتح على ركبيه وهو يدخل الجامع خضوعاً لله وخشوعاً لبارئ السماوات والأرض. وركب الرجل بـ: شديدًا متأثرًا من نعمة الله التي أنعم بها عليه. فلطالما حاول المسلمون فتح القسطنطينية، حتى يقال أن المحاولات الجادة بلغت أثنتا عشرة محاولات. فمنذ عهد الخلفاء الراشدين والمحاولات مستمرة لا توقف، كل يزيد أن يكسب نعمة الفتح التي وردت في الحديث النبوي الشريف "لنفتح قسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها ولنندم الجيش ذلك الجيش."

(1) Yılmaz Öztuna: Türkiye Tarihi, cilt. 3, S. 12

Istanbul 1964
إن قصة اقتحام جند الفاتح للقسطنطينية، ملحمة إسلامية رائعة، أعطت للأهالي أمجاد الأندلسي الماضي، حين عبر المسلمون بقيادة طارق بن زياد مضيق جبل طارق سنة 711م، واجتاحوا بلاد الأندلس في القرن الثامن الميلادي. لقد خسر المسلمون أرضاً في الأندلس، فأعادوا الفاتح في البلقان.

وتعتبر القسطنطينية مركزاً تجارياً وإدارياً وعسكرياً كبيراً، يسر استغلال الفتوحات العثمانية، وسهل التحكم فيها والدفاع عنها، بينما سيطر على الممارات المائية بين البحرين الأبيض والأسود، التي تتحكم في التجارة الدولية.

ولما كان موقع القسطنطينية الطبيبي والجغرافي من أعظم المواقع السياسية في الكرة الأرضية، كان انتصار الدولة التي تستر فيهما على سائر الدول أمرًا طبيعيًا، على حد قول المؤرخ التركي الشهير أحمد جودت. كما نقل عن نابليون بونابرت أنه قال: لو كانت الكرة الأرضية في حوزة دولة واحدة، لكان يلزمها أن تتخذ القسطنطينية عاصمة لها.

فتح السلطان سليم الأول الشام ومصر وضم الحجاز وأضاف للإمبراطورية العثمانية مساحات شاسعة من الأرض، وبعد انتصاره على الغوري في موقعة مرج دارق دخل حلب في يوم الجمعة غرة شعبان سنة 922هـ (29 أغسطس سنة 1516م)، وأقام صلاة الجمعة في جامع الملك الظاهر. وقد قررت الخطبة باسم السلطان العثماني، ووصفه الخطيب في خطبته بأنه "مالك الحرميين الشريفين". فأججه سليم بالبكاء، ونهض لتوه وايقين، وقال:

---


(2) أحمد جودت: تاريخ جودت، م.1، ترجمة عبد القادر أفندي الناهض، ص 140 فيروت 1308هـ، وأظهر الأصل التركي، م.1، ص 3 من تاريخ جودت استنبول 1302هـ.
من أنا حتى أكون مالكاً للحرمين الشريفين، إنني أفتخر بأن أكون خادم الحرمين لا مالكاً لهما." (1)

والرائى للسلطان سليم بعد عودته من فتح الشام ومصر، أن يجعل جميع المسلمين في الإمبراطورية العثمانية يهدين بالإسلام بالقوة أو عن طريق الإقناع. (2) وقد ذهب إلى أبعد من ذلك، حيث فكر في أن يتخذ من العربية لغة للاستقلالية كافة، ولم يمنعه من تحقيق هذه الأهداف إلا المفتي علي جمال الدين (3) الذي ذكره بحرية الوجدان والعقيدة التي متحت من قبل السلطان محمد الفاتح.

إن قصص البطولة التي سطرها الجيش العثماني في الفتح كثيرة وممتدة. ورغم قوة الدولة العثمانية، إلا أنها كانت تمارس التسامح الدينى بأعظم صوره وأحسن أشكاله.

كان العثمانيون يمارسون الحرية الدينية والوجدانية في مناطق أوروبا التي فتحوها، ويتساممون في هذا الخصوص إلى أبعد الحدود، رغم قدرتهم العسكرية الكبيرة. (4)

وأكبر مثال على ذلك أن الجزية المفروضة على المناطق المسيحية المفتوحة، كانت ترفع عن الفقراء والمساكين وذوي العاهات والمرضى والشيوخ.

---

(1) Halide Edib: The Conflict of East and West in Turkey, P. 24 Lahore 1963
(2) Halide Edib: The Conflict of East and West in Turkey, P. 24 Lahore 1963
(3) د. أحمد السعد سليمان: الدراسات القومية والدينية في تركيا المعاصرة، س. 17 القاهرة 1961
(4) Dr. Ismail Hakki Uzunçarşılı: Osmanlı Tarhi, cilt 1, S.162 Ankara 1972

تاريخ دولة فاطمية
والأولاد والسيدات ورجال الدين ومن صدر بشأنه فرمان خاص من السلطان مراعاة لظروفه وأحواله، وهذا هو أعلى درجات التسامح الديني...

(1) Yılmaz Úzunta: Adigeçen Eser, cilt3, S. 13
منهج الكتاب

يجد هذا الكتاب نحن نتحدث عن تاريخ العثمانيين الطويل، أن نقسمه إلى فترات ومراحل تبعًا لخط البياني الذي سارت فيه أحوال العثمانيين وأوضاعهم بين القوة والضعف؛ لأن هذه الإمبراطورية خضعت لحكم أسرة واحدة هي أسرة آل عثمان.

يُقسم المؤرخون الفترة من الأوروبيين المعاصرين هذه الدولة إلى سبع مراحل أو فترات، ستتناول أربعة منها بالبحث والدراسة وهي:

(Pre-Ottoman Turkey) 1 - فترة ما قبل تركيا العثمانية
وتتمد من سنة 1071 ـ 1300 (464 ـ 699 هـ)

(The Beylicate Period in Anatolia) 2 - فترة الإمارة في الأناضول
وتتمد من سنة 1300 ـ 1470 (699 ـ 772 هـ)

(From Statehood to Empire) 3 - فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية
وتتمد من سنة 1470 ـ 1514 (772 ـ 886 هـ)

(The Golden Age) 4 - فترة العصر الذهبي
وتتمد من سنة 1481 ـ 1590 (886 ـ 998 هـ)
الفصل الأول

فترة ما قبل تركيا العثمانية

1071 - 1300 م (464 - 699 هـ)
موطن الترك:

ينحدر العثمانيون من قبائل رعوية كانت تجوب منطقة جبال آلتاي، إلى Yenisei الشرق من سهول أوراسيا، وإلى الجنوب من نهر ينيسى وبحيرة بيكال في الأراضي التي تعتبر حالياً جزءاً من سهوب منغوليا.

وكان لهم حضارة بديائية متنقلة قائمة على التنظيم القياسي، والعادات والأعراف الاجتماعية، من غير تنظيم حكومي أساسي أو قوانين خاصة لمجتمعات أكثر تقدمًا.

العرب والترك:

بدأت العلاقات بين العرب والترك قبل ظهور الإسلام بقليل بصورة غير مباشرة لبعض المسافة بين الشعوبين، ولعبت فيها الإمبراطورية الماسانية في بلاد فارس دور الوسط.(1)

وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه (13-63 هـ = 624-444 م) بدأت الجيوش الإسلامية الزحف على إيران.(1) وقد استجد بزيد جدد بخاقان الترك فيما وراء النهر بعد أن هزم أمام العربي في نهاود سنة 211 هـ (141 م)، ولم يتمكن من إيقاف تقدمهم على بلاد فارس، وهم تحت قيادة الأحنف بن قيس. تحرك خاقان الترك على رأس جند له من فرغانة والصغد، وتوجه ومعه بزيد جدد إلى بلغ للالتقاء بالعرب.

(1) Dr. Hakkı Durşun Yıldız: İslamiyet ve Türkler s.3 İstanbul 1980
(2) Ziya Kazcie ve Dr. Mehmet Şeker: İslam-Türk Medeniyeti Tarihi, s.33 İstanbul 1981
لا يمكن الأحنف من الصمود أمام هذه الحشود الهائلة، فترايع عن بعض المناطق في بلاد فارس. وعلى الرغم من ذلك انسحب من ميدان المعركة بعد ذلك، وقيل أنه انسحب لعلمه بحشود صينية على حدوده فيما وراء النهر، أو لأنه وجد أنه لا قليل له بالعرب على حد قول الطبري. (1) وقد اجتز العرب النهر وتقدموا فيما وراءه إلى المناطق الداخلية في ذلك العصر.

وفي عهد عثمان رضي الله عنه (325 هـ - 446 هـ) فتح الأحنف بعض المناطق فيما وراء النهر سُلمت بلغ وخارزم.

وكرغم ما بذله العرب من جهد لفتح بلاد ما وراء النهر في عهد الخلفاء الراشدين، فقد كان تقدمهم بطيئاً، وكانوا يواجهون مقاومة شديدة من سكانها الترك.

ومن كتاب الترك المحدثين من يذهب إلى أن العلاقة بين الترك والعرب نشأت منذ فجر التاريخ حيث كانت أقواهم العرب تعيش مع أقواهم الترك في أواسط آسيا. ولكن هذا الكلام يحتاج إلى دليل. (2)

وفي عهد بني أمية (136 - 111 هـ، 750 - 765 م) استولى قواد معاوية بن أبي سفيان (160 - 167 هـ، 776 - 783 م) على خراسان وولاية معاوية عبد الله بن زياد لحكمها سنة 54 هـ، واستولى على بخارى ورامدين وبيكند ثم ولي معاوية سعيد بن عثمان بن عفان على خراسان 55 هـ ففتح سمرقند.

(1) الأثري: تاريخ الأمم والملوك، جـ 4، ص 265، 1935، Ankara
(2) Naim Hazim Ocan: Araşcanım Türk Diliyle Kuruluşu, s. 4
وتولى الحجاج بن يوسف حكم العراق (56-86 هـ = 176-780 مـ) من قبل الوالد بن عبد الملك (56-210 هـ = 178-747 مـ)، وضمّت إليه الولايات الشرقية، فولى قتيبة بن مسلم على بلاد خراسان (56-211 هـ = 178-748 مـ)، وأمره بتوطيد الحكم فيما وراء النهر، وفيغ مكره، وفتح بعض البلاد الأخرى، فأعاد فتح بكندر بيكند 98 هـ، وخارجة 99 هـ ثم سمارقند. وبعد ذلك فتح فرغانة وشام (لطفند) 94 هـ وكاشغر 95 هـ، حتى صار على حدود الصين. ولم توقف حركة الفتح الإسلامي بموت قتيبة، بل استمر فيها الذين خلفوه في حكم خراسان، وتوزّدت أقدام العرب فيما وراء النهر.

وفي 125 هـ توفي هشام بـن عبد الملك (تولى 105 هـ = 643-674) وتضاعف مركز الخلافة، فأقام نصر بن سبار في خراسان، وأقطع عن غزواته فيما وراء النهر جواً من القلاقل والفتن.

ثم ظهرت دعوة بني العباس، وانتهت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية في (132-150 هـ = 750-770 مـ) وانتهت الدولة الأموية، انتهى الفتوحات الإسلامية التي وصلت حدودها في الشرق إلى الصين وفي الغرب إلى الأندلس.

استخدم الترك على نطاق ضيق في الجيش والإدارة منذ العصر الأموي، وقد بدأ تسريهم إلى بعض البلاد العربية - خاصة الشام والعراق - منذ أن احتك العرب بهم في أواخر أسيا زمن الفتوحات العربية.

(1) أنظر: زكريا كاتبيجي: الترك في مؤلفات الباجي، ومكتبة التاريخ الإسلامي حتى أواخر القرن الثالث الهجري، ص: 14-77.
ولأول من اعتمد على الترك بشكل واسع بعد ذلك هو الخليفة العباسي المعتصم (1) (267-832 هـ) ليوازن بين الهزام العربي و الهزام الفرس. وأخذت هذه القوى التركية كانت بدون جذور محلية، مما جعل ولاءها يتم بالتوجه الأول نحو السلطة المركزية. وامتاز الأتراك هؤلاء بصفات عسكرية جيدة، وخاصة في مجال الفروسية. وما زاد في تسلطهم شدة اعتماد الدولة عليهم، لمجاهدات الأخطار الداخلية والخارجية. ولكن دخل الأتراك إلى الخلافة العباسي، الذي تم في البدء بصورة فردية عن طريق الأسر أو الشراء أو لقاء المجموعات، سرعان ما تحول إلى هجرة قبائل بكاملها، تشهروها إمكانيات السيطرة على الخلافة العباسية المزدهرة (1) وما ساعد أيضاً في توجيه هذه القبائل نحو الغرب صعوبة توسعهم باتجاه الصين، التي ظهرت فيها آنذاك أسرة سعودية (2) بعد فترة من الفوضى.

دخول الترك في الإسلام:
كان الترك في بداية أمرهم يعبدون الطبيعة ممتلئة في خمسة عناصر، هي: الأرض والغابة والمعدن والنار والماء. وكانوا يقدرون إلى هذا أجدادهم.

كانت أمه تركية الأصل.

(1) تراجع السياسة التي أوحت باستخدام العنصر التركي في الدولة العثمانية، إلا أن العثمانيين تطوروا في أول الأمر على العنصر العربي، وأمجدوا القلم به على اعتبار أنه نصير الأمويين. وقد ذلت الحوادث على أن العصر الفارسي طموح حريص على مصلحته القومية، فسماه ظهور الفرس أيضاً. ولم يبق أمامهم إلا الترك، فأزدواهم من بلالهم. (2) محمد جميل الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، من عهد الدولة العثمانية إلى منتصف القرن الخامس الهجري، ص 201. 1845.

(2) تفصيل ذلك أنظر: بكدرا كابكي: المراجع السابق، ص 184-185.

(3) د. عبد الكريم رافقت: العرب والطاجانيون (1511-1911)، ط 1، ص 201.

تاريخ الدولة العثمانية 18
وكان أهم المعادن وأكثرها قضاءة عند هم هو الحديد، الذي كانوا يقيموا له عيداً كل عام، وأما تقديس الأجداد فإن له علاقة بالطوctrية التركية القديمة، وذلك أن الترك يعتبرد أنهم منحدرون من رجل وذينة وأحياناً من ذنب وامرأة، ومن هنا كان تقدير الأباء عندهم مرتبطة ب تقديس المعادر وهي مأوى الذئب.

ودخل الترك بعد ذلك في ديانات كثيرة: فدخلوا في الزرادشتية التي وصلت إليهم من إيران. ودخلوا في البوذية التي وصلت إليهم من الهند. وقد راجعت بينهم هذه الديانة حتى صارت ديناً رسمياً كانوا يدافعون عنه حتى الموت، بل كانوا يدافعون عن المناويين الخاضعين لدول أخرى غير تركيا. وكان الأتراك الأويغور على الطائفة حين دعاهم العرب إلى الإسلام. ودخل الترك في المسيحية على المذهب النسطوري، ولكنها لم تثبت فيهم. ولم يبق منها إلا قليل من شواهد القبور. يستبطن منها علماء الآثار من الأوروبيين أنها تقوم من الترك كانوا قد تنصروا.

كان الإسلام خاتم الديانات التي وقعت على الترك في آسيا الوسطى، وقد وقعت أهم الانتصارات التي أحرزها الإسلام والعرب في موانع المتركل بين سنتي 866 و705 (714 - 677م)، وهي الفترة التي حكم فيها قتيبة بن مسلم بلاد خراسان. فقد كان الإسلام رغم مقاومة الأتراك المعروفين ب (كو - كيتو) يتقدم باتجاه الشرق.

كان سكان سمرقند وخارا يقاومون العرب (1)، على صورة اضطرار معها العرب إلى حمل أسلحتهم في الأماكن العامة وفي داخل المساجد، ولكنهم مع هذا

(1) نايند. حسن إبراهيم حسن وأخرون، ص 212 (العهد القاهرة 1971)، "تاريخ الدولة العثمانية.

139
كانوا يلتفون قلوب الترك فكانوا يمنحون درهمين لكل تركي في كل مرة بذبح فيها إلى المسجد (1) كما سمحوا بقراءة القرآن الكريم باللغة الفارسية، بلداً ممن العربية، حتى يستطيعوا جميعاً فهمه في سيهولة وبسر (2).

وأسس قتيبة المساجد في بخارا ومرقد.

وبالإضافة إلى ذلك كان هناك نشاط للدعوة الإسلامية في عهد عمر بن عبد العزيز (99-105 هـ = 617-623 م)، وفي عهد هشام بن عبد الملك (105-125 هـ = 624-644 م).

وهكذا أخذ الإسلام يatee إلى أن جاء العصر العباسي، وعصر المأمون بوجه خاص (86 - 212 هـ = 707 - 824 م)، فزاد دخول الترك في الإسلام، إذ كان المأمون يدعو أعيان الترك ويخليع عليهم ويقدم لهم الهدايا. فلما كان عهد المعتضد (227-877 هـ = 842-932 م) كانت غالبية الترك قد أسلمت. ثم زاد تدفقهم على بغداد للانخراط في سلك الجيش بعد أن انتصر عليهم، وظل الأتراك يدخلون في الإسلام إلى منتصف القرن الرابع الهجري (الثامن الميلادي). وكان الأعيان إذا أسلموا أسلم أتباعهم معهم. ومن كبار من أسلموا في ذلك الوقت ساهموا بغزْيَان مؤسس دولة إيلخان، فقد أسلم معه قومه وهم ألفاً أسرة. وكذلك أسلم سلحكو رأس الأمة السلجوقية، وأسلمت قبيلته في بداية القرن الرابع الهجري (بداية العاشر الميلادي) (3).

____________________
(1) أحمد السعد سليمان: التخليات القومية، ص 11-13
(2) البلازي: 566-562 م، متحف البلدان، ص 74، القاهرة 1318 ه، توماس أرنولد: المرجع السابق، ص 423
(3) أحمد السعد سليمان، نفس المصدر، ص 1413-1414.

تاريخ الدولة العثمانية
توطن الترك في الأناضول:
كان في الأناضول كثير من الترك قبل ظهور السلاجقة بأكثر من قرنين(1)، وذلك أن الخليفة المهدي (858-922 هـ = 768-830 م) كان يستقدم البطول التركية من آسيا ويسكنها الأناضول، وبخاصة في مدن ططوس والمصيصة وعين زربة وأطلة ومرعش ومتلية وديار بكر.
وكان هؤلاء الترك في جملتهم من فرغانة وأسفيجاب وبلشخ وخوارزم وهرة وسمرقند. وهكذا احتل الترك من منتصف القرن الثاني الهجري (منتصف الثامن الميلادي) القسمين الشرقي والجنوبي من الأناضول.
وما زال عدد الترك يزداد في عهد الخلفاء العباسيين وبخاصة الامامون ومعتصم.
ولما انتقلت السلطات العسكرية إلى أيدي الترك وصار أمراء الجيش في دار الخلافة منهم قويت علاقات هؤلاء الأمراء بإخوانهم المقيمين على الحدود. وقد ظل هؤلاء المرابطون على الحدود يغزون على الأناضول طوراً لحسابهم الخاص وطوراً بإيعاز من الحكومة المركزية في بغداد، فكانوا يخربون المدن ويعودون بالأسلاب والغنائم.
وكانوا في نفس الوقت يعوّناً على تحركات الجيوش البيزنطية...
ومنذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) اندفع قبائل تركمانية من أواست آسيا، بضغط المغول المتجهين غرباً، نحو مناطق الثغور

(1) ظهر سلاجقة إيران 929 هـ (1037 م)، ظهر سلاجقة الروم 770 هـ (1370 م).

تاريخ الدولة العثمانية
في آسيا الصغرى، ولعبت هذه القبائل دوراً هاماً في تكتيف العنصر البشري،
في مناطق الحدود البيزنطية، وبالتالي في خرق هذا الحدود في أعقاب معركة
ملازكرد (1)، التي قُررت فيها جيوش الأتراك السلاجقة بقيادة لب أرسلان،
جيوش البيزنطيين بقيادة الإمبراطور رومانس ديو جينس سنة 1444 م (1711).
وقد فتح هذا النصر أبواب الأتراك لجماعات التركمان الوافدة من آسيا.
وكانت هجرة هذه الجماعات كفيلة بالإخلال بالنظام والقضاء الحياة الاقتصادية
والاجتماعية في إيران، ولكن السلاجقة -بعد انتصاراتهم في ملازكرد-
استطاعوا أن يصرموا تيار هؤلاء البدو نحو الأنضال. وهكذا تضمنت فيه
كتلة الترك بعد سنة 1444 هـ (1711 م) (1)، وقامت دول تركية كثيرة هناك قبـل
قيام الدولة العثمانية، وهي: دولة الداغستانيين في سيباس (1444 - 1700 هـ =
1444-1711 م)، وقامت فرع لها بعد ذلك في ملتبس (1737-1803 هـ =
1803-1871 م)، ودولة بني منوجك في أزنجان وكماش وديوركي
(1445-600 هـ = 1711-1724 م)، ودولة بني سلتق في أرضروم
(1445-600 هـ = 1711-1724 م). ثم قامت دولة سلاجقة الروم، وهي أكـبر
دولة تركية قامت في الأنضال قبل قيام الدولة العثمانية، عمرت زهاء قرنين
من الزمان (500-470 هـ = 770-800 م). وقد كان ظهورها إيجاداً باختفاء
هذه الدول الثلاث التي قامت قبلها (2).

على أن المغول لاحقوا الترك في آخر ملاجئهم وهي الأنضال، ودحـر
الجيش السلجوقي بقيادة غياث الدين كيخسرو الثاني بالقرب من الجبل الأكبر

(1) د. عبد الكريم رافق: المصدر السابق ص 13.
(2) د. أحمد السعد سليمان: المصدر السابق ص 14.
(3) الدكتور أحمد السعد سليمان: تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، 2، القاهرة 1972.

تاريخ الدولة العثمانية

22
1426هـ (1432م) ووقع الأناضول في قبضتهم (1) ولقد كان المغول يرسلون إلى الأناضول بعد فتحه بالجيوش المغولية في مناسبات كثيرة ولغزات مختلفة. وقد كانت عساكر المغول تدخل الأناضول مصطحبة نساءها وأطفالها وماشيّتها، وكانت الحكومة الإلخانية تقيم هؤلاء الجنود حسب الحاجة في أنحاء مختلفة بالأناضول.

وقد كانت القبائل التركية التي تقيم منذ زمن قديم في الأناضول تضطر أمام زحف الوافدين الجدد إلى الانسحاب نحو الغرب إلى المناطق البعيدة عن الطريق الاستراتيجية.

وهكذا أخذ التركمان يقتربون نحو المناطق الساحلية التي كانت حتى ذلك الوقت خاضعة للأمبراطورية البيزنطية، ولما كان الدفاع عن الإمبراطورية ضعيفاً في ذلك الوقت، كانت القوات البيزنطية المعروفة بالهروقة فقد اضطحلت؛ فإن هؤلاء التركمان كانوا يستولون على الأراضي البيزنطية ويقيمون فيها إمارات خاضعة بعيدة عن نحو السلاجقة وعن نفوذ ساهمتهم المغول، حتى إذا كانت سنة 700هـ (1300م) كانت معظم الأراضي البيزنطية في الأناضول قد دخلت في حوزة عدد من الأسراء الترك(2)، الذين بدأوا في تكوين دول لهم في فترة اضمحلال دولة سلاجقة الروم، وبعد تماشح أنهمارها، وأشهر هذه الدول، هي، دولة بني قرمان (541-888هـ = 1256-1483م) في أرمناك، ودولة أمراء دنزي (767-1270هـ = 1368-1372م) في دنزي.

(1) أظهر سلاجقة الروم تبعيتهم للمغول منذ عام 657هـ (1258م) إلى أن انتهت دولتهم بوافقتا غياث الدين مسعود الثالث (708-1343م) (Dr. Ismail Hakki Uzunçarşı, Adigeçen Eser, cilt 1, s. 111)
(2) أحمد السيد سليمان: انتشار الإسلام في آسيا، ص 28027، الرياض 1387هـ
ودولة بني جاندار أو أبناء أسندوا على حد قول العثمانيين (1666-1292هـ = 661-1641م) في قسطموني، ودولة بني حمید (أواخر القرن السابع الهجري = 793هـ = أواخر القرن الثالث عشر الميلادي = 1391م) في بيسيدا القديمة (ديمار حمید)، ودولة بني قراسى (672-720هـ = 1272-1321م) في منطقة ميسيا القديمة، ودولة بني أنيد (680-700هـ = 1280-1304م) في إزمير، ودولة بني مانتشا (707-729هـ = 1307-1421م) في إقليم قاريا القديم (ولاية مانتشا)، ودولة بني صاروخان (690-708هـ = 1290-1309م) في منطقة ليديا القديمة (كانت عاصمتهم مضنيسيا)، ودولة بني كرمان (690-732هـ = 1290-1341م) في منطقة فريكسيا القديمة (كانت عاصمتهم كوتاهية).

وكان بين هذه الدول، إمارة صغيرة في الشمال الغربي من الأناضول هي إمارة عثمان، التي قيض لها بعد أن عظم شأنها، أن تباع هذا الدول تباعًا.(1)

(1) انظر: د. أحمد السعيد سليمان: المرجع السابق، د. أحمد السعيد سليمان: مذكرات في تاريخ الدولة العثمانية، ص 4-90.
الفصل الثاني

فترة الإمارة في الأفاضل

1300 هـ - 1270 م (699 - 772 هـ)
قِيَامُ الدُّوَّارِ العُمَانِيَة:

قبل أن نستطرد في الحديث عن "آل عثمان"، ينبغي علينا أولاً أن نوضـح
كيف قامت الدولة العثمانية. فقد اختفت آراء المؤرخين والمستشرقين وأقوالهم
حوـل هذا الموضوع اختلافًا بـينًا. فـبعض هؤلاء اعتمدت في تاريخ قيامة الدولة
العثمانية على الأساطير والروايات المتواجدة كما وردت أو بعد فحصها
وتحقيقها، وبعض الآخر رفض هذه الأساطير والروايات رفضًا قاطعًا لعدم
اتفاقها مع العقل والمنطق، واجتهد في تاريخ قيام الدولة على المنطق التاريخي،
مستفيدًا مما كتب عن الدول والشعوب التي جاورت العثمانيين في الأناضول أو
كانت لهم معهم علاقات.

يكتفي العوـض قـيام الدولة العثمانية كمعظم الدول في بداية عـدها
بالحياة. فبعد ميلاد دولة من الدول يبدو الأمر في حينـه لا يستحق الانتباه
والتسجيل، إلى أن يكتب لهذه الدولة البقاء والدوام وتظهر على مسرح الأحداث،
فينتبه المؤرخون والكتاب لتسجيل أحداث تلك الدولة الأخاذة في النمو، فقد
تستهويهم أحداثها الداخلية وعلاقاتها الخارجية والدول الأخرى أو تكرير فيهم
الاهتمام. وكمًا تأخرت تلك الفترة - التي يبدأ فيها المؤرخون تسجيل أحداث تلك
الدولة - عن مرحلة النشأة والقيام، كمًا كانت تلك الكتابات التي تـستـر عن
نشأتها غير صحيحة في كل الصحة، حيث يبدأ هؤلاء في بعض الأحيان لملاء
فترات الفراع، بتسجيل الأساطير والروايات المتواجدة غير المحققة عنـ هذا
الموضوع. وبهذا يكتفي العوض مرحلة ميلاد هذه ويشوبها التناقض
والتصارب وتكثر فيها الأقوال والافتراضات والتأويلات وتملؤها المعلومات
السطحية غير المؤكدة. وهذا ما يصادقنا بالنسبة لمرحلة النشأة عند العثمانيين.
ويعزز المؤرخ التركي "يلماز أوزطونه" غموض المراحل الأولى من تاريخ العثمانيين حيث فتح القسطنطينية عامة، إلى عدم توفر المعلومات. فقد أحرق تيمور لنك الوثائق التركية عند إغاراته على بروصه سنة 1402 م (880 هـ). وهذا فالوثائق الرسمية المتعلقة بالفترة من نشأة الدولة وحتى غارة تيمور قليلا جداً. (1)

رحل العثمانيون من أواسط آسيا واستقروا في الأناضول، ولم تكن هويتهم قد اضحت بعد، فقد كانوا في تلك المرحلة يعتبرون ضمن العناصر التركية. وكانت العناصر التركية التي استوطنت الأناضول كثيرة ومتنوعة ويصعب في تلك الفترة التحديد والتمييز بينها. (2) حتى أن الكتابات العربية التي عاصرت استقرار العثمانيين في الأناضول كانت تطلق عليهم تسميات مختلفة تطببأ لهم عن غيرهم من الترك. فكانت تطلق على كل سلطان "ابن عثمان" نسبة إلى الجد عثمان، ثم أطلق عليهم خطأ "الروم" (3) وعلى كل سلطان "ابن عثمان الرومي" تطورت فيما بعد إلى العثمانية فالعثمانية وأبناء عثمان. وهذه الكتابات تذكر بعض المعلومات البسيطة عن علاقة ابن عثمان بجيرانه.

اضمحلت دولة السلاجقة في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، بعد أن دممتها غارات المغول المخربة. وفي تلك الأوقات، ظهرت إمارة صغيرة على الحدود بين السلاجقة والبيزنطيين سميت إمارة عثمان.

(1) Yılmaz Öztuna: Adigeçen Eser, cilt3, s. 8
(2) اختفت على الأناضول عناصر تركية كثيرة، منها: الفرسان، والقراقو، والقمح، والهند، والأرمن (التركمان).
(3) كانت كلمة "الروم" مشيدة في الكتابات العربية في العصور الوسطى وكان المصطلح بها "ال ترك" لأهمية استوطنوا أراضي الروم (البيزنطيين) في الأناضول، فأطلق عليهم العرب هذه التسمية، وخصوصاً على ذلك اسم كبير المصطبة الترك "جلا الدين الرومي"، وسلاجقة الروم أيضاً.

تاريخ الدولة العثمانية 28
اكتشفت الأراء وتباننت حول قيام الدولة العثمانية، وتأثرت هذه الأراء بمصادر العصور الوسطى التي تمثل بالأساطير عن هذا الموضوع.(1) وقد تمكن المؤرخ التركي الكبير محمد فؤاد كوربلي، من أن يقوم هذه الأخطاء في العقد الثاني من القرن العشرين، بكتابة قيام الدولة العثمانية "أعمال" دولتاك فورولوش، ويرد على ادعاءات بعض كبار المستشرقين الذين كتبوا في الموضوع مثل جيبيز Gibbons "The Foundation of the Ottoman Empire" في كتابه الإمبراطورية العثمانية، في كتابه

(1) نذكر الأساطير أن أرطغرل بن سليمان شاه الأتراك كان قد أذكى فقد لبائل الترك التورهين مين سهول آسيا الغربية إلى بلاد آسيا الصغرى. وعندما كان راجعاً إلى بلاد الحرم بموت أبيه غرقاً عند ابتدائه أحد الأمراء، شاهد جيشين مشتبهين. فزود في مربع من الأرض ليمنع نظره بهذة المنظر المأخوذ لدى الرجل من القبائل العربية. لم أكن نشظف في أحد الجيشين وتحقيق كهفنا وخلاله إن لم يجد له المساعدة، دبت فيه الطمعية الحربية، ونزل هو ورسته مسرعين لجدة أنشأ الجيشين، وهاجم الجيشه الثاني بقوة وشجاعة عظيمة. حتى وقع اللعب في قؤوب الذين كانوا يفروزون بالنصر. لم يع هذا المهد الفجائي، وأعمال السيف والرمح ضرباً ووخلماً حتى هزمهم فرع مزينة. وكان ذلك في أوائل القرن السابع للهجرة.

والسوس النصين علم أرطغرل بن أن الله قد قبضه لندجة الأمير علاء الدين مسلمان فلطينة التي تعتبر إحدى الإمارات السلجوقية التي تأسست عقب احلال دولة آسيا الصغرى بموت المسلمان (ملك شاه) في 15 نوفمبر 1092 (15 شوال 485هـ). فكاه أبا الدين على مساعدة هب أكلاياء عدة أطلف ومدن. وصار لا يعتمد في حربه من مجابوية. إنه عليه وعلى رجاءه. وكان عليه كل انتصار، يقطعه أرض جدية. ومعه أموالاً جزيلة; ثم لقب فيله بمقدمة السلطان، تواجهها دائماً في مقدمة الجوهر، ولم يتشم النصر على ديه.

وفي ضمن ذلك نزوج عثمان بنت رجل صالح يدعى (الشيخ أده بالي). كان رأها مشفقة عند والدها وعليه، ولكن الدعا من أن يزوجها له. فزوج عثمان ذلك وأظهر الصبر والجهد. ولم يرغب الآفاق ما غيرها، حتى قبل أبوها، بعد أن قص عليه عثمان منا رأة ذات ليلة في بيت هذا الصباح، وهو أنه رأى الكريم يعند من صدر هذا الشاب، وبعد أن صار بدأ، نزل في صدر أبي في صدر عثمان. ثم خرجت من صدها شجرة نبت في الحال غطت الأكوان بظلها. ونظر فيها أكبر الجبال تحتها وخرجت النيل والدجلة والفرات والطونة من جذاعها. ورأى ورق هذه الشجرة كأساً - يحولها الروح نحو مدينة المستنصرية. فتفكى الشيب من هذا الملل وزوجه ابنته (سما خاتون).

(محمد فريد: تاريخ الدولة العثمانية ص 339. 8 نسخة بالأوست صورتهم دار الجيل، بروتون 1977.)

تاريخ الدولة العثمانية
وف قد اتضحت معالم الموضوع، بعد أن كتب فيه كورنيل، وأصبح الجميع
يعتقدون في آرائه في هذا الصدد ويتخلون بأقواله في هذا الموضوع.

يقول جيبوزن: (1)

إن أرطغرل (2) أبا عثمان كان رئيس قبيلة صغيرة وفقدت على الأناضول
في عهد السلطان السلجوقي علاء الدين الأول فارة من خوارزم أمام زحف
جنكيز خان، واستقرت في سكود في شمال غرب الأناضول.

كان عثمان وقبيلته وثنيين رعاة، فلما استقروا في المناطق الإسلامية
بالأناضول اعتنقوا الإسلام كمن سبقهم من الترك.

وأتار فيهم الإسلام تعصباً شديداً، حملهم على إرغام جيرانهم الإغريقي
على اعتناق الإسلام. ولم يكن تحت إمرة عثمان قبل دخوله في الإسلام إلا
أربعة أنهين محارب يقيمون في دورهم ويزاولون حياة وادعة.

ولكن عدد العثمانين ما لبث أن ضعف بين سنة 1290-1313 م،
وامتت حدودهم حتى جاورت حدود البيزنطيين. وأدى ذلك إلى ظهور جنـس
جديد انتسب إلى رئيـسه، ألا وهو الجنس العثماني. ولم يكن هذا الجنس تركيـناً
xالصاً منذ بداية أمره، ولكنه كان جنساً جديـداً مختلطاً قوامه الترك الذين كانوا
على الوثنية والإغريقي الذين كانوا على المسيحية ثم أسلموا جميعاً.

(1) آراء جيبوزن وكورنيل مختصرة عن ترجمة الدكتور أحمد عبد السلام إكتاب محمد فؤاد
كورنيل، قيم الدولة العثمانية، القاهرة 1917. وقد استغت في ذلك أيضاً بما ورد في مذكرات قـ eks
تاريخ الدولة العثمانية للدكتور أحمد عبد السلام.

(2) يوجد في أرطغرل في سكود، وصورة في كتاب:

(Dr Ismail Hakki: Adigeçen Esir, cilt 1, s. 128)
ورى جيبونز خطأً تعليلاً زيادة العثمانيين الكبيرة في وقت قصير
بالإمدادات البحرية الجديدة المُؤكدة من الشرق، لأن أراضي العثمانيين كانت تقع
في أقصى غرب الأناضول. وكان لابد للكتل التركية لكي تبلغ ذلك المكان أن
تتحقق أولاً بخدمة حكام أطراف في شرق الأناضول، وأن تأخذ منهم أراضي.
ومع هذا لا يمكن تعليل هذه الزيادة، إلا بذوبان العناصر المحلي المكون كله
من الإغريق، هذا عن الأناضول.
أما عن توطين العثمانيين في البلقان، فإن جيبونز أنه لا يمكن تعليل
ب مجرد الهجرة ثم ذوبان العناصر المحلية، بل يجب أن تدخل في اعتبارنا
الموقف في بيزنطة وفي البلقان وفي العالم الغربي، بالإضافة إلى قوة شخصية
السلاطين العثمانيين، وجيبونز رأى خاص في دخل نصارى البلقان في
الإسلام خلاصته، أن هؤلاء النصارى لم يعيشوا مع المسلمين قروناً طويلة كما
عاش نصارى الأناضول، ولذا ابتدع في عهد السلطان مراد الأول
1359-1362 هـ (779-782 م) طرق لدخولهم في الإسلام. من هذه الطرق أن
أُسَّّر الحرب كانوا يعتقون من الرق، إذا هم دخلوا في الإسلام، ولكن، لما
كانت نتائج هذه الوسيلة من وسائل نشر الإسلام محدودة، فقد أسس العثمانيون
الجيش الاكتشاري ووضعوا نظام الدوشرمة (1) الذي يدخل الشباب المسيحيين
كرهًا في الإسلام.
ولقد كانت العناصر الإغريقية والصقلية تفضل أن تدخل في الإسلام
أو Optionally أن تسلم أبناءها للعثمانيين. وإذا ذكرنا أن الجيش الإكتشاري لم يكن
له حتى في القرن التاسع الهجري (الخمس عشر الميلادي) أهمية عدائية، ولـ

(1) انظر "الدوشرمة" في عهد السلطان محمد الأول في هذا الكتاب من 99.

تاريخ الدولة العثمانية
31
يكون العنصر الأساسي في الجيش العثماني، حيث إننا لا يمكن تشكيلاً يراد به زيادة القوة العسكرية، وأنه إنهما كان ببساطة وسيلة لنشر الإسلام.

هذه هي أفكار جيبونز وأراو، وقد لاحظ المؤرخ التركي محمود فؤاد كوبيرلي عليه: أنه يحاول إرجاع قيام الدولة العثمانية بسبب ديني محض، وأنه اعتقد أن الدخول في الإسلام أظهر جنساً جديداً هو الجنس العثماني.

ثم إنه لم ينظر في الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية للعناصر التركية المزودة في الأناضول، والمشابهة للعثمانيين والمحافظين عليهم، مٍّعن أن من بينها عناصر أقامت دولًا كانت من القوة بحيث دعت فهم بيزنطة الجزية.

ويتعرف كوبيرلي أن الإسلام كان ينتشر في نصارى الأناضول في العصر السلجوقي، وأن بعض رجالات الدولة السلجوقة كانوا حديثي عهد بالإسلام، وأن منهم من كان ينتمي إلى الأرسطقراطية البيزنطية كأسرة كومين، وأن بعض العلماء والصناع في عصر سلاجقة الروم (1247-1300م) قد تحولوا هم بأنفسهم أو تحول آخاؤهم عن المسيحية إلى الإسلام. ويعتقد كوبيرلي لانتشار الإسلام، بأن المخلطة الطويلة، وما كان للمسلمين من مركز خاص في إدارة الدولة، ورغبة غير المسلمين في التخلص من بعض التكايف، كل ذلك كان من العوامل السيكلوجية والاقتصادية التي ساعدت على حركة الدخول في الإسلام.

ويرى كوبيرلي أن انتشار الإسلام في نصارى شرق الأناضول ووسطه لم يبلغ في العهد السلجوقي والإيلخاني مبلغًا كبيرًا، ويستد في ذلك إلى ما أورده المؤرخ الأوراسي من أن الجزيرة التي كانت تحوي من نصارى هذه المناطق

تاريخ الدولة العثمانية

32
كانت تكون في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) قسماً هاماً من الإرادات العامة.

وأما عن انتشار الإسلام في غرب الأناضول، فيرى أنه لم يكن سريعاً ولا جماعياً كما تصور جيلينز. يستند كوربلي في ذلك إلى ما ورد في بعض الوثائق الرسمية من أن كثيراً من قرى غرب الأناضول، كانت لا تزال أهلاً بالنصارى في عهد السلطانين العثمانيين محمد الأول 1481-1502 هـ (1451-1481 م) ومحمد الفاتح 1455-1486 (1446-1483 م). أما عن الزيادة السكانية وكثافة الكتلة الإسلامية في إمارات غرب الأناضول، فيعللها كوربلي بأن هذه الإمارات كانت مهيأة بحكم موقعها للتزايد المطرد في السكان، إذ كانت تتفوق عليها باستمرار عناصر تركية وإسلامية. ويعترف كوربلي بأن قسماً كبيراً من نصارى غرب الأناضول قد هدي إلى الإسلام في النصف الأول من القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، وذلك بسبب نفوذ العنصرين الإسلامي من ناحية، وتداخل الكنيسة وعجزها عن السيطرة على جمهور المسيحيين من ناحية أخرى. فقد أدى هذا الضعف في الكنيسة سعي المسيحيين إلى تحقيق مصالحهم الاقتصادية إلى زيادة الدخول في الإسلام. وقد دخلت في الإسلام عناصر مسيحية كانت على خلاف مع الكنيسة، فأدرجتها الكنيسة في فرق الهراطقة.

ويخلص كوربلي من كل هذا إلى القول بأن الدخول في الإسلام في الأناضول قد تم ببطء وبنسبة محدودة إبان تكون الدولة العثمانية، وأن نسبة الدخول في الإسلام لم ترتفع في عهد العثمانيين إلا بعد أن رسمت أقدامهم في البلقان آي في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) على الأكثر. ثم ما زال الدخول

تاريخ الدولة العثمانية

33
في الإسلام يزداد بعد ذلك في القرنين العشرين والحادي عشر الهجريين.
(السادس عشر والسابع عشر الميلاديين).

أما عن ادعاء جيبوتز بأن اختلاط الترك بالإغريق أدى إلى ظهور جنس جديد هو الجنس العثماني، فيرد عليه كوبيرلي قائلاً أن جيبوتز لم يفهم المصادر العثمانية. وذلك أن كلمة عثماني اصطلاح سياسي لا أنتمغرافي. كان يُطلق في كتب المؤرخين العثمانيين القدماء على طبقة رجال الحكومة والإدارة التي تعيش في خدمة الدولة وتتقاضى منها الأجر.

وبعد أن فقد كوبيرلي أقوال جيبوتز، أورد نظريته في فيم الدولة العثمانية، وهي تنحصر فيما يأتي:

في أواخر القرن السابع الهجري (أواخر الثالث عشر الميلادي) كان أرطغرل ثم عثمان(1) من بعده رئيسيان لعширة من عشائر الحدود، تنتمي إلى قبيلة (قايمي)، وكانت هذه العشيرة تخضع نظريًا لسلاطين السلاجقة في Drylacueum قونية ثم للإيلخانين، وكان موطئ هذه العشيرة هو منطقة دريلام (أسكى شهر) الواقعة على الحدود التركية البيزنطية(2).

وأما ولم يذكر(3) عثمان(3) (1399-1476 هـ = 1266-1326 م) رياضة عشيرته(1)، حتى أخذ يسوق أراضيه بالتجريج، مسيرة التدريس، مسيرة الفوضى والإهمال.

ولده عثمان سنة 1258 م تقريباً في سكود أتفيش في الشمال الغربي لأسيا الصغرى.
(1) انظر خريطة "مهد الدولة العثمانية" ضمن قسم الخرائط واللوحات، رقم (1).
(2) ألب حكام العثمانيين الثلاثة الأول، وهم عثمان وأورخان ومراد الأول بلقب تيقب. أما البقية الباقية فليست بين سلطنة: انظر ص: ر، من مقدمة د. أحمد السيد سليمان. ترجمة كتاب محمد فؤاد كوبيرلي، فيم الدولة العثمانية.

تاريخ الدولة العثمانية
المسيطرين على الأراضي البيزنطية بالأناضول، ولم يكن قد بقي للبيزنطيين في تلك المنطقة غير الركن الشمالي الغربي للأناضول وشريط حيوي بحري ملتف وأيجه ومنطقة طرابزون.

(1) افتتح الأمراء الذين تركو وراءهم للسلاجقة وأنضموا لخدمة العشاقين بجيء علاء الدين كوكباد إلى إيران بين نهاية دولة السلاجقة. كما وثقوا في أن إدارته دولة السلاجقة سوف تنتقى إلى أديك المغول. ودمر المحمتا لينتصب السلاجقة رأسه قبالة قلبي التي ينتصب إليها عثمان، لأن روح القبيلة ستعود يوماً في أبناء القبيلة ذاتها. وقد كان الوقت في نظرة لحلق عثمان بك رأسه هذه المعركة. وأجمع رأي لكبا رجل العشيرة على احتياط مهاجمة المسلمين، وعلي هذه الحال، سكون هناك دولة أندلس متمتعة قد تشتمل توقعهم واتسوم، هذا فقرر كتاب رجال العشيرة، ويكوات التركمان، والأمراء السلاجقة الذين رحلا في طاعة العشاقين، تعرضة أن يكون في هذه المنطقة حاكم دافع عنها، فقد استولى المغول على دولة السلاجقة وفروا عليها، ولم ينجح أمراء السلاجقة في إيصال دوانهم، ولم يطلقوا على اختيبر دائم لهم.

وعملين بك ينتفقو على الشروط، فهم جسور وجري نكير ورمين بالانقلاب الحميدة، وهو من تسليف قابي من ناحية، ومسلم ومندين من ناحية أخرى، ثم أخبروه بما أجمعوا عليه، ووافق:

(Bir Heyet: Adigeçen Eser, cilt I, s. 49.)
ولما كانت بيزنطية مشغولة بالقلاقل والقتال في العاصمة وفي البلقان، فإنها لم تستطع لفترة طويلة أن تحرك على نطاق واسع ضد العثمانيين، فضفت في يد العثمانيين أمكن كثيرة، كان عليها أن تدافع عن نفسها بقوتها المحلية.

كان أول صدام بين البيزنطيين وعثمان الذي كان بـ "نيقية" (إزنึง) العاصمة البيزنطية السابقة، هو المعركة التي خاضها البيزنطيون في سنة 1301 (شمسية 711) على يد مارون (باليابور) بقيادة موزالون وقوق سارCURRENT. وقد طارت شرارة عثمان بعد أن هزم الجيش الإمبراطوري المكون من ألفي رجل في هذه المعركة.

وتُعتبر "نيقية" أول مدينة هامة في أملاك عثمان، فقد استولى عليها، وجعلها عاصمة له، وبدأ بعد هذه الخطرة أعمل على تدجين أتباعه من الحياة الريفيyah إلى حياة أكثر استقراراً، ثم اجتاح عثمان محارباه سهول "بنيه أر" إلى الشرق من نهر سقاريه، وهي تشمل حصون "بيله جاك" و "مبار حصار". وبهذا فصل الأراضي المواصلة بين بروصه عاصمة بيثنيا البيزنطية Bithynia ونبيقية، تاركًا البيزنطيين في المنطقة يتصلون بالقسطنطينية بالبحر فقط عن طريق مودانيا وبعض الموانئ الصغيرة على بحر مرمرة. ولما انتهت دولية السلالجة واختفت، فإن العثمانيين كغيرهم من التركمان في الأناضول يبدو أنهم وافقوا على الخضوع للايلخانيين، متقنين الجزية المنظمة والمحاربين. ولـ هذا ترك المغول بالشرق عثمان وأتباعه أحراراً من أي تحكم مباشر أو اعتراض.

---

(1) D. أحمد السعد سليمان: المراجع السابق، ص 180.
(3) يكي شير: كلمة تركية مغايرة المدينة الجديدة، يكي بمغنى جديد، وشهر بمغنى مدينة.

تاريخ قديم عثمانية
وبعد تأسيس الإمارة العثمانية في 'بني شهر'، صرف عثمان بقية أيما حكمه في التوسع في اتجاهين: إلى الشمال حتى نهر سقاريه باتجاه البحر الأسود، وإلى الجنوب الغربي باتجاه بحر مرمره، محققة أهدافه في كلا الاتجاهين حتى سنة 1308م. بهذه عزل آخر مدينة بيزنطية هامة في المنطقة وهي بروسية (أولو طاغ) التي تقع أسفل جبل أوليمبيس. إنها لا تزال محصنة تحصيناً جيداً، ولا زال البيزنطيون قادرين على الاستمرار في فتح طريق الاتصال الخاصة بهم مع البحر، فلا زالوا يلتقوون حاجاتهم من الإمدادات من القسطنطينية، ولا زالوا قادرين على الصومع مدة طويلة بعد سقوط المناطق المحيطة ببروسية في أيدي العثمانيين. ولكن عندما استولى عثمان على مودانيا، قطع آخر اتصال بين بروسية والعالم الخارجي سنة 1321م (1721م). وكان على المدافعين عنها أن يقدموا الجزية للمغبرين لمدة خمس سنوات، لكى يضمنوا احتفاظهم بها، إلا أنها سقطت في النهاية في 6 أبريل سنة 1326م (2 جمادي الأولى 1727م) على يد الجيش الذي قاده أورخان بن عثمان الذي يعتبر قائم مقام أبيه الحقيقي في شئون الحرب والسياسة منذ ذلك الوقت.

كان فتح بروسية خطوة هامة إلى الأمام بالنسبة للعثمانيين. فقد تغيّرت أملاكهم من إمارة ذات تخمود بدوية، إلى ولاية حقيقية، ذات عاصمة، وحدود،

---

(1) تقع بروسية (بروس) عند سفح جبل أوبوس (أولو طاغ) أي Olympus الذي يسمى بالتركية (أولو طاغ) أي الجبل الكبير، وقد ذكر في هذه المدينة السبعة الأول من حكام آل عثمان. وهم: عثمان، أورخان، مراد الأول، بايزيد الأول، مراد الثاني. ولما فتح سلالة السلوق ممدوح الفتح القسطنطينية، نفر فيها السلاطين البيزنطيين من آل عثمان، وأقاموا جامع في بروسية هو أولو جامع الذي بناء مراد الأول.

(2) Ismail Hami Danişman'd. Izahli Osmanlı Tarihi Kronolojisi, cilt 1, s. 10 İstanbul 1971
وسكان مستقرين، ولديها الوسائل لتكوين جيش منظم للدفاع عنها ولتوسيع أملاكها، في الوقت الذي تملك فيه إدارة لتصريف شتوت الحكم.

وأصبح العثمانيون مستقلين تماماً عن الإيلخانيين في كل شيء(1).

ومن الجدير بالذكر أن أسلوب العثمانيين في الفتح كان يعتمد في المقام الأول على الحصار لمدة طويلة، وما كانوا يلجأون كثيراً إلى الفتح عنوة أو بالقوة.

وخلال الفترة التي حكم فيها عثمان لم يكن للعثمانيين اتصال فعلي بجيرانهم الشرقيين مثل الإمارات الشرقية أو القوة القرآمية، وكانه احتكاكهم في الواقع يتم مع جيرانهم الغربيين مثل كراسي ووديان سقريا. وقد تمكن عثمان من فتح بروسة، لتأمين حدوده. واضطهر حاكمها أورنوس إلى الاستسلام أمام القوة العثمانية، لما تأكد من ضعف القصر البيزنطي وتهالكه.

وقد اعتنق الإسلام فيما بعد(2) ودخل في خدمة الجيش العثماني، وتبعته آخرون من القواد الذين اجتذبهم روح الإسلام السمحاء وأضناه النزاع البيزنطي.

وبدأ المتصارعون على العرش البيزنطي في القسطنطينية، يتجهون نحو العثمانيين طلباً للمساعدة في ذلك الوقت، فأصبح العثمانيون المساعدين للأباطرة والأمراء البيزنطيين على السواء. وكانت هذه القوات مفتوحة الأعين على مدى ما بلغه البيزنطيون من ضعف، وعلى الفرص المواتية للتوتر عليهم(3).

---

(2) خلاف الأوروبيون في ذلك الوقت بين التركي والمسلم، وأطلقوا على من أسلم لفظ تركي (Bernard Lewis: The Emergence of Modern Turkey, P.13 London 1968)
(3) Philips Price A History of Turkey, from Empire to republic, PP. 36,37 London 1961
(4) الظر خريطة عهد السلطان عثمان: ضمن فصل الخرائط واللوحتات، رقم (2).
وفي عهد أورخان (1326-1369 هـ) وُقِف العثمانيون في الاستيلاء على نيقية في 2 مارس 1331 (731 هـ). وقد جعلها أورخان عاصمته مؤقتة لإمارته بعد فتحها مباشرة، لقربها من ساحة القتال.

وعدد ست سنوات من الحصار لمدينة نيقوميديا - (إزمير) - التي تعد مركزاً تجارياً، تمكّنت العثمانيون السيطرة عليها بعد أن قطعوا اتصالها بالقسطنطينية، واستولوا على القلعة المحصنة بها. وفي السنة التالية فتحوا سكوتاري (أسكدر) (Seutari).

وهذا فتح أورخان معظم أراضي البيزنطيين في شمال غرب الأناضول بعد أن واجه بعض الصعوبات. وقد جعلت هذه الفتوحات إمارة العثمانيين واحدة من أقوى الإمارات في المنطقة، وقوت مركزها كرائدة للحرب ضد "الكافرون". وكانت طرابزون في شمال شرق الأناضول لا تزال بيزنطية مسلمة، عند القسطنطينية منذ الحرب الصليبية الرابعة. ولا زال البيزنطيون يسيطرون سيطرة مباشرة على الشريط الساحلي في غرب الأناضول الذي يمتد من "شيله".

1) أوصي عثمان بالعبر - وهو على قراه الموت - لابنه الثاني أورخان لمتعه بالقشالة والإجام، ولم يوصف به بكرا أورخان خلق الدين الذين لذته الورع والعدلة. لم يعرض لابن الكaiser على هذه الوصية التي حرضه من السلطنة، بل قبضه بصبر رحب، ولم ينزع أغائه على الملك ثم أوصي عثمان وابنه أورخان بوصيا ثلاث، كي ينسكو بها وهو يدير دفة الحكم، فقال: أولاً: تسنك في كل مورك بشريعة الغراء، وشارفي المهمات أهل النور والهدوء.

ثانياً: أعط كل من حق حقه من التكريم والإعام من الخواص والعمال لابنا العلماء الذين هم دعوم الدين الإسلام، وتقريباً من العامان على تحقيق الفقه المشهور (خبر الناس أغنيهم للناس).

ثالثاً: حيث أنك خليفي من بعد فلتته لمن هو أعظم ركن من أركان هذا اليم وهم (التعليم لأوامر الله والشرعية على خلق الله) والطلب العلماء الطبّية بعد إعلان الله والرغبة في سبيله.

(أحمد جود: تاريخ جود، ترجمة عبد القادر عبد الله، ص 253، ص 498.

يؤكد الرحالة ابن بطوطيس على ذلك عندما كان يزور في الأناضول سنة 732 هـ، ويذهب المؤرخ سعد الدين مذهبه: (121).

تاريخ الدولة العثمانية 39
الفصل الثاني: فترة الإمارة في الأناضول

على البحر الأسود حتى استدار، وكذلك مدينة أما ستريس، ولكنها كانت متعزلة تماماً، ومشتقة لا تقدر على المقاومة الفعلية للعثمانيين.

وسعُ أورخان نشاطه أيضًا بحمايته لأراضيه أمور بك (حكم 1340-1348) - 1441 هـ - 1447 هـ) حول كوبنوك على بحر مرمرة، ففعل مع إمارة فراسي ناحية الغرب. وقد حقق ذلك على استياءات في الأجزاء الداخلية بتحذف مع طرف ثم مع الطرف الآخر. وتلقى بعض الأراضي من كلا الطرفين كفاً له عام 1345 هـ، وربما كان الاستياء على إمارة فراعي ضرورة ملحمة بالنسبة للعثمانيين أكثر من انتصارهم على البيزنطيين، منذ أن مهدته لهم الطريق للوصول إلى جنوب قلعة عبر الدردنيل من شبه جزيرة غاليبولي حتى تمكنوا من التحكم في الشاطئ الجنوبي لبحر مرمرة تمامًا، ومكتتهم من عبر الدردنيل إلى أوروبا حينما لاحت الفرصة لأمامهم، وقد تمكن العثمانيون من ضم إمارة فراعي سنة 1347 هـ (1447 م)، وهي أول...

(1) تولى عمر بك ابن محمد المعروف باسم أمور بك إمارة أدوين سنة 1340 هـ (1441 م). وقد كون أساطيرًا قوية في قلبه البيزنطيين شرّة. ولكن الفرنسية استطاعوا بمساعدة البلقان إن يكونوا أساطيرًا صليبيةًا أكثر سهولة. أمور بك في إزمير، واستولوا عليها سنة 1344 هـ (1444 م). فيما بعد، بدعم سليمان: تاريخ الدولة الإسلامية، ج. 2، ص. 212، فطلب أمور بك حماية أورخان. (2) Stanford Shaw: Op. Cit. vol I. P. 14

(3) نوفي فراسي بك قبل سنة 1328 هـ، وبعد وفاته تصرف أبناؤه الثلاثة على العرش. فقُلِ على دميرخان باليكسير، وثاني بك سي بير خان، والثالث طورسون إلى أورخان يطلب مساعدته في ترکحه بعض المناطق نظر المساعدة المستحيلة. تتحرك أورخان ومعه طورسون إلى باليكسير، فقرر منها دميرخان إلى بير خان، فقُل على آخر طورسون واتفق معه على الصلح. وبعد أن أصبح دميرخان معه من إحدى فلاغ الدبابة في آخر صرعان. وبناء عليه أدرك أورخان باليكسير بعض المناطق الأخرى. وبهذا، تم حاصر بير خان، فلم يملكه على الطبيعة العلوية، وتمكن أورخان من ضم بير خان أيضًا.

(Annot: 79, 79)
ولاية إسلامية في الأناضول فتحها العثمانيون. وقد تم هذا الفتح بعد أن ساعدتهم هذه الإمارة كما أسلفنا، لأنها كانت تملك أسطولاً قوياً غزت به البلقان مرات.

وبهذه الفترات في غرب الأناضول، أصبح العثمانيون متحكمين في المنطقة المواجهة لأوروبا، وسمي برئيين على مضيق الدردنيل، فقد سقطت في أيديهم أهم المدن في تلك المنطقة.

لم يكن لسقوط بروس ونيقيا ونيقوديما صدى يذكر في أوروبا. فظهر العثمانيون حديث دون أن يلقى إليه العالم المسيحي باكالاً حتى البيزنطيون أنفسهم، والسبب في هذا راجع أولًا إلى الخلاف داخل الإمبراطورية حول العرش، ثم في النزاع بين اللاتين والسلاف للسيطرة على أجزاء من الإمبراطورية البيزنطية.

وثانياً أن العالم المسيحي حين تنبه إلى الخطر الإسلامي، لم يكن هذا الخطر في ظنه من ناحية العثمانيين، بل كان يحص فقط بخطر الإمارات التركية المسلمة المطلة على بحر أيجه، ولاسيما صاروخان وآدرين لوقوعهما على بحر أيجه، ولأن نشاطهما كان يشك بعزلة عناصر اللاتين في هذا البحر.

وفي سنة (1327م) هـ أرسل أندرونيكوس الثاني إلى البابا يوحنا الثاني والعشرين موجهاً نظراً إلى ما يتهدد العالم المسيحي من ناحية الأناضول ويطلب منه المساعدة، ولكن لا يمكننا تصنيف هذا الطلب عند شيء. وفي عام (1333م) هـ فتح أندرونيكوس الثالث البابا يوحنا في أمر الخطر الإسلامي. وفي نفس السنة أخذت البندقية تدعو كلاً من رودس وقبرص إلى

---

1. أحمد السيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، جـ 2، ص 301.
الاشتراك في حملة ضد الأتراك، ولم يتحمس كل هذه الانتصارات بين البابا والبيزنطيين والبندقية في عهد أورخان إلا عن سقوط نيقمطيا في أيدي العثمانيين. على أن هذه البقعة التي انتابت أوروبا من ناحية الخطر الإسلامي لم تسبب ضرراً لأورخان بل على العكس أفادته إلى حد بعيد، فقد أضعفته من آله أعدانه في الأناضول وهم أمراء صاروخان وأيدين. ولذلك نجد أورخان بعد عام (1344 م) ٧٤٤ هـ، يستعد لمد أملاكه في أوروبا، خاصة بعد أن استولى ابنه سليمان على أثركه (١) عام (1354 م) ٧٥٥ هـ، لكي تكون نقطة حصنية للأراضيه في الشرق.(٢)

والأيوبان أصبحت الدولة العثمانية تشمل على أربعة أقاليم: هي:

١- الإمارة الأصلية، وتشمل سكود واسكي شهر.

٢- إقليم السلطان الحاكم، ويضم بورصة وإزميد، وتحكم على أنها ممـ أملاك أورخان الخاصة.

٣- توجه إليها، وتشمل إزميد.

٤- إمارة قراسي، وتشمل باليكمـ(بالتركية) Bergama (٣).

(١) Dr Ismail Hakkı Adigeçen Eser, cit, p 124
(٢) فقد مراد الأول أتبرع في بداية عهده، ثم استرادها مرة أخرى، كما سماح بهما بعده.

تاريخ الدولة العثمانية
نوافة الجيش العثماني:

عين أورخان بعد توليه العرش أخاه الأكبر علاء الدين صدرًا أعظم، وكان علاء الدين أكبر عون لأخيه في كل فتوحاته، كما كان يهتم إلى جانب ذلك بالشئون الداخلية أيضًا، فقد سك العرش باسم أخيه، ونصب اللباس الديموطي العثماني ونظم الجيش. وفي صدارته، وبعد أن تمثل العثمانيين بعض هذه الفتوح، قدم إليه أحد كبار رجال الدولة ويدعي جاندرلي قره خليل فكرة إنشاء جيش جديد.

أمر أورخان بعقد مجلس المشورة حضرته أخوه علاء الدين وقراه خليل، لبحث وضع أسلوب التشكيلات الجديدة وأنظمتها. وكان بينهما تقدير رواتب العسكريين، بلغت ربع درهم للواحد منهم. ومن الجدير بالذكر أن هذه الرواتب كانت تصرف للجنرال ساحة الحرب، وبانتهائها تقطع وبهجدن إلى ديارهم وأعمالهم. وكانت هذه التشكيلات تتكون من "يايا" أي مشاة، ومسلمين.¹ ويبعد أعدادها كلما اشتدت رقعة الدولة. وقد ظهرت الحاجة ماسة إلى تعديلها شيئاً ما في المستقبل، نظرًا لأنها لم تكن كافية، وما كان من الممكن إجراز انتصار كبير والوضع كذلك. وقد أصيبت هذه القوات بعض الهزائم، مما دفع السلطان مراد الأول للتفكير في تغييرها بفكرة أخرى، وهي فكرة إنشاء فرق الإنشابية، التي ستتحدث عنها فيما بعد.

¹ أول علامة علمانية ظهرت في العملة التي نمت من القضة في عهد أورخان بدمشة بروسية 2272 (8729 م) أو 1238 م. ويقال أن العلامة الأهلية نمت لأول مرة في الدولة العثمانية على عهد الفاتح، وفي قول آخر على عهد محمد جسوس (ينص عليه الغالب بكت: تكوين سكرات عثمانية، ص 23 استقبال 1302 م).
² يعتقد أن "المسلمين" وضعوا أيديهم على أراض فيما بعد بأخبارهم "مسلمين" (انظر: هامتوب جب والرول بورون: المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة زيد أحمد عبد الرحيم، مطبعة جامعة القاهرة، ص 287، الفترة 1971). وبدؤاً أنهم كانوا أضواء الساموية، وهم الذين اكتشفوا من الفرسان.
³ Melunet Zeki Pakan: Adigeceen Eser, s. 617, 618
وليعتبر طائفتا "المشاة" وال"المسلحين" أولى طوافات العسكر لدى العثمانيين، وكان أفرادهما من الترك العُد على ما يبدو.

وعلى الرغم من أن فكرة هايكن الطائفتين كانت بسيطة، والعدد كان محدوداً، إلا أنهما ساهمتا في تحمل مهام العبور إلى البر الأوروبي لمد الفتح العثماني.

عبور العثمانيين إلى البلقان ورد الفعل لدى الأوربيين:

شجعت أحوال الدولة البيزنطية المنهارة أورخان على اجتياز الدردنيل إلى البلقان (1)، فقد كان الصراع على العرش على أشد في تلك الفترة مما مكن.

(1) نظر: هاملتون جب ومارولد بورن: نفس المرجع، ج2، ص78.

(2) عندما بدأ العثمانيون عبر الدردنيل إلى البلقان، كانت هناك دول كثيرة وامارات تحكم هذه المنطقة: كان البيزنطيين يحكمون شرق ترقيا ومنطقة سلانيك وشبه جزيرة الأناضول وبعض المناطق المجاورة. وكان القُيصر يحكمون شمال شرق البلقان. وكانت البلاد الصرب وسرز ومنطقة دراما تحت حكم الصرب. وكانت المنطقة التي تقع شمال أهر كلف بور، وهي إمارات الصرب والأرناؤوط أو الأرناؤوط الثلاثة. كانت مجموعة إمبراطورية النفوذ، وصقل مدينة ناين. وكانت بعض موائل جنوب شرق ترقيا تحت فتح فريتي. وانتقلت جزيرة أدربيز والمنطقة الساحلية في المورة وبعض الموانئ الساحلية الأرناؤوطية إلى البحر الأدرياتيكي تحت حكم البلقان. وكانت جمهورية راجوزة تحت في تسع الجزيرة الثقيلة على ساحل نسبيا في البحر الأدرياتيكي. وفي شمال غرب شبه الجزيرة البلقان كانت مملكة البوسنة كبيرة المنطقة، التي انتوت فيما بعد تحت حكم المجر. وكان هناك أسراء مغفرون وبحكم المنطقة التي تشمل الحدود الشمالية لليونان والصين الساحلي للطونة ومنطقة دول الروس في الأفلاق. وكانت دورهم نفسهم تحت حكم أخير بلفاغر.

هذه هي الدولة بالإمارات التي كانت موجودة عند بداية الفتح العثماني للبلقان. ولكان النزاع الدائم بين دول البلقان القريبة من العثمانيين، مثل الروم والبلغار والصرب، قد سهل على العثمانيين فتح البلقان. فبعد أن هزم الصرب أسطوانة نوشت، تقدمت بسلا الصرب ووزعت على الألواحبدو الإخوان، وكان الروم والبلغار وновجوس بالنزاع الداخلي، وقضية بما كان ملك المجرب، لبولي البير، منصب لتأصف المذهب الكاثوليك الذي يدين به. وبينما كان يُضر مندهشًا بالعنف والقتل على البلقان، كان الفتح العثماني في هذه المناطق بارزًا والذين يضيفون.
العثمانيين من العبور إلى الجانب الآخر من أملاك البيزنطيين دون أن يتصدى لهم أحد. (1) وقد حانت الفرصة بعد وفاة الإمبراطور البيزنطي أندرونوس الثالث 1341م، ونتازع بوخنا السادس كايتا كوزين ويونها الخامس باليونغوس على العرش. استجد بوخنا السادس كايتا كوزين بأورخان ضد منافسه بوخنا الخامس باليونغوس الذي طلب العون من أمير آيدين التركي أمور بك. وفي سنة 1344م فشل أمور بك في مساعدة حليفه. فسارع كايتا كوزين بالإلحاح على أورخان لكي يسرع في مساعده. عبرت قوة من الجيش العثماني إلى الدردنيل إلى تراغيا عام 1345م (745هـ) تحت قيادة سليمان باشا أكبر أبناء أورخان، وساعدت هذه القوة المكونة من ستة آلاف جندي تزديداً الإمبراطور على اعتلاء العرش، بعد أن استولت على الشريط الساحلي الواقع على البحر الأسود شمالي القسطنطينية وكان تابعًاً لأن ديو سافوي أي بوخنا الخامس. وقد كافأ كايتا كوزين أورخان على هذه المساعدة بأن زوجه ابنه تيودورا (1).

(1) Dr. Ismail Hakki: Adigeçen Eser, cilt 1, s. 155, 156

تذكّر جميع التاريخ العثماني تاريخ عثماني الجنسيّ في كتابها: التاريخ العثماني عثماني تاريخيّ، ص. 155، أن العثمانيين عبروا بحر مرمر بعد أن استولوا على مودانيا (على الشاطئ الأسيوي للدردنيل) سنة 1341م (745هـ)، وأخذوا يتجولون في شرق تراغيا بقصد الصلب والثيب لمدة ثمانية عشر شهراً، ثم عادوا إلى الأناضول مرة أخرى. وقد أفادتهم هذه الفرصة في معركة هذه المنطقة. (نُقِل عن):

Dr. Ismail Hakki: Adigeçen Eser, cilt 1, s. 155, 156
وفي سنة 1349م اضطرّ السليمان دوشان (1331-1355م) على سلانيك، فاستنجد كانتا كوزين مرة أخرى بأورخان، الذي أرسل إليه ابنه سليمان على رأس عشرة آلاف جندي. (1) تمكن سليمان من إرجاع سلانيك من الصربيين إلى البيزنطيين. وبعد فترة قصيرة هاجم كانتا كوزين بالبيولوجوس، فاستنجد الأخير بالصربي والبلغار وطلب الأول العون من أورخان كالمقدم. وقد تمكن سليمان من هزيمة هذه القوات في ديموثيقا 1352م، وفي المقابل منح Tzympe (چیمپه) على الدردنيل لكي تكون قاعدة لهم ينطلقون منها لمساعدته. وتعتبر هذه القلعة منطقةً للعثمانيين في المستقبل، إذ منها تتحرك سليمان شماليًا سنة 1353م، ليس بقصد شن بعض الغارات فقط، ولكن لتكوين مقر دائم للحكم العثماني في بعض المدن مثل Rodosto (نكر طاغ); (2) مستغلًا تحالفه مع جنوه سنة 1354م في تحقيق ذلك، خاصة وأن جنوه تريد أن تستفيد من العثمانيين في تحديد مركز البنقية التجارية في الإمبراطورية البيزنطية. (3)
استفاد العثمانيون من عبور الدراسين إلى تراقيا، فقد وقفوا على أحواض الدولة البيزنطية المنهارة من ناحية، واكتشافوا الطريق على الجانب الآخر من الدراسين. فتوغلوا في منطقة تراقيا، وحاصروا مدينة غاليبولى المحتكمة في مدخل الدراسين من ناحية أوروبا سنة 1354م (1751هـ)، وقد ساعدهم على فتحها زلزال هدم بعض أسوارها في 2 مارس سنة 1354م. واعتبر العثمانيون غاليبولي منطقة متقدمة لعملياتهم العسكرية في أوروبا مستقبلاً.

اعترض الإمبراطور البيزنطي على توغل العثمانيين في تراقيا، ولكنّه وجد مراوغة منهم، فاضطر لطلب المساعدة من الصرب والبلغار. ولكن دوره في استقام العثمانيين إلى أوروبا من خصوصه في القسطنطينية من أن يعزلوا عن العرش 1355م، وبعدها مكانه بالبولوغوس، ولكن الإمبراطور الجديد لم يكن خيراً من سلفه، بل لم يستطع أن يقدم على شيء. وقد أُجبر سنة 1356م على الاعتراف بالفوتوحات التي تمت على يد أورخان في أوروبا، (1) نظراً للسماح العثمانيين للإغذية والمؤون لكي تمر إلى القسطنطينية. وبدأ أورخان من ناحية أخرى يرسل أعداداً هائلة من قبائل التركمان إلى هذه المناطق، التي يمكن من تتريك تراقيا ويمنع كل الجهود الصليبية من أن تتفنّد بالعثمانيين خارج أوروبا. كانت هذه أولى ردود الفعل الشفوية للمسيحية الصليبية ضد الترك، ولم تتخذ خطوة عملية فورية ضدهم. (2)

ومن الجدير بالذكر أن الجيش العثماني في القرن الرابع عشر الميلادي تقدم نقداً ملمحاً في التنظيم والتتريب عندما اندفع إلى أوروبا وأخذ مكانه فيها، وتحقيق النفوذ على الجيوش الأخرى. (3)

---

(1) فتح سليمان في تراقيا: توله، وأبيه أورخان، وتكر، وحصار، وتكير طاغ، وطلال، (Ismail Hami Dainismand: Adigeceen Esr, cilt l, s.30)
فترة الإمارة في الأناضول

Bertrand de Broquiere - الذي كان يتجول في آسيا الصغيرة في تلك الفترة - العساكر العثمانين مشيراً إلى سواتهم وبيئتهم التامة واستعدادهم الدائم للقتال، بقوله: "إنهم على أتم الاستعداد للتتحرك بسرعة في أي وقت. ولمَّا جندى مسيحي ساعة انتقالهم وتحركهم من الضوضاء، ما لا يحدثه عشرة آلاف جندي عثماني. عندما تدق طبول الحرب تجدهم يزحفون على الفور، لا يتخاذلون ولا يتوقفون حتى تصدر إليهم الأوامر. يجهزون أسلحتهم باهتمام وحماس، ويقطعون في ليلة واحدة من المسافة، ما يقطعه أعداؤهم المسيحيون في ثلاثة أيام.

السياسة التي اتبعها العثمانيون في التوطين بالبلقان:

أتباع العثمانيون أسلوبين من التوطين بالبلقان عندما عبروا إلى هذه المناطق:

أولاً: نقل العثمانيون - أيام الفتوحات الأولى - المهاجرين من مناطق الأناضول القريبة مثل البايكير ومغنينيسيا وحواليهما، ووطنوه في المناطق المفتوحة حديثاً بالبلقان. ونقلوا الهجرات من المواطنين الروم من الأهلة ومن العساكر من مواطنهم بالبلقان إلى الأناضول.

وهكذا أصاب العثمانيون في خططهم هذه، فقد أسكنوا المناطق التي فتحوها بالعثمانيين ليؤمروا بهم، كما أفرغوا هذه المناطق من المقاومة بعملهم هذا.

(1) Lord Kinross Op. Cit., P. 34
(2) انظر خريطة دول البلقان ضمن فقسم الخرائط واللوحات, رقم (3).
فعين العثمانيون الشباب الذين ساعدوا من قوات القبائل في القلعة التي فتحوها في هذه المناطق للمحافظة عليها. وكذلك نقلوا بيوتاً بكاملها من منطقة فرساي إلى المناطق الأخرى التي فتحوها.

وقد تشكلت قوات من سباهية النمار في الرومي أثناء تكوين الإنكشارية والمشاة والمسلحين. كما تشكلت قوات من الغزاة تحت إمرة الغازى أورنوس، وهي القوات التي انفصلت عن المشاة وأقامت بالبلقان. وقد توطن المشاة الذين أخذوا من بعض العشائر في مغنيسيا وحوالياً في منطقة سزر، وأصبحوا يشكلون قوات الحدود.

ثماما: وأما تقدمت فترات العثمانيين فيما بعد من تراقيا إلى مقدونيا وبيلاريا، زاد العثمانيون من عملية التوطين وأصبحوا ينقلون الهجرات من أماكن مختلفة بالأناضول إلى الرومي. وهذه العملية تسمى في الكتب التركية سورغون واللغوية "السركون" وتعني النفي أو الإبعاد أو التهجير أو الإجلاء. Surgün وفي نفس الوقت كانوا ينزلون الأهالي من بعض المناطق التي فتحوها ويوطدون بالأناضول. وتوجد قرية تسمى "قرية البلقار" بجوار إزنيق نقلت إليها الهجرات من بيلاريا في القرن الخامس عشر الميلادي على سبيل المثال.

وبهذه الطريقة، فخلال قرن ونصف القرن من الزمان، أصبحت في البلقان مناطق تركية إسلامية تمامًا، بفضل المؤسسات العلمية والاجتماعية التي انتشرت في المدن والقضاء. ولقد لعبت فكرة تشكيل قوات الدوشيرة من البلقان دورًا هاماً في عملية تطوير هذه المناطق دون شك.

واستمرت عملية التهجير التي أتاحتها الدولة العثمانية بطريقة منظمة ببداية من منتصف القرن الخامس عشر الميلادي إلى منتصف القرن السادس عشر.

تاريخ الدولة العثمانية
وقد نقلت الهجرات من المدن التركية بما فيها المدن التي تتركت في الروماني إلى الصرب والصقور بعد أن فتحوا نقل جزء من المسلمين المسلمين الخطب في هاتين الدولتين إلى سلبي و المناطق المحيطة باستانبول و يدي قلاته. ولمما سقطت إمبراطورية طرابزون بالأسس في أذي العثمانيين نقلوا إليها الهجرات من المناطق المجاورة أيضاً، إذ لم تقتصر عملية التهيج على النقل من الأراضي إلى البلقان ومن البلقان إلى الأراضي.

ومارس العثمانيون التسامح الديني بأنه صوره مع الأديان الأخرى، وفرضوا الجزية مقابل احتفاظ التبعة بأديانهم، تمشياً مع مبادئ الدين الإسلامي السماحة.

توفي أورخان، وتولى العرش مكانه ابنه مراد الأول (خذواندكار) (1)

(1309 – 1389 = 766 – 792 هـ). وقد تولى الفتاحات في البلقان في

(1) Dr. Ismail Hakkı Adigeçen Eser, cilt I., s. 179-181

(2) السلطان.

ومن الجدير بالذكر أن المعالمات التركية القديمة تؤكد أن تعيين الحاكم يكون بأمر الله وحده. ووضع فانون لوراثة العرش أو تحوسط الصلبان المنطوق، يعني اعتراضاً على الإسادة الإلهية. فقال السلطان سليمان القانوني لنكن يا إلهنا وهو يغزمه بعد أن تأمر طمعا في الحصول على العرش: أنك كل شيء في المستقبل، وقدك، لأنك لمسئت رغبة الإنسان، ولكننا إرادة الله. فقضى الله أن (Dr. Halil Inalcik: Op. Cit., s. 5) تولى العرش من بعيد، فلن يستطيع أي إنسان أن يمنع ذلك.

و比利 محمد فريد على إقام السلطان مراد الأول على قتل ابنه صلر (كما سيجعيه نوفره)

بأن العثمانيين لم ينفردوا بارتكاب هذا الإثم، فكثيراً من الملوك حاكموا أولاهم أو أخوهم، لما يثبت عليهم خيبة الأمة.

1. فقد سجن بطوس الأكبر الرومي ابنه وولي عهده أليكسيس. ولمما ناكه من جناه حتى دعم استعداد القسطنطيني في القيام بجوانب الممالك بعد جمع مجاوما علناً راكباً من أهر رجالة الدولة، وحكم عليه هذا المجلس بالإعدام، لكن لم ينفذ عليه الحكم جهاراً بل وجد ميناً في سجله في صيحة اليوم.

تاريخ الدولة العثمانية
عهدته، فلم تكن الخلافات حول عرش الدولة البيزنطية المضمحلة هي وحدها التي ساعدت العثمانيين على التقدم في البلقان، ولكن الخلافات والمنازعات التي حدثت بين المسيحيين الشرقيين والغربيين، بالإضافة إلى الخلافات بين دول البلقان نفسها تلك الخلافات عميقة الجذور التي حدثت بين الدولة البيزنطية والصرب والمجر وبلغاريا... شجعت العثمانيين على التقدم في فتوحاتهم في البلقان. كانت الخلافات والخصوصات بين هذه القوى أكبر وأعمق من خلافاتها مع الدولة العثمانية. وقد حدثت في تلك البلاد منازعات على العرش أيضاً، أدت إلى صراعات طويلة شغلت قواتها في أمور داخلية، وانشغالت عن الأخطار الخارجية التي تهددها.

كان الوضع إذن مشجعاً للعثمانيين على الفتح، فقد كانت بلغاريا وبيزنطة في مرحلة متقدمة من الاضححلال، وإمبراطورية الصرب التي أنشأها اسطوان دوشان قد تمزقت إلى أجزاء بعد موتها سنة 1355م. والإمارات اللاتينية في اليونان والموره ضعفت من كثرة المنازعات الداخلية، وجزر بحر أبجه تحكمها الأسر الإغريقية والبندقية والجنوبية مثل فرسان روتس، وقد وجد هؤلاء أن من المستحيل عليهم الاتحاد فيما بينهم ضد العثمانيين.

كان أول عمل قام به مراد الأول قبل التحرك إلى البلقان، هو مد النفود العثماني حتى أواسط الأناضول، فاسترد مدينة أنقرة حاضرة إمبراطورية بني قرمان، لقيام أميرها ببعض المنازعات على الحدود. وبعدها أطر علاء الدين أمير...

المحدد لتنفيذ الحكم عليه، ولم تعلم كيفية موته بالضبط لكن من المؤكد أن موته كان بإيقاع من والده ( محمد رفيع: المرجع السابق، ص 144)
خداوندان: لقب أطلق على مراد الأول، يعني في الفارسية: حكم، أمر.


تاريخ الدولة العثمانية
الفصل الثاني: فترة الإدارة في الأناضول

القرمان الصلح مع السلطان مراد، لكي يحتفظ ببقية أمله وروجه إبنه. كما قام مراد بفتح بعض المدن على ساحل البحر الأسود، وفي داخل الأناضول بعيدًا حتى "طواقت".

وفي تلك الأثناء فتح القائد العثماني لإباهيني مدينة ديموثيقا ثم مدينة Adrianople سنة 1362 (1462هـ)، وهي عاصمة تراثية وعاصمة ثانوية بين مدن البيزنطيين بعد القسطنطينية. وقد جعلها السلطان عاصمة لملكته بعد أربع سنوات من فتحها حين استمرت فيها الحكم العثماني، واستمرت حاضرة العثمانيين إلى أن فتحت مدينة القسطنطينية سنة 1453 (857هـ)، فتقلت العاصمة إليها.

ثم استولى مراد على فلیبيه وادي مريج (مارتريزا) الذي يبعد القسطنطينية بالجسر كضرورة للدخل. وقد مكنه ذلك أيضًا من عزل البلغار عن الإغريق، ومن تثبيت قوئه على طول مساة بحر أيجه. وهذا ما دفع البيزنطيين إلى الدخول في نوع من الخضوع للعثمانيين وفروعها على معايدة مع مراد سنة 1363 (1463هـ)، اعتفوا فيها بكل ما استولى عليه العثمانيون في البلقان، وعندما ،عبر يافأ أمراء البلقان عن التأمر ضد مراد في مقابل تعهد بعدم مهاجمة القسطنطينية، وبدمهم بالطعام الذي تحتاج إليه. وهكذا أصبح مراد حرا في القدوم إلى الأندلس دون خوف على مؤخرة جيشه إلى حد ما.


تاريخ الدولة العثمانية 52
بعد سقوط أدرنة في أيدي العثمانيين، أحس الأوروبيون بالخطر الذي ينتمون نحوهم. فقام البابا أوربان الخامس سنة 1244م بدعوة أوروبية غربية لمساعدة دول البلقان في شن حرب صليبية ضد العثمانيين المسلمين الزاهفيين تجاه بلادهم. ولكن انشغال الدول الأوروبية بالعداء والبغضاء، جعل نداء البابا غير مجد. فكل الدول الأوروبية كانت مشغولة، إما بالحروب والمنازعات فيما بينها، أو بالصراع على العرش، وعلى الرغم من ذلك لبت النداء قوات من الصرب والبوسنة وハンغاري، واشتركت في الحرب ضد العثمانيين.

كان السلطان في الأناضول في ذلك الوقت يقوم ببعض المعارك في منطقة بروس. فعين قائد الجيش العثماني للا شاهين الموجود في البلقان، القائد حاجي إيل بكى للتصدي لهذه القوات الأوروبية الزاحفة على أدرنة. وقد تمكّن هذا القائد المحنك من مباغة هذه الجموع أثناء سكرها في منتصف الليل وفرق شملها وقضى عليها عند شاطئ نهر مرجي إلى الغرب من أدرنة سنة 1364م.
وتُعرف هذه المعركة التاريخية في كتاب التراث، باسم "نصر صربي صنديغي" أي انسكار الصرب.(1)

وهذه هي المرة الأولى التي تتوج فيها الجهود المسيحية ضد العثمانيين لكي تقوم بعمل ضدهم. فقد شجع انتصار العثمانيين عليهم "مرادا" على محاولة التقدم إلى الأمام.

(1) أثار هذا النصر الكبير حصد للا شاهين، قد السم للقائد المنتصر حاجي إيل بكى. (د. أحمد السعدي سليمان: مذكرات في تاريخ الدولة العثمانية، ص 219).

تاريخ الدولة العثمانية
الفصل الثاني: فترة الإدارة في الأناضول

ونادي البابا مرة أخرى بالتحالف المقدس ضد العثمانيين سنة 1366م، فلم يلب اندلاع إلا الكونت إيميديه الثاني كونت سافو، الذي استقل أسطولاً حاصر به غاليبولى، وتمكن من استردادها، وتسليمها للبيزنطيين في 24 أغسطس سنة 1366م.

ومع ذلك فقد ثبت العثمانيون أقدامهم في تراقيا، وشرع مراد في تهييـت حكمه في المناطق التي فتحها، فوطـن بعض التركمان في بعض مناطق البلقـان التي أبدت مقاومة أكثر للعثمانيين. كما نقل بعض الفلاحين المسيحيين من البلقان وخاصة من ضواحي أدرنة ووطنهم في الأناضول كي يضمن ولاهم له. (1)

وهكذا تمكن العثمانيون من الاحتفاظ بأدرنة عاصمة لهم.

تعتبر أدرنة بحق مدينة هامة بالنسبة للعثمانيين، وبسقوطها فـي أيديهم ونقل العاصمة إليها بدأت مرحلة جديدة في تاريخ العثمانيين بعد أن استقر لهم حكمها. فهذه المدينة التي تتمتع بموقع جغرافي ممتاز، جعلها العثمانيون منطقة متقدمة لعملياتهم العسكرية، فنقلوا إليها مقر الجيش العثماني. (1) وكانت الجيوش تتحرك منها صوب أوروبا أو آسيا أحياناً، على الرغم من وجود مركز آخر للجيش في أستكادار على الجانب الآسيوي المقابل للقسطنطينية ولكنه لم يكن في حجم المقر الموجود في أدرنة. هذا نقل العثمانيون مقر حاضرتهم لأول مرة من الأناضول إلى البلقان، من آسيا إلى أوروبا، على الرغم من أن أدرنة فـي


(2) نقل مركز الأولى التشكيلات العسكرية من بروسية إلى أدرنة سنة 1366م، وقد كانت ديموطيـفا تستخدم كـمـركز للتحركات العسكرية في البلقان قبل نقلها إلى أدرنة.

(Bir Heyet: Adigüzen Eser, cilt 1, s. 106)
ذلك الوقت كانت مجاورة لكثير من الدول الأوروبية المعادية للعثمانىين، ونقل العاصمة إليها بعد خطوة جريئة في تحدي الدول الأوروبية المحيطة.

وبهذا البيت، فتح العثمانيين لمدينة أدرنة، الفتح الذي قرر مصير البلقان فيما بعد. فقد جرت عدة محاولات صليبية بعد فتحها تهدف إلى استرجاعها وطرد العثمانيين من البلقان. ولكن العثمانيين نجحوا في صد هذه المحاولات الصليبية رغم عنف بعضها وشدته. ثم جاء فتح القسطنطينية فيما بعد، لكي ينهي وجود الإمبراطورية البيزنطية، ويثبت للصليبيين عجزهم أمام القوة العثمانية الناھضة، ويثبت أقدم العثمانيين أكثر في البلقان.

ويتمثل الانتصار على الصرب "صرب صنديغي" نهاية المرحلة الأولى للفتح العثماني في بلغاريا. وقد فتحت أدرنة وغرب تراقيا، وسحقت محاولات المقاومة كلها. وأصبح نهر مريج بكلمه تحت السيطرة العثمانية، وأجبر البيزنطيون على الخضوع، وفتح الاحتلال في فليبه الطريق إلى الصرب، ونتلى النفوذ الهنغاري في البلقان لطمة قوية. (1)

ثم استولى قره تيمور تاش على قزل آغاج جنوب بلغاريا سنة 1367م، وعلى ديمبوليس (يانبوليس) وفتح لا الشاهين سماكوف جنوب صوفيا. وتمكن السلطان مراد الأول بنفسه من دخول فاريناياد وسوره بولى من بلد البلغار سنة 1368م. وأتم فتح شرق تراقيا، بعد أن استعاد قرب كليسه (قرقلالي). (2)

1 د. أحمد السيد سليمان: المراجع السابق، ص. 20
ووقع شيشمان ملك البلغار (الذي يحكم المنطقة الممتدة من نهر الپونـه إلى رودوب بالبلقان ووسط بلغاريا وجنوبها وقسمًا من تراقيا قبـل أن يفتحـه العثمانيون) الصلح مع العثمانيين معترفاً بما فتحوه ومقرًا بدفع الجزية. وتزوـج السلطان ماريا أخت شيشمان (1)

وجد العثمانيون مجالًا متسعاً في أوروبا، لتوجيه نشاطهم في الفتح، وكانت حروبهم بمثابة "جهاد" لفتح "بلاد الكفر" كـما كانوا يسمونها وضمنها لحوزة الإسلام. وقد رفعت هذه الفتوح مكانتهم في العالم الإسلامي كحماة للإسلام.

الانكشـارطة:

يزعم الفضل إلى السلطان مراد الأول في إنشاء الانكشـارطة، إلا أن تاريخ نشأتها غير معرف بالتحديد. ويقال أن سبب إنشاء هذه الفرق يعود إلى اتساع رقعة الفتوحات العثمانية التي استلزمت إعداد جيش منظم يبقى تحت المسـلاح باستمرار، ويتعاون مع القوات التركية المسلمة التي كانت النواة الأولى للجيش العثماني. هذا وقد تكوـنت هذه القوات من أسرى الحرب أولاً، ثم من الشباب وغير المسلم ومن العناصر غير التركية (2)

(1) Dr. Ismail Hakki: Adigeçen Escri, cilt 1, s. 170

(2) Reşad Ekrem Koç: Yeniçeriler, s. 9

Istanbul 1964
كانَت الاِنتِكسارية تَتَّخِذ من خُصُص الأَسْرَى مِن الْبَلَقَان. وقد حُرَّم عليهِم الزواج، لَكِي يَتْنَظِمُوا فِي الْجَنَّيْدِ بَاسْتِمرار. وَخُصِصَت لَهُم غَرْفٌ أي مُعْسِكَرَات خَاصَّة، كَانَت فِي أَدْرُنِه الْعَاصِمَة ثُمَّ انتَقَلَت إِلَى أُسْتَانْبُوْل بَانْتِقَال الْعَاصِمَة إِلَيْهَا.

وَقَد مَرَ قِبْلَ أَفْرَادِ الْأَنْتِكسارية فِي الْجَنَّيْدِ بِمُرَحَلَتِين:

الأَوْلِيَةُ: عِنْدَا لَمْ تُشْتَهِي هذه الْفَرْق حَدِيثًا، فَكَانَ الأَسْرَى يَعْلَمُونَ الْتَرْكِيَة وَعَادَاتَ الأَتْرَاُكَ وَتَقَالِيدُهُم عِنْدَا طَريِّقِ إِرسَالِهِم إِلَى الْمُزَارِعِين فِي الْأَسْلَوْل قَبْل تعْلِيمِهِم الْجَنَّيْدِيَة. وَكَانَ الْوَاحِد مِنْهُ يَتَقَاسَى أَقْطَرُ (عَمَلَة عَثْمَانِيَة) فِي الْيَوْم.

الثَّانِيَةُ: عِنْدَا لَمْ تُشْتَهِي فَرْقُ الْعَجْم وَضْعَت فِي مُعْسِكَرَات خَاصَّة بِهَا.(1)

وَكَانَ اِخْتِيَارَ شَنَابِ الْأَنْتِكسارية يَقُوم فِي الْمُحلِّ الأَوْلِيَ عَلَى لِياَقِتِهِم الْبَدِينِيَةَ وَيَقُولُ عِلْمُهُم نَوع صَارِم مِن التَّدْرِيْب العَقْلِي الْبَدِينِي فِي نَفْس الْوَقْت. وَكَانَ قَدْرَتِهِم تَتَخْتِيرُ أَثَّارًا تَدْرِيْبُهُم رَفْقَ مِنْهُم المَعْلُوم الَّذِي يَبْدِي لَقَاءً لَهَا. وَكَانَ أَكْثَرُهُم استَعَدَاً فِي الْلِّيَقَاة الْبَدِينَة الْعَقِلَيَةَ وَبِخَاصَّة فِي النَّاحِيَة الْأَخْيَرَةٍ يَخْتَارُون بِمَبْلَى أُجْلَانَاتٍ أَي عَلَمُانِ البَلَط. ثُمَّ يَقُولُ عِلْمُهُم تَدْرِيْب خَاصَّ فِي أَحَد الْقَصَور السَّلَطَانِيَة الْقُديَّة فِي بِروْسِه وأُدْرُنِه أو فِي مُمْدَارِ قَصَور خَاصَّة فِي غَلْطَه وَفِي أُسْتَانْبُوْل ذَاتِهَا. وَأَخْبِرُ أَنْ يُسْمِح لَهُم بَخُولِيْ قَصَر السَّلَطَان حيث يُرِقَوْن حُسب الكَفَأَةُ الْشَخْصِيَة فِي درْجَات مَخْلُوفة مِن أَعْمَال الخَدْمَة مِنْ نَوْعٍ أَوْ أَخْرَ. وَيَوْكَل إِلَى المَتْقْؤِفِين مِنْهُم شَوْنَ السَّلَطَان الشَخْصِيَة.

(1) مُحَمْد زِكَي باكالِي: أَدِيْقَةُ عِيْشِ. جُرَّ. ث. ج. 620
وبعدينون في "جناحه الخاص". ثم كانوا في الوقت نفسه يُدرّبون ليس فقط على أعمال البلاط، بل أيضًا على فنون الإدارة والقيادة، إذ أن أعلى وظائف الحكومة كانت تملاً بخلاصة الخلاصة منهم. وكانوا يتعلمون القرآن والشريعة باللغتين العربية والفارسية ورمي السهام والضرب بالبنادق والعلوم العسكرية وركوب الخيل والرمي بالحرب والعزف الموسيقى.

وكان هناك نوع آخر من المجندين من الإنكشارية، يُطلق عليهم "عجمي أوغلان" أي العلماء العجم. يخضعون لنوع مختلف من التعليم كان يتلمس منه في المقام الأول أن يعودوا على قوة الاحترام. وكان الذين لا يستطيعون تكلم اللغة التركية منهم يوضعون أولاً في خدمة السباهاة (الفرسان الإقطاعيين) في الأناضول، ثم ينقلون فيما بعد إلى إسطنبول حيث يعاد اختبارهم بدقة، لكي يُعيّنوا في مهام مختلفة طبقاً لقدراتهم.

وعلى أي حال فإن الإنكشارية في أي فرقة، كانوا منذ البداية "قبو قولليم" أي عبيد الأبواب السلطانية. ويبدو أن فرقتهم قد تأسست بصعوبة للسلطان، ولهذا كانت تتبعه أنى ذهب، وبرغم أن عددًا كبيرًا من الأورط ظل بيعم حيث يستقر السلطان، فإن معظمها أصبحت بعد تزاياد أعداد الفرقة توضع في حاميات الولايات حيث كانت تخضع لإمارة الولاة المحليين.

وكان أغا الإنكشارية شخصية بالغة الأهمية، فمن ناحية كانت قواته أقوى أداة عسكرية تحت تصرف السلطان، ثم من ناحية أخرى لأنه كان يعمل أيضًا مديرًا للبوليس في إسطنبول ذاتها. وكان - بحكم منصبه - عضوًا بديوان السلطنة. وكان مقدماً على كل الوزراء الذين نقل مراتبهم عن مرتبة الوزير.
الحقيقة الحرب كانت له ميزة قيادة الأوجاع "الفرقة" إذا توجه السلطان بنفسه إلى الحرب، إلا إذا كان يرسل نائباً عنه كي ينفذ أوامر القائد الذي يدير العمليات.1

ومن الجدير بالذكر أن الأنكسارية يطلق عليها "الفساكر البكتاشية"، نسبة إلى الطريقة الصوفية البكتاشية التي كان مقرها أسماء بالأنطون. ويقال إن شيخ هذه الطريقة يدعى "حاجي بكتاش ولي" بارك المجيدن الأول بوضع كمّه فوق رؤوسهم، ومن هنا أوصي إليهم باختيار لباس رأسهم الغريب ذي الزائدة الاستثنائية الطويلة. وقد أثبت المؤرخ التركي الكبير محمد فواز كيريلي أن حاجي بكتاش لم يكن له أدنى ارتباط بإنشاء الأنكسارية لأنه توفي قبل قرن من الزمان تقريباً قبل التفكير في إنشاء هذه الفرق. ولكن المرجح أن دراويش هذه الطريقة استمروا عليها بركات شيخهم الأول ومؤسس طريقتهم.2 ويدو أن

1 كان أغناي الإنكشارية مقدماً على كل القواد فيما عدا أيام الأعياد، حين كانت الأسباقة عليه لقواد السباكة وبلوكات السلاجق. وهم أقدم عداء من الإنكشارية (المجمع الإسلامي والغربي، حاشية ص 89 من ج 1.)
2 هاملتون، جم.، وهرولد، برون: نفس المرجع، ج 1، ص 84-85، 87، 88، 89، 91.
3 Köprülü Zade Mehmet Fuat Türk Edebiyatıinde İlk Mutasavvıllar, s. 56 hasıyesi. İstanbul 1952

لم يذكر طاش كوركي زادة (توفي 1268 هـ)، شيئاً عن علاقة حاجي بكتاش بالانكسارية، رغم أنه ذكر ضمن عامة أعياد عصر السلطان مراد الأول، ولم يذكر ميلاده أو وفاته. (طاش كوركي زادة: الشفاقي النحوي في علماء الدولة العثمانية، ص 116، 1940.) وذكر محمد ثريا أن حاجي بكتاش محمد بن إبراهيم العباسي (توفي 1073 هـ) استقبل configuratio معهم في معركة مارغود (توفي 1311 هـ). وذكر داروة الداريني الذكي (م 3، ص 8) أنه توفي 1337 هـ.

أما دائرة المعارف الإسلامية (م 37 ص 476)، فنقول أن المعلومات التي لدينا عن الحاج بكتاش معلومات إسطورية. وقيل أنه ولد بديهيرور ودرس على أحمد بسوى. أما سنة 938 هـ (1337 م) التي رواها أنها سنة وفاته فهي عبارة عما و ألف لنطاق بكتاشية في حساب الجمل، ومن المرجح في ظل أن حاجي بكتاش نوفي قبل نشأة الإنكشارية.

تاريخ الدولة العثمانية 59
اللفظ الثاني: فترة الإمارة في الأناضول

الطريقة البكتاشية قد نظمت في القرن الخامس عشر، ولكنها لم تلق الاعتراف الرسمي بها حتى نهاية القرن السادس عشر، وعلى أي حال فقد أعلن في عاـم 1591 أن الـطريقة قد ارتبطت بالأورطة التاسعة والتسعين.1

كان الجيش العثماني يتكون في مجمله من تشكيلين اثنين: أحدهما يسمى "يرلى قولى عسكري" أي العبيد المحليين من العساكر. ويذكرىون في التـاريخ العثماني بـ "تيمارلى سمايلر" أي السباهرة أصحاب التيمارات. وهم جمعياً من الفرنسيين الذين وحهوا إقطاعات. ويعمون من وُجُرِد من ولايات الدولة العثمانية في أوروبا وآسيا وأفريقيا.

أما الشكل الثاني، فهو "قابو قولى عسكري" أي عبيد الأبواب السلطانية من العساكر. وهم الفتيان الذين ينضمنون إلى الجندي في سن صغيرة، ويتضمنون روافد من خزينة الدولة. ويتضمن إلى ثلاث فرق: القوات البحرية وقوات الخيالة وقوات المشاة. وكان المشاة ينقسمون بدورهم إلى ستة فروع، تعتبر قوات الانتشارية إحداها.2

وبانتقال العاصمة من بروس في الأناضول، إلى أدرنة في البلقان، وتوغل العثمانيين أكثر في البلقان تنتهي مرحلة من مراحل تاريخ الدولة العثمانية، وهي فترة الإمارة في الأناضول.

(1) هاملتون ج. وهرولد بورن: نفس المرجع، ص 95.
(2) Reşat Ekrem Koçu: Adigeçen Eser, s. 57,59
الفصل الثالث

فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

١٣٥٠ هـ (١٤٨١م) - ١٣٧٠ هـ (١٥٥٢م)
تقدم العثمانيين في البلقان:

بعد أن نقل العثمانيون عاصمتهم إلى أدرنة ولم يقث أحد على مواجهتهم فور استيلائهم عليها، بدأوا بعدها يوسعون دولتهم عن طريق الفتوحات في "بلاد الكفر"، كما كانوا يسمونها. وقد تأكد لهم أن الدولة الأوروبية والحماية هذه لا تقدر على مجابهة القوة العثمانية الناشئة. وأخذت هذه القوة تنمو، وتنمو معها الدولة وتتسع أرجائها، إلى أن أصبحت إمبراطورية متراوية الأطراف.

كان سقوط أدرنة في أيدي العثمانيين، بمثابة إندار بالخطر للدول الأوروبية، فبدأت منذ ذلك التاريخ تتجمع من وقت لآخر لشن حرب صليبية ضد العثمانيين المسلمين. كما كان فتحها مشجعاً للعثمانيين على المضي قدماً في البلقان.

انتهى لا إلا شاهين 1371 م بملك البلغار شيشمان الذي تحالف مع ملك الصرب، وتمكن من هزيمتهما، والاستيلاء على جتالجه وما حولها من القلاع.

وبدأ العثمانيون بعد ذلك يفكرون في فتح شمال البلقان. (1)

سار الفائز العثماني أورنوس بك بحذر نهر مريح، واستولى على إيسالا ودموطيق، ثم استولى على قوللا ودراو وسرز وساسانيك (2)، وأرسل بعض

(1) Dr. Ismail Hakki: Adigeçen Eser, cilt 1, s. 171

سلانيك، مدينة يونانية قديمة جداً، تقع في جنوب بلاد ما مwagonا على بحر الأرخبيل، سمى ترسام. ولم تتو في سيود (ت 248 ق م) مثال على بلاد ما واننا. أطلق عليها مسمى زوجته لمغت الإسكندر الأكبر بسم "سلانيك". وحرف هذا الاسم على مر الأجيال، قصر سالونيك أو "سلانيك".

(2) محمد فريد: المراجع السابق، ص 46.

تاريخ الدولة العثمانية

63
المغيرين على ألبانيا (1385 هـ-1386 هـ) ثم فتح مراد بنفسه صوفيا عاصمة بلغاريا، وأُبرم شيشمان على عقد الصلح معه 1386 هـ، وتزوج ابنته تمارا. ثم اضطر الإمبراطور البيزنطي لتجديد المعاهدات مع مراد، وترك له غالبيته.

وهذا النجاح الذي تحقق في أواسط بلغاريا وسهول مقدونيا وترقيا فتح الطريق أمام القائد العثماني قرة تيمور تاش، فاستولى على منستر وبرلبه في غرب بلغاريا، ثم هزم الجيش الصربي البلغاري في جربمان، وهكذا تقدم في المناطق الواقعة في جنوب الصربي، ثم فتح نيش 1386 هـ، وأُبرم أمير الصربي لازار على عقد الصلح ودفع الجزية، واستمر في تحركه في جنوب الصربي للاستيلاء على ما تيسر من الأراضي، ثم أغوار على البوسنة من 1388-1389 هـ.

كان كل تقدم يتحقق من جانب العثمانيين يحمله بعيداً عن مركز قواتهم وقريبًا من أعدادهم هؤلاء. ومع أن الأمير لازار قبل السيادة العثمانية إلا أن تيمور تاش كان يواصل تقدمه. وكان هذا التقدم يلقى الروغ في نفس الأمير، الذي كان يظن أن العثمانيين يهددون إلى القضاء عليه قضاءً مبرماً. لهذا تحالف مع ورثة دوشان في الصربي ومع ملك البوسنة، وقد باغت المتحالفون تيمور تاش في بلوشك على نهر مورافا (1388 هـ-1391 هـ)، مُنهرتين فرصة انشغال.

وفي هذه الأثناء تمرد صلويجي أحد أولاد السلطان على والده بالاتحاد مع أتاتوركس ابن إمبراطور الروم حنا باليولوج الذي كان والده حرمه من الملك بعد وفاته ради ابنه الأصغر أمير تزغ. وتحزب معا ببعض من أصلهم الجمع والغور غير نافذة إلى أن هذا الشقق الداخلية لا يكون وراء إلا ضغط الدولة وتمكّن أعدائها من الاستقرار عليها. لكن لم يدع السلطان السفاح الوالديه تغلب عليه بل أرسل لمحاربة ولد المتمرد من فقهه هو ومحاربيه وقتله وجميع من حازبه من أشبال الروم. (محمد خير: نفوس المصدر، 1444).

تاريخ الدولة العثمانية 64
الجيش العثماني في بلاد القرمان بالأناضول، وانتصروا عليه انتصاراً ساحقاً، وأجبروه على التخلي عن جنوب الصرب، والتراجع إلى نيس. وكان هذا هو أول انتصار مسيحي هام على الترك، رد للإزار اعتباره وشجعه على تكوين تحالف بلقاني يشمل الصرب والبلغار والبосنة والأفلاق وبعض الألبان من الذين قيلوا السيادة العثمانية عندما ظنوا أن الترك لن يوقفوا.

ومع ذلك كان مراد قادرًا على سحق البلغار فيما بعد، وإجبار شيشمان على قبول التبعية مرة أخرى. وهذا ما جعل أمال البلقانيين تتعلق بجيش إزار. تقدم إزار في سبيل تكوين جيشه، وكان يشتم جنوداً من بلاد بعيدة أحسست بالخطر العثماني يتقدم نحوها كالبوسنة وهنغاريا وبولندا. وفي مواجهة هذا التهديد، حاول مراد أن يجمع قواته المختلفة التي تشمل تابعه من البلغار وبيزنطة في جيش موحد. وبينما كان مراد يعد العدة لمواجهة التحالف البلقاني، إذ يُعبر على إرسال جزء من جيشه إلى الأناضول لمواجهة عدد من المنافسين الخطرين.

وكان الوضع في الأناضول على درجة عالية من التعقيد، فهناك قطاف في سياسة ودولة الشاه البيضاء والقرمان أُقرّ إمارة تركمانية في وسط الأناضول. وفي مواجهة هذه الأخطار الكبيرة، تتبع مراد سياسة أبيه الرامية إلى التقدم في الأناضول بالطرق السلمية، فزوج ابنه بايزيد ابنه أمير غرمان التركمان، وحصل بذلك على نصف الإمارة القريب من القرمان، وشمل كوتاهيا كمر للها. ثم أقنع حكام "عثمان" بأن بيعه الجزء الأكبر من إقليمهم المستاخم للقرمان. وقد حملت هذه الإجراءات العثمانية إلى جبال طوروس. وعلى الرغم من كل هذه الإجراءات فإن القرمان لم يوقفوا عن إثارة الفتن والقتال. وقد شجعهم البابا والصرب والبلقانيون على ذلك، فاستولوا على معظم...

تاريخ الدولة العثمانية
الفصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

الأراضي التي اشترتها مراد من إقليم حميد. وأمام ذلك أراد مراد أن يستعيد هيبة الدولة العثمانية في الأناضول، فجمع القوات التابعة له ويبني قوّاته من البلغار، وهاجم القرمان مستعيناً بهذه القوّات المسيحية لسحق الخطر الترتكماني.

ويقال أن العثمانيين استعملوا في حربهم ضد القرمان المدافع والبندق القديمة لأول مرة، وحظوا بها بعض النجاح، ثم نقلوها إلى أوروبا واستعملوها ضد قوات لازار المسيحية، وأحرزوا بها نجاحاً كبيراً.

موقعة قوصوه الأولى ونهاية مراد الأول:

كانت المعركة التي وقعت في قوصوه جنوب بلاد الصرب في Kosovo 10 أغسطس 1389 م (17 شعبان 791 هـ) معركة حاسمة. اشترك فيها مُن أمراء البلغار مع لازار، ملك البوسنة تورتكو، وفوك برانكوفيتش صهر لازار، ومركيا الأكبر أمير الأقلاج، وجورج كاستريوتا أحد أمراء ألبانيا، ولم يشترك معهم الإمبراطور البيزنطي جون الخامس، واشترك قسطنطين وأمير كوسنتديل البلغاري مع مراد الذي قاد القوّات العثمانية بنفسه. كما اشترك معه قليل من أمراء الصرب المناقنين للازار، وعدد من أمراء الترتكمان بالأناضول وأتباعهم، خاصة أمراء صاروخان وآخرين ومنتشه وحميد وتكه.

رجحت كفاح التحالف البلغاري في البداية، ثم تفوق الجيش العثماني في أواخر المعركة، وقتل السلطان مراد الأول. إلا أن ابنه بايزيد أكممل المعركة وقاد القوات إلى نصر محقق. وتعزز بعض المصادر هذا النصر إلى مراد الذي

(1) انظر مخطط "ميدان معركة قوصوه الأولى" من قسم الخرائط واللوحات رقم (4).

تاريخ الدولة العثمانية

66
الفصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

سقط شهدًا بعد النصر(1)، وما لبث العثمانيون أن أسروا ملك الصرب لازار، بعد أن انقض من حوله حلفاؤه، وقطعوا رأسه ورؤوس رفاقه عند أسرهم وفقًا لأوامر السلطان المحترض على ما يبدو(2).

وتذهب الروايات التركية إلى أن ميلوش قابيلوفتش(3)، وهو مقاتل صربي أصيب بجراح فانتحر في الميدان، إنما قتل السلطان غيلة وغدرًا أثناء تجول مراد في ميدان المعركة لتفقد الأحوال اعتراضاً بنعمة الله. وأما الملاحم الصربية فترجع أنه قرع في خبانه بخنجر أثنى عشر بطلًا أخذوا على أنفسهم عهداً بقتله(4).

وتعداد هذه المعركة على أي حال أول نصر عثماني هام يحقق على القوات العسكرية الأوروبية المتحالفة. فقد حطم هذا التصحر آخر مقاومة

(2) كارل بروكمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير الجعيلي، ط 1980، ص 241.
(3) تختلف المصادر التركية في اسم القاتل، فالبعض منه: ميلوش قابيلوفتش، ميلوش نيكولا، ميلوش فيله، ميلوش قوبيل. ويقول هام (المستشرق النمساوي): ميلوش قابيلوفتش، ويذكر جيروتز على أنه صهر لازار ويدعي ميلوش أوربانتش. (625, s. 25).
(5) تعتبر الرواية التركية أقرب إلى الصواب لأنها تتشم من التقاليد الإسلامية، رغم أن بايزيد (الصاغبة) أرسل فرمانًا إلى قاضي بروصه حول هذا الموضوع، قال فيه: اقترب شخص يدعى ميلوش قوبيلوفتش من خيمة السلطان، وقال للحراس: قد اهدت للإسلام، وأُرهِب في مقابلة السلطان. ولما سُمح له بالدخل، أخرج خنجرًا كان يخبئه في خصره، وطعن به السلطان فارداً قتيلاً، وتولى الحراس على الأثر تنظيم أرباء.
(6) وقد خُذ صد العثمانيين ودفن في كركره بروصه، وترَزعت أحسناؤه، ودُفنت في نهر زروص، وأقام لهم فيها كنز موجودًا إلى عهد قريب في ووهوسلافيا، وسمي "مشهد كابيلوفتش".


تاريخ الدولة العثمانية

٦٧
فصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

منظمة في البلقان جنوب الدانوب، وفتح شمال الصرب أمام الزحف العثماني.
وترتك هنغاريا كمناوية وحيد وهام في جنوب شرق أوروبا. وهذا يعني أن الصرب أصبحت كبلغاريا تحت النفوذ العثماني. وهكذا ظلت العثمانيون حكّمهم في جنوب شرق أوروبا، عدا البوسنة وألبانيا وجزء من اليونان، في أقل من عقدين اثنتين منذ اعتراف مراد العرش، وأكثر قليلاً من 50 عاماً منذ أن عبير أورخان إلى البلقان.

توّلى العرش بايزيد الأول الملقب في كتاب الترك بـ "بيلدريم بايزيد" أي بايزيد الصاهري(1) بعد استشهاد أبيه(2) في معركة قوصوه، ودام حكمه من سنة 1389-1402 هـ.

رضخت الصرب للضببة القوية التي وجهها إليها مراد الأول وأكملها ابنه بايزيد، ولم تجد مغراً من الاستسلام للعثمانيين، وأعلن استفان بن لازار دخوله عليه.

---

Ismail Hami Danişmend: Adigeçen Eser, Cilt I, s. 77-81.

(2) وتذكر: لقب بايزيد بالصاهري، لأنه كان كلاماً للمحرز في الأنطول وهو في البلقان، تحرك مسرعاً إلى هناك. وإذا كان في الأنطول واحص به لصاب وهم في البلقان، فإنه كان يتحرك على الفور. وقد تكررت هذه الأموار كثيراً، حتى سمى بالصاهري. (Shaw: Op. Cit, P. 30)

(3) على الإمبراطورية العثمانية كالصاهري، فنضي عليه الواعدة ثلأ أخرى، لكي يستعيد هيبة الدولة العثمانية.

(4) بلغت مساحة الدولة العثمانية في منتصف سنة 1362 هـ، 1389 كم. وبلغت في 20 يونيو سنة 1389-1402 هـ، 126 عاً 1000000 كم²، منها 911000 كم² في أوروبا، 308000 كم² في آسيا، 100000 كم² من خمسة أمكن ما كانت عليه في عهد أورخان.

(Yilmaz öztuna: Adigeçen Eser, cilt 3, s. 64)

(4) كان أول عمل قام به السلطان، هو فح أُرى وكان بغير دين، وخُصى أن يطلب بالله استدائاً إلى أن السلطان عثمان على بعد أبيه الأصغر أورخان، ولم يقل ابنه الأكبر علاء الدين. فاتّجه بايزيد، استضاء على أقوى شرعيّة استحتردها من العلوي، مبنية على قولة تعالى الله وفتحة الفضل من القَتَالِ (محمد فريد: المرجع السابق، 49).

تاريخ الدولة العثمانية

68
في طاعة العثمانيين، فآمنه بايزيد على حياته، وترك له حكم بلاده تحت السيادة العثمانية، بشرط دفع الجزية وتقديم الجنود اللازمة للدولة العثمانية لمساعدتها في حروبها، وتزوج ابنته لازار "ماريا نسبينا". وكان بايزيد يهدف من وراء ذلك، أن تبقى الصرب حامزة ومانعاً بين أملائه في البلقان وبين المجر القوية الوحيدة في شرق أوروبا التي تستطيع الوقوف في وجه العثمانيين. ويخشى أن تنتهي فرصة توجهه إلى الأناضول لبعض الأعمال العسكرية، فتنقض على بعض المناطق في البلقان وتنتهي نتائجها للعثمانيين. قام السلطان العثماني بثبيت استقان على عرش الصرب، لأنه تأكد من إخلاصه للدولة العثمانية، واستعداده للتفاني في خدمتها.

قام بايزيد بعد موقعة قوصوه بإجراءات الصربين، فأعطاه الحكم الذاتي الكامل. ثم ضم فرقة منهم إلى الجيش العثماني جعل لها نفس حقوق المسلمين. ومن المشكوك فيه أن يكون الصرب قد أحسوا بالهزيمة في قوصوه في هذه الفترة على أنها كارثة حقيقية، لأن ضمهم للدولة العثمانية أنفذه من جيرانهم المسيحيين البلغار والهنغار. فقد عانوا منهم الأمريين في السابق ودفع بهم هذا لأن يشتركون مع العثمانيين في فتحهم للبوسنة.(1)

وقبل أن يتجه بايزيد الأول إلى الأناضول، جاءه ممثلون من البنديقة وجنوب يعلون التبديد والخصوص ودفع الجزية، في مقابل السماح لهم بالاستقرار في مزاولة التجارة في المملكات العثمانية. وتعتبر هذه التسهيلات في جوهرها أول


تاريخ دولة فاطمية

٦٩
الفصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

امتدادات تمنح لدولة أجنبية. وقد أثرت هذه التسهيلات أو أقل الاستثناءات تأثيرًا قوياً على نمو الاقتصاد العثماني في المستقبل.\(^1\)

ضم بايزيد الصاعقة لإمارات الأناضول:

رأى بايزيد بعد أن استتبث له الأمور في الحكم أن يستولي على بعض ما للبيزنطيين من أملاك في الأناضول، فقام بفتح مدينة آلانشر التي تعرف عندئذ بفيليادفيا 1390 هـ (1672 م).

آل بايزيد على نفسه منذ أن تولى الحكم أن يضمّ الأمارات الكثيرة الموجودة في الأناضول لملكيه، لكثرة مناوحتها ولدخلها بين أملاكه في أسايا الصغرى. وقد كانت هذه الأمارات تخاف على مصيرها المرتقب، نظراً لأنها رأت قوة العثمانيين تزداد يوماً بعد يوم وأملاكمهم تتسع من يوم لآخر. وقوى كثيرة في البلقان انضمت تحت لوائها، وليس أمام قوته من يستطيع إيقافها على المدى المنظور، فهم في انتصار مستمر على "بلاد الكفر". وتحطب بعض القوى البحرية التي لا يستهان بها في ذلك الوقت مثل جنوه والبنقدية ودهم. وتقدم لـهم بعض الدول الأخرى الجزية طواعية، وبعضهم الآخر بمهمات يدخلون. وقد تجمع بعض الدول في أووبا الغربية في حرب صليبية، لمعاونه دول البلقان وإنقاذاً من قبضة العثمانيين. ولكن هذه الدول فشلت أمام القوة العثمانية الناشئة، وتشتت قواتها وخارقت قواها أمام ضربات العثمانيين المتلاحقة. وتساقط قوادهم الذين كانوا يضربون بهم الأمثال في الشجاعة والحنكة.

كانت هذه الإمارات الكثيرة المنتشرة في الأناضول تقوم ببعض المفاوضات مع العثمانيين على الحدود، كما أنعتت بانشغالهم بالحرب في البلقان، فامتتنعت بعض هذه الإمارات أحياناً عن دفع الجزية المفروضة عليها للعثمانيين، كما ساعدت بعض الإمارات الأخرى البيزنطيين ضد العثمانيين أحياناً، واستمرت إمارات أخرى بعض المناطق التي أخذها العثمانيون منهم. وقد ساد الفتق بين هذه الإمارات على مصيرها في عهد بايزيد بعد أن أوقفها كل هذه الأحداث التي دارت في أوروبا الربع والفزع في قلوبها. وكانت تزيد أن تفعّل شيئاً لإنقاذ مصيرها.

وقد اتبع العثمانيون إلى جانب الحرب أساليب أخرى لضم هذه الإمارات، كالتزاوج مع أسرها الحاكمة، أو شراء أراضيهم، أو منحهم إقطاعات في البلقان بدلًا عنها. ولكن السلطان بايزيد عزم على القضاء على الأمراء المتمردين، وتم له ذلك بمساعدة فرق بلقانية (1). كما أن بعض الإمارات سلمت دون قتال. فأمير "ليدين" عيسى بك ترك للسلطان بلاده وخرج منها 1390 م (792 هـ)، فكافح السلطان بأن ترك له إزمير وملحقاتها إلى أن مات في نفس العام فضمته إلى الدولة العثمانية. وفر إلياس بك أمير منتشا إلى سينوب وترك بلاده إلى بايزيد. والنفس اسحاق بك أمير صاروخان الأتراك من السلطان، فترك له بعض مملكته. وتزاول الأمير علاء الدين علي بك حاكم بلاد القرمان عن جزء كبير من بلاده سنة 1390 م (792 هـ)، لكي يمتص حجمه لقبية إمارة، واستولى بايزيد على أراضي بني حميد وأولاد تكه، وفقد أمير قسطمونى ممتلكاته سنة 1393 م (796 هـ). وضم مملكة القاضي برهان الدين بعد وفاته سنة 1398 م وتشمل

(1) عبد الكريم رائق: المراجع السابق، ص 37.
الفصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

سيواس وقيصرية وطوقات ونيكسوار وقيرشهر. وأصبح بهذا متاخماً للإمارات المملوكية في ملطلة وقلقيليا. ولم يبق للبيزنطين بالأسوان غرب Cilicia طرابزون، ولم يعد للبندقة غرب أسيوط Qaseh Arsinos شرق ساموسون شرق الفرات. ثم استولى على معظم قبائلها من المماليك ووصل حتى شرق الفرات.

وهذا كان بايزيد الصاعدة أول حاكم عثماني يقبض على أزمة الأمور في آسيا الصغرى بشكل فعال، ويعمل على إخضاع الإمارات التركمانية الأخرى فيها.(1)

بعض المهام القتالية أمام بايزيد في البلقان وأسيا الصغرى:

وبعد أن أطمأن بايزيد على هذه المناطق التي استولى عليها دون قتال يذكر، عبر بحر مرمرة وحاصر القسطنطينية سنة 1391 الميلادية (1294 هـ). وما لم تستطع المدينة بسرعة ترك حولها الجيش الذي يقوم بمحاربتها، وسافر هو إلى الأفلاق سنة 1293 الميلادية (1379 هـ)، حيث استطاع مع أميرها دوق مانيس، وأجبره على عقد الصلح معه شريطة دفع الجزية والاعتراف بالسيدة العثمانية.

وفي تلك الأثناء تأكد علاء الدين من انشغال السلطان العثماني بحروبه في البلقان، فأعلن العصيان، وهزم القائد العثماني تيمور تاش وأخذه أسيراً، ثم استولى على مدينة أنقرة، فعاد بايزيد مسرعاً إلى الأضلاع، والتقى بعلاء الدين عند "آق جاي" فهزمه وأسره مع أبنائه، وضم إمارته للدولة العثمانية. كما ضم

فصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

إمارة سيواس وتركيا، واستولى على إمارة قسطموني، ففر أميرهام بايزيد ولجأ إلى تيمورلنك سنة 1393م (1397هـ) كما أبلغ أن أحتمى به بعض الأمراء الذين استولى بايزيد الصاغعية على ديارهم.1

وفي نفس العام حارب العثمانيون البلغار واستولوا على عاصمته ترنو، وأسرهم أميرهم شيشمان وقتلوا، ثم فتحوا قلاعهم الهامة مثل سلستره ونيكوبوليس وودين. وبهذا ضمت بلغاريا كلياً للدولة العثمانية.

العلاقات مع المماليك في عهد بايزيد الصاغعية:

جلب استيلاء بايزيد الصاغعية على الإمارات التركمانية المسلمة بالأناضول نجومة المسلمين في آسيا الصغرى خاصًا العلماء منهم. وقد تمسك بايزيد في أعماله العسكرية هذه حيث هاجم بعض المناطق التابعة للمماليك في جنوب الأناضول، على الرغم من أن العلاقات بين العثمانيين والمماليك كانت طيبة في عهد أبيه. فقد أرسل مراد الأول قطضاه 1384م (786هـ) إلى السلطان برقوق (1280-1390م، 784-791هـ) 2

192-190 و 192-190هـ، لتحديده من مغية تحرك تيمورلنك نحو الغرب وخطره الداهم على المماليك والعثمانيين على السواء.) وعلى الرغم من مخاوف برقو من الخطر القادم نحو بلاده، إلا أنه كان يخف أكثر من أطماع العثمانيين. صدت مخاوف برقو فقط هاجم بايزيد الأول قبائرة سنة 1391م (794هـ)، وقبض على أميرها الذي كان مشمولاً بحماية المماليك، ولكن بايزيد سرعان

1 Zuhuri Denişmend: Osmanlı İmparatorluğu Tarihi, cilt 3, s. 11-50
2 Ismail Hami Denişmend: Adigeçen Eser, I, s. 82-92

انظر: الخطاب: نزهة النفوس والأبدان، مخطوط بدار الكتاب المصرية، برقم 112 تاريخ م، ورقة 11، 11، 11، 11، 11، 11.
ما أحص بخرج موقفه وخطأ ما أقدم عليه، عندما أحص بالخطر المغولي يقترب من بلاده، ولناصر له في المنطقة سوى المماليك. فاعترض برзвوق عما أقام عليه وأرسل إليه هدية ثمينة مع أحد رسله، وطلب منه أن يبعث إليه بأد أبائه المهرية لكي يشرف على علاجه كما يذكر ابن إلياس (ت 1022 م، 948 هـ). فلقي برзвوق طلب السلطان العثماني، وأرسل إليه الطبب شمس الدين محمد بن صغير ومعه بعض الأدوية والعقاقير (1). وتحصنت العلاقات بين الطرفين وواصل كل منهما الآخر. وقد كان برзвوق يذكر لبايزيد في مرسالاته ويوكل على أن "المملكتين كرويين في جسد وساعدين في عضد" وكان السلطان العثماني يؤكد على صدقته واحترامه لسلطان المماليك بنفس التعليم. (2)

أحص بابرزال بخرج موقفه بعد أن قضى على الإمارات التركية الإسلامية في الأناضول مستعيناً في ذلك بقوات غير مسلمة من البلقان خاصة الصرب وبلغاريا والدولة البيزنطية. وقد جر عليه عمله هذا نتائج المسلمين في آسيا الصغرى. فأراد أن يخرج من هذا المأزق الحرج بعد أن علم بأن الأمراء الذين نجاوا بأنفسهم من الموت، لجأوا إلى السلطان المسلم تيمورلنك فزعين، يستنجدون به مما حل بهم على يد السلطان العثماني، ويشكون إليه من بطيء وجبروتهم وجنايه عليهم، وهم على الدين الإسلامي مثله، ولا يجوز التعرض لأملاكهم أو أشخاصهم، أراد بايزيد الصادقة أن يكتب عمله صفة الشرعية فأرسل في سنة 1394 هـ (1394 م) إلى الخليفة العباسي في مصر وهو المتولى على الله طالباً منه تشريفاً وتقديماً باعتماده "سلطان الروم" فبعث إليه المتوكـل

(1) ابن إيلاس: دفاع الزهر، تحقيق محمد مصطفى جدا، ص 206
(2) أحمد فريدون: إسرائيل، 183 م، 983 هـ، منشآت الملك بالملكي، مخطوط بمكتبة متحف طوبليـوـ وسابير، بسانتي، تحت رقم 1960 R، ورقة 181، بـ 1864
بذا التقليد،(1) وهو يعني أن بايزيد أصبح سلطانًا للترك، أي الروم كما كانت الكتابات العربية في العصور الوسطى تطلق عليهم.

علي أن أطلع العثمانيين التي كانت تدفعهم من أن لآخر للإغارة على بعض المناطق المشمولة بالحماية المملوكي، لم تجعل العلاقات الطبيعية بين الدولتين تستمر في صفاء ووثم، فقد توسع المماليك خيفة من هذه الأطماع التي تسفر عن وجه العثمانيين الحقيقي. وقد تحققت مخاوفهم في سنة 1399 م (801 هـ)، فقد استولى بايزيد الصاعقة على مملكة وحاصر دارنه.(2) وعليها طلب التحالف مع السلطان المملوكي الناصر صالح الدين فرج ضدد الخطر المغولي المقترب من بلادهم، فرفض فرج ذلك التحالف بعد مشاورة أمرائه.

وبهذا تمكنا تيمورلنك من مداهنة كلا القوتين على انفراد، فهجم الأراضي المملوكي، وتمكن من إزالة الهزيمة بالمماليك سنة 1400 م (802 هـ) بالقرب من دمشق، ثم تحرك قاصدا بايزيد كما سنوضحه بعد قليل.

التحالف الجديد وموقع نيكوبوليس:

كان من الطبيعي أن تثير انتصارات العثمانيين في البلقان جزع الغرب وتحت قبضة خاصة انتصاراتهم الساحقة على الصرب والبلغار وما تضمنت عنه. وقد أحصى البابا بالخطر الداهم كما شعرت المجر بأن المصير المحتوم سينالها لا محالة، فقد أصبحت أمال املاك العثمانيين والبلاد الخاضعة لقوذهم متاخمة.

---

(1) محمد مصطفى زيدان: نهاية السلاطين المماليك في مصر، المجلة التاريخية المصرية، م 100، ص 200، مايو 1953.
(2) العربي: عقد الجماع في تاريخ أهل الزمان، مخطوط بدار الكلب المصرية، تحت رقم 1884 تاريحي، القسم الأول من الجزء 25، ورقة 78.
لمجر، ولا رأى سجرونوند، منآه أن له بالعثمانيين، استجد بالباباء، وبالدول الأوروبية، لمعاونته في حرب صليبية ضدهم، لإيقاف تقدمهم في أوروبا، وتخلص القسطنطينية من الحصار.

جاءت المساعدات الكبيرة لسجرونوند من شارل السادس ماكل فرنسا، ومن فنلباوس إمبراطور ألمانيا خاصة. فتحرك دوق بوروجونيا على رأس الفرسان الفرنسيين الذين كان أكثرهم من النبلاء، وفيهم كثير من أقارب الملك نفسه، وانضم إليهم أمراء بافاريا بألمانيا. كما جاّت فرسان القديس يوحنا الأورشليمي ببروس، ويليام أن النمسا، وإنجيرت، واسكتلندا، وإيطاليا، وبوهيميا، وسويسرا، وبولندا، واستركلت بقات في المعركة. التقت الجموع في مدينة بودا، ببلاد المجر في ربيع 1369 هـ، ورأى سجرونوند أن ينتظر حتى يبدأ بابازيد بالهجوم ثم يرد عليه، ولكن رأى أغلبية القواد كان على العكس من ذلك، تحركت الجيوش الصليبية من المجر، وعبرت نهر الدانوب، من خلال بلاد الصرب، وتجمعت في أراضي بلغاريا بالقرب من نيكيوبوليس حاصرتها، وتمتكن من إجبار نصر خاطف على القوات العثمانية التي كانت

١٨٨ هـ أثناء مجيء إلى مصر. فلم تحدث هذه الطافة تكراراً، ولم يبق منها إلا اسمها. (محمد فريد: المرجع السابق، ص. ٣٠).

١٢ نيجبول

يقال لها في الكتب التركية نيكوبولى

١٩ بذكر عمر فاروق، أن القوات المتجمعة جمعت الأحرار المسلمين الموجودين لديهم قبل أن تبدأ المعركة، وقُتلهم جميعاً بصورة عجيبة، بما الله كلمه، لطرد المسلمين وارتكب حميتهم للانقلاب.

٢٠ عمر فاروق: تاريخ أبو الفاروق، م. ١٣٤٢، ح سابول، ١٣٧٥ هـ.)

تاريخ الدولة العثمانية

٧٦
يرأسها أورنوس بك ومعه أمير الصرب استعان بن لإزار. ولكن بايزيد الصادقة
تصدى لهذه الحشود التي كانت تتحرى شوقاً للقاء العثمانيين متوهجة أن النصر
سيكون خليفيها، وشدد عليها الهجوم، وتمكن من إنجاز هزيمة نكراء بها في
25 سبتمبر 1396 م. فتشنت الصليبيون وأسر منهم بعض الفلاج وقتل من
تمكن من الفرار بنفسه. وقام بعض الغزاة على الأفلاق وهنغاريا والبوسنة
والصرب، ثم فتح آخر مدينة في بلغاريا وهي وئين وجعل منها ومن سلستره
وينكسبوليس قلاعًا مقدمة لتحرك منها لمحاربة هنغاريا والأفلاق 1396 م. ثم
دخل ألبانيا مرة أخرى واستولى على شكوودره وكورور وبرات وكاستوريا،
وقبلbrokenness أسرة بوسانولى التي تحكم في الشمال البعيد للعثمانيين.

وبهذا قضى بايزيد على أكبر حملة صلبيبة، ووجهت لوقف تقدم العثمانيين
في أوروبا. وأخذ بعد ذلك ينتمي من شبه جزيرة المجورة التي تحالفت مع
الصليبيين، فكسر أراضيها وحريتها.

وقد زاد النصر العثماني على الصليبيين في نينكسبوليس مخاوف
الأوروبيين من العثمانيين، فضلاً عن أنه زاد من احترام العالم الإسلامي لهم.(1)
وتبتكر هذه المعركة من أهم الانتصارات الكبيرة التي وطدت الحكم العثماني في
البلقان.(2)

حصار العثمانيين الأول للقسطنطينية:

بعد أن فرغ بايزيد الصادقة من التصدي للصليبيين، بدأ يركب حور
تشديد الحصار الذي بدأ سنة 1391 م (479 هـ) حول القسطنطينية لفتحها. وقد

(2) Ismail Hami Danışmand: Adigeçe Eser, cilt 1, s. 104-107
أحس الإمبراطور البيزنطي مانيول بأن السلطان العثماني قد انفرد به. فأرسل على الفور رسله إلى الدول الأوروبية. بطلب المساعدة العادلة لإنقاذ المدينة المحاصرة من الموقعة، ولكن استغالتهم لم تأتي بنتائج فعالة، فقد كانت الاستجابة له فائتة، لم تتعد إرسال قوات مزية من جنوه وفرنسا. ولكنه بايزيد فاك الحصار، بعد أن وضع الإمبراطور البيزنطي يونيس بتنفيذ شروط فاك الحصار، وهي: زيادة الجزية المفروضة عليه، وبناء جامع في الحي التركي بالقسطنطينية، وهو سرقة جي، وتعيين قاضي للفصل في المنازعات بين المسلمين والروم في القسطنطينية، والسماح للعثمانيين بتوطين 1000 تركي كحامية عسكرية على طول الشواطئ الشمالية للقرون الذهبية في المنطقة التي يسيطر عليها الجنوبيون فعلًا.

ومن الجدير بالذكر أن القسطنطينية صمدت ولم تسقط في يد بايزيد لطبيعتها موقعها أولًا، ولمشاركة أسطول جنوة والبندقية في الدفاع عنها ثانياً، في وقت لم يكن لدى العثمانيين فيه أسطول حربي مرموق.

ومع ذلك ضرب بايزيد حول القسطنطينية حصاراً آخر 1395 م، ثم فاك الحصار، لما لم يجد من ورائه فائدة. ثم عاد للمرة الثالثة وحاصرها 1396-1398 م، وبنى قلعة أتناتولي حصاراً (كوكل حصار أو آتشه)

أطلق العثمانيون على القسطنطينية اسم: استنبول، في هذه الأيام. وهو ترجمة لكلمة (Lord Kinross: Op. Cit, P. 65) is tin poli الإغريقية التي تطلق على هذه المدينة، وهي:

(1) انظر: أحمد راشد: المراجع السابق، ص 38
(4) تاريخ الدولة العثمانية 78
الفصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

(1) حصار.

الخطر المغولي:

لبي تيمورلنك نداء الإغاثة الذي وجهه إليه الأمراء المسلمون الفارون، الذين اجتمعوا به، خوفًا من بطش بايزيد، الذي استولى على ديارهم، واستجاب لتحريضهم على الانتقام من السلطان العثماني على ما أقترفه نجاح الأمراء المسلمين.

وقبل أن يتتحرك تيمورلنك لمقاتلة بايزيد الصاعدة، بعث إليه رسالة يهده فيها ويجيبه، إن لم ينفذ ما أمر به، فقال:

أي بايزيد الصاعدة ملك بلاد الروم! بعد الحمد لله والصلاة والسلام على نبيه، والتحية لك. أعلم أنك سلطان جديد منصور على الدواصل وموفق بالتمريد. كل الناس أعبدي لنا، تنبه إلى أن قراه يوسف وزعيم أحمد، هربا من سلطون...

(1) كلمة (حصار) كلمة عربية الأصل دخلة التركية وتعني "قمع" أو "حصار". أطلقوا حصار.

(2) أي قرة الأغناط. كلمة (أغناط) بهما جمل: (أغناطة) أي ناحية الجملة أو المنتزة. كلمة "أغناط" هي "أغناطة"، تعني ضربة إلى البيض. (أغناطة) أو (أغناط) أي الناحية الشرقية إلى البيض.


أنظر خريطة حدود الدولة العثمانية قبل معركة أثرة (جوبيتو أورو) ضمن قسم الخراجات واللولبات، رقم (1).
الفصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

سقنا وهيبة عساكرنا، ولا يخفى عليك أن هذين الرجلين فاسدان، خربا البلاد وقتلوا العباد. إنهما كافرون علياً واستكبرا كفرون وهامان، إذا لم تشا أن تتعقبهما، فلا تقبلهما لديك. لقد وجدنا الحماية والرعاية وأتباعهما في دياركم. إنهم يجلبون الشؤو والمحس بابا، احترموا من حمايتهم، وأخروا من دياركم، خذوه واقتلوه بغير تفتيش. أخروا مخالفة أمرنا هذا، لن تصبكم غضبا وبحل بكم انطلاقا. لابد أنكم علمتم بأحوال الذين خالفنا وأتباعهم وجماعتهم، وخلاصسة القول، أننا لا نود أن تكروا من القول والقال بينائنا. ولا تشغلوا بالقتل والنزاع. لقد ضربنا لكم الأمثل وسفنا البراءين، فافهموا ما تضمنته أقوالنا من أنواع التهديد والتخويف، والسلام على من هيدي الله، والامر بومئذله.

ورد عليه بابيزيد مستهزناً بنا وسخروا منه ومستخفاً بتهديداته، قالوا:

"الحمد لله الذي لا يحمد على شيء سواه. لقد شرفنا بالإسلام ديناً. وغزونا سلاطين العرب والجم، والصلاة والسلام على محمد وعلى آلله وأصحابه أجمعين. أنها الكلب العقوم المدعو تيمور! أنها التيمور الآخر من ملك التكفور! (1) أعلم أنني قرأت رسالتلك أنها المشرومة! فهل تخافيني بهذه السماحة؟ هل تخاذلني بهذه التراثات؟ أم أنك تفيض حشورنا العسكرية جيشه؟ أم تظن أن جنودنا التي جمعناها مثالي عساكر هرية والعراق؟ أم تقارن غزاة الإسلام لدينا بعساكر الشام وحلب؟ أشج ويهكم، إلا أن العداب الأكبر ينتظر...

(1) تكفور (أو تكفر) كلمة يونانية الأصل أو رومية. كان العثمانيون في عهودهم الأولى يطلقونها على حكام وإمبراطور القسطنطيني والروماني من البيزنطيين قبل استقلالهم عليها، واعتقد أن الكلمة شاعر لدى العثمانيين (Mehmet Zeki Pakalın: Adigeçen Eser, cilt 3, s. 443) لقربها من كلمة كافر.

تاريخ الدولة العثمانية
الكافرون. إن أعمالنا تقتصر على نقض الجهاد والذمـم وسفك الدماء وهـتك الحرمات. أما نحن فتأضعُس السلطُنات قاطبة في الشرق والغرب، وأشرف الخواصين البعيدة والقريبة. إنك تعرف جيدًا نظام جيوشنا وعسكرنا، وتقف تماماً على انتصاراتنا. هناك فرق كبير بين من يتكلمن بأمر الطغاة البغاة، والذين يتحملون أمر الغزاة العادلين. نحبذ الحرب والضرب، والجهاد صنعتنا، وفي سبيل الله غزونا. إذا كنت حريصًا على الدنيا كالكلاب وتريد القتال والنزول، فنحن لها، وسوف تظهر كلمة الله العليا. إن رجالنا مثواهم الجنة، فقدبندوا أرواحهم وأموالهم. وخلاصة القول أننا قصرنا أعمالنا وصرفنا تأييدها على قتال أعداء الله من الكفار والمتخولون، ليكن معلوماً للكافرون أننا أشعننا هذا الكلام في بلادنا. فإن لم تظهر في ميدان القتال، لأصبحت زوجاتك طالقات طالقاً بانتان وإذا قصدت بلادنا وهربت منك ولم أقتنعت، لأصبحت زوجاتي طالقات طالقاً بانتان.

السلام عليك سلام المسلمين. وعليك لعنة الله ومن والاك إلى يوم الدين. (1)

تحرك تيمور لنك بعد تبادل هاتين الرسائلين نحو آسيا الصغرى، عندما علم بأن بايزيد اعتدى على حاكم أرمينيا والخماج مظهر الدين بك المش今回は بحمايته، فاحتل مدينة سيواس في شرق الأناضول 1404 م (1887هـ)، وقضى على حاميتها التي كان بها أرضن ولا أبناء بايزيد. ثم توجه لمحاربة السلطان المماليك نصر الدين فرج، وتمكن من التغلب على قواته في ملطة وعيناتاسب وحلب في أكتوبر 1404م، ومدماه في ديسمبر من نفس العام، وبعد ذلك قفل راجعاً إلى دياره، إلى أن ينقضي الشتاء ويرتب جيوشه لمعركة إنثانية كبرى ضد بايزيد.

أحمد راسم: المرجع السابق م 1 ص 11-14.

تاريخ الدولة العثمانية
وفي تلك الأثناء استرعى عدوان تيمورلنك على الأراضي العثمانية، انتباه الأوروبين، فسعت بعض الدول لاستغلال ما حدث في تحرipzigه على منازلة العثمانيين والقضاء على دولتهم. تبادلت جنود الرسائل معاً تيمورلنك لهذا الغرض، كما قام الإمبراطور البيزنطي بالاتصال به أيضًا. وجد شارل السادس ملك فرنسا في حله على إنهاء الوجود العثماني. وقد بذلت كل هذه الدول أقصى ما في وسعها لاستغلال هذه القوة المغولية المدمرة في صالحها، بغية الفوضى النهائية على الخطر العثماني الذي يهددهم جميعًا، والذي لم يستطع أحدهم أن يوقف تقدمه ورصفه في أوروبا. ولم يكن يدور في خلد أحد منهم أن القصد من غارة المغول هو الانقلاب، وليس الطمع في الاستيلاء على الدولة العثمانية وضمها للإمبراطورية المغولية.

عندما حل ربيع 1402 هـ (1404 م) أعاد تيمور الكرة على الأراضي مرة أخرى، وتحرك بايزيد لملافاته على مشارف أنقرة عند مكان يدعى "جيبوق أووه". كان أمراء الأناضول الفارين بصحبة تيمورلنك، واصطحب بايزيد معه قوات من البلقان خاصة من بلغاريا، كما كانت معه قوات كثيرة من الإمارات التركية التي استولى عليها. وبدلاً من أن يترفع بايزيد بجدوى خلف التلال ليربح رجاله بعد الرحلة الطويلة التي قطعواها، دفع بهم إلى المعركة مباشرة، وهاجم تيمورلنك في منطقة مرتفعة من الأرض.

التقى الجمعان في 27 يوليو 1402 هـ ودارت بينهما معركة عنيفة، Рижحت كفة العثمانيين في بدايتها لتشديد فرسان الصرب الهجوم على مقدمتهم.

(1) انظر مخطط سيدان معركة جوپوق اووه، ضمن قسم الخرائط واللوحات، رقم (7).
الفصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

المغول، ولكن سرعان ما فرت قوات الإمارات التركية من جانب بايزيد وانضمتم إلى أرمينها الذين يحاربون في صفوف تيموریون، كما أن بعض القوات الصربية غيرت وراءها. ولمأ رأي بايزيد أن الجمع انفقت من حوله، استرسل في القتال ومعه الإنكشارية، ولكنه لم ي يستطيع الصمود طويلًا، نظرًا للكثافة الهجوم المغولي العنيف، ووَلَى وجهه هاربًا، لكنه وقع في الأسر ومعه ابنه موسى، وذهب أولادا سليمان ومحمد وعبسي، وانتهى ابنه مصطفى. وقد استمرت هذه المعركة آرب عشرة ساعة، حُصمت في نهايتها لصالح المغول.

وأول عمل قام به تيموریون بعد أسر بايزيد، هو أنه خرَّب أهم المدن العثمانية في الأناضول مثل بروصه وإزنيق، ثم استولى على إزمير منتزعاً إليها من يد فرسان القديس بحورنا الأورشليمي. وعلى الرغم من أن الأناضول كان في ذلك الوقت عبارة عن منطقة مفتوحة أمام تيموریون، يستطيع أن يستولي عليها بأكملها في راحة وسر، إلا أنه لم يكن يهدف إلى القضاء على العثمانيين ودولتهم، ولكنه رأى أن رك لكل أمير من أمراء الترك، الذين لجأوا إليه، إمارته.

هذا وقد تنستلت دول البلقان خاصة والدول الأوروبية الأخرى عامة الصعداء بعد أسر بايزيد. وحدا دول البلقان الأولي في الخلاص بأراضيها من الحكم العثماني. وقد خُلِّف للدول الأوروبية أن الخطر العثماني قد زال، فضربة تيمور كانت عنيفة هزت أركان الدولة العثمانية، لهذا أرسلت بعض هذه الدول من المحتمل في رأي فليبس برايس أن بايزيد كان يستطيع أن يصرف تيمور عن بلاده لو كان لديه قدر من الحصافة. ولكن بدلاً من ذلك أرسل إليه رسائل تهدئة مشتبكة وتحديد، إن لدت على شيء إذا تدخل في تهوره وعدم تحليه بالحكمة، كما كان الحال في أراضيه الأولى في العرش. (Philips Price: Ibid. Loc. Cit).

83 تاريخ الدولة العثمانية
فصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

كالدولة البيزنطية وفرنسا وإنجلترا الرسول والهدايا إلى تيمور وعقودًا معه المعاهدات، وأيدي الإمبراطور البيزنطي استعداده لدفع الجزية إليه وهمي التي كان يدعها لبايزيد.

حدث كل هذا في سبيل تحريض تيمور على القضاء على العثمانيين.

وقبل أن يعود تيمور حرص على أن يقسم الدولة العثمانية بين أبناء بايزيد. فعين سليمان حاكمًا على المناطق الخاضعة للعثمانيين في أوروبا، وجعل له أدرنة عاصمة، وعين عيسى على بايكسر وبروسخ، ومحمداً على آسيا. وكل هذا تحت النفوذ التيموري. وهكذا أعيدت للعثمانيين سيطرة على مناطق الإمبراطورية التي كانت لهم قبل عهد بايزيد الصالح، ولكن هيبتهم انحالت.

وبعد ذلك قتل تيمور راجعاً إلى عاصمتنا سمرقند فيما وراء النهر بعد أن قضى 8 أشهر في الأناضول (يوليو – 1402 – مارس 1403). وأثناء عودته، مات بايزيد في الأسر في 9 مارس 1403 (15 شعبان 805 هـ) في مدينة أضنة. فصرح تيمور للك لمسى ابن بايزيد بنقل جثة أبيه إلى مدينة بروصه حيث دفن هناك. وبعد سنتين تقريباً مات تيمور في مدينة أتار في فبراير 1405، بينما كان يشن حملة على بلاد الصين.

قتل تيمور للك الآلاف، وخبز البلاد، وحرق المدن والمزارع، وأخذ الآلاف أسرى كما تذكر لنا كتب التاريخ.

إن التقييم السياسي للأناضول كما تركه تيمور للك، لم يكن مختلفاً كثيراً عمداً كان عليه الوضع في نهاية عهد مراد الأول. فقد منح تيمور الإبلخانيين وضعاً مميزةً في الأناضول، كما أعطى تلاث الأناضول تقريباً للأمير محمد.

تاريخ الدولة العثمانية 84
الفصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

العثماني، لكي يجعل منه قوة كبيرة تمنع استرجاع العثمانيين لقوتهم في
المنطقة.(1)

فقد كانت معركة مشهودة حقًا، لأنها الهزيمة الوحيدة التي جعلت الجيش
العثماني يعاني من جرائهما مدة طويلة من الزمن. ولم تكن لها خطورة تاريخية،
فقد كانت نفسة مؤقتة (عارة) أثارت على تقدمهم واندفاعهم، وما كانت
إلا غارة، رجع بعدها تيمور بعام واحد تقربًا إلى سمرقند مرة أخرى. ثم مات
تاركة حالة آسيا الصغرى لم تتغير تغيرًا جوهريًا. عادت الإمارات مستقلة كما
كانت. وشغفل العثمانيون ببناء دولتهم، والحقيقة التي تسترعى الانتباه في نظر
برايس* أن بناء الدولة العثمانية كان بناءً قوياً.(2)

لا أن شو* يركز في تعليقه على غارة تيمور، على أن الإمبراطورية
العثمانية التي بنيت خلال القرن الرابع عشر كانت تحمل بين طياتها بذورًا لا
يستهان بها من الضعف، خاصة في نظامها الإقطاعي، الذي جعل الإمارات
المسيحية تحاول الاستقلال كلما أحست بأن السلطة المركزية مضطبة أو
ضعيفة.(3)

فراغ في حكم السلطنة

العثمانية: Interregnum

تناثع الإخوة أبناء بايزيد على العرش كل منهم بدعي أحقيته في تولي
السلطة العثمانية. وقامت بينهم حروب طويلة، استمرت عشر سنوات تقريبًا،
سادت فيها الفوضى أرجاء الدولة، وعمتها الفقاهة. وقد أطلق العثمانيون على

(3) Stanford Shaw: Op Cit.m P. 35
هذه الفترة "شغور سلطنت" أو "فترة"، نظرًا لعدم وجود سلطان يمكنه تولي العرش فيها، وفرض احترامه على الإخوة الآخرين.

وكان من الممكن لأوروبا أن تستغل هذه الحقبة لصالحها، لولا الظروف التي كانت تعيش فيها مناطق البلقان خاصة، من تفكك واضطلاع وانقسام، ونزاع على العرش، وأحوال اقتصادية متقدمة، وظروف اجتماعية مخلطة، ووضع في الصلة الروحية بين المجتمع والكنيسة في القسطنطينية، وعداء بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية أيضًا. ويدعو في ظل إضافة لذلك - أن عامل الخوف كان لا يزال كاملاً في نفوس البلقانيين رغم ما حدث للعثمانيين، فلا تزال أصداء الهزيمة في قواسم ونيكيبيليس تؤرق هؤلاء وترهبهم من قوة العثمانيين.

ويعتقد بعض الأوروبيين أنهم لم كانوا قد اتخذوا في تحالف صليبي؛ لقذوا بالعثمانيين خارج أوروبا، ولكن الوضع لم يكن بهذه البساطة، فقوات الحملة العثمانية التي دمرت مع كثير من جنود قابليقبول "عيد الأبواب السلطانية" التي شكلت حديثًا. ولكن الجيش الإقطاعي في أوروبا والCEEBA فقنوها على حالهم تحت قيادة سليمان ومعظم القواد الرئيسيين. ولم يكن الأوروبيون على أي حال قادرين على أن يستغلوا وضع العثمانيين، فالصرب ظلت تحت سيطرة سليمان، وسموحة هنغاريا كان مشغولاً بعد نفوذه في وسط أوروبا. وغيابه قوي من عزيمة البابا الهنغاري الإقطاعيين. ومع فقدان الجهود الهنغارية الموحدة فإن أي تحالف صليبي محتمل، سيكون نفسه المصير الذي حدث في نيكوبوليس.

ولم تكن مشكلة العثمانيين تكمن في إعادة بناء الدفاع ضد هجوم أوروبى معاكس، ولكن المسألة كانت تتطلب جهودًا شاقة لتوحيد القيادة. ولم يكن تأسيس
الحكم في الأناضول وخاصة تأسيس نظام الدولة والمجتمع على أسس متينة، ليتزعم بمواجهة مع تيمور بهذه المهولة.

وكان سليمان بن بايزيد الذي تولى حكم البلقان، يصانع القوى الموجودة في البلقان والقوى الأوروبية الأخرى، خلال هذه الفترة الحرجة التي مرت بها الدولة العثمانية على مطالبه، وهي: فتح كل الأساطيل في بلاده لتجارة السُنْدُول التي تحالفت مع بعضها تحالفا صوريًا لاستغلال هزيمة العُثمانيين، وهي: البندقية وجنيوة والدولة البيزنطية وفرنسا ومالطة، والموافقة على ألا تدخل السفن التركية الإ önerيني إلا بعد استثناهم الإمبراطور البيزنطي أو مجموعة الدول هذه، ورد سالونيك للبيزنطيين، والتنازل عن حقه في تقاضي الجرية المعتادة منهم ومن الجهات الجنوبية على البحر الأسود. ويأخذ كروسيه على اللتين أي البندقية والجنوبيين أنهم قنعوا في اللحظات الحاسمة ببعض الامتيازات التجارية.

لم يثق أبناء بايزيد على تنصيب أحدهم سلطاناً، لأن كل واحد منهم كان يدعى لاحليته في العرش، استحوذ سليمان على منطقة البلقان، واتخذ أدرنة عاصمة، ثم تحالف مع الإمبراطور البيزنطي مانويل ليعينه على إخوته. وكان سليمان أكبر إخوته ويتمتع بتأييد الإنجابارية ووزير أبيه علي جندلي، واستولى عبسي على بروصه واتخذ منها حاضرة لمملكة، وكان يمتلك بمساندة القائد العثماني تيمورتاش، واستقر محمد في سيواس، ثم أعلن نفسه سلطاناً في سنة 1407 هـ.

---

(2) D. أحمد السعيد سليمان: المراجع السابق، ص 22.
(3) Zuhuri Damışmend: Adigeçen Eser, cilt 3, s. 70-77
(4) إسماعيل هامي: Adigeçen Eser, cilt 1, s. 134-167
بدأ الصراع بين الأخوة على العرش، حيث لا يوجد قانون ثابت لوراثته، كما لم يجز الطرف على تعيين واحد بعينه من بين الأمراء.

سار محمد لمحاربة أخيه عيسى، والتقى معه في عدة معارك، تمكن في الأخيرة منها أن يقتله، ودخل بروشه ١٤٣٠ (٥٨٨٠ هـ) وهذا استنسل آسيا الصغرى لنفسه. ولم يبق أمامه إلا البلقان، فأرسل أخاه موسى على رأس جيش كبير لمحاربة سليمان الذي يلقب العون من الإمبراطور البيزنطي. ولم يتمكن موسى من هزيمة أخيه، فحاول عدة مرات بعد أن تلقى إمدادات كثيرة من أخيه محمد - حتى تمكن في النهاية من القضاء عليه بالقرب من أدرنة سنة ١٤٣٠ (٥٨٨٠ هـ). وبعدها دخل الغزور موسى، فأعلن استقلاله حبّ البلقان، واستعد لمحاربة أخيه محمدًا. وعلم محمد بما حدث توجه إلى البلقان، وتمكن من محاصرة أخيه سنة ١٤٣٠ (٥٨٨٠ هـ) والقضاء عليه في النهاية. وبهذا تمكن محمد من القضاء على هذه الفتنة، وتم له توحيد السلطنة العثمانية تحت حكمه.

ولقب محمد الأول بـ (چلتی) ١٤١٣ - ١٤٢٦ (٥٨٨٠ - ٥٨٨٣ هـ).

(1) أرسل محمد بعد أن تولى العرش رسالة للسلطان المملوكي شيخ المحمودي (١٤١٣ - ١٤٣١ م) (٥٨٨٠ - ٥٨٨٨ هـ)، ترجيح أوراق الصداقة والمحبة بين البلدين، والاستقرار على نفسه في المراسلة. وقد ضمن رسالة شكاوى من تحالف الإمبراطور البيزنطي مع إخوته ضده، قائلاً: "أن سبب التأثير في إرسال الكتب إلى ذلك الجانب، وقوع الفترة وامتداد المنزلة بيننا وبين الإخوان أصلح الله شأنهم، تلبيه كلاره، ووقعة الاختلاف الصادر عن تطور السلام، لفت بعض الله ودمره، ومما رأوا له وتحريه إياهم.

(2) إنظر: عمر فروغ: المرجع السابق، م، ص160-224.

(3) چلتی: كلمة تركية تعني: تصنع، مهرب، محترم.

كان المجلدين الأولي يلقبون بالله (كما كان يلقبون بنفس اللقب أيضاً)، ثم أخذ السلاطين يلقبون أنفسهم بالله (چلتی) حتى عهد السلطان محمد الفاتح، وأوضح مثل على ذلك السلطان بايزيد الصاخبة الذي لقب أولاده بهذا اللقب، ومنهم ابنه محمد.

(Mehmet Zeki Pakalın: Adigeşen Eser, cilt, s.342)
وفاقاً، تخطت الدولة العثمانية المحنى، رغم الخسائر التي كانت تحيط بها.
ولم يتوقف بناؤها، لأنها كانت وطيدة الأركان على حد قول جيبونز. وقادت
سيرتها الأولى في الفتح شرقاً وغرباً، بعد أن قام السلطان محمد بتنظيم الدولة
وإعادة النظر في بعض الأمور التي تأثرت بغارة تيمور لنغ.
ومن الجدير بالذكر أن اهتمام العثمانيين - بعد موت بايزيد الأول - ظل
منصبًا على الفتوحات في الشرق أكثر من الغرب، خلال عهد محمد الأول
وابنه مراد الثاني الذي تلاه على العرش (1411-1451م = 616-855هـ) (1) وهي الفترة التي يطلق عليها مرحلة رأب الصدع.

بعض الفتن في عهد محمد الأول:

كان السلطان محمد هادئ الطبع ميالاً للسلم غير مندفع كأبيه، فلم يثير
الدولة الأوروبية ضده، وتحالف مع الإمبراطور البيزنطي اثناء شره في هذه
المرحلة التي تمر بها الدولة العثمانية. كما كان متسامحاً، يعفو عن خرج عن
الطاعة إذا وعى بعدم تكرار ما حدث وأقسم على ذلك. وأكثر مثالين في هذا
الخصوص، عصيان أمير القرمان وفقره جنيد حاكم إزمير الذي تكرر عدة
مرات، ورغم ذلك كان السلطان يلمس العذر يعفو، ويقبل الطاعة ولا يقدم
على الانتقام. ولهذا الطريقة التي تتسم باللين، استطاع أن يكسب صداقة أمراء
الأراضي الذين عصوه، وفرض نفوذه عليهم بالتدريج، وأجبرهم على احترامه
وخشيته.

(1) Philips Price: OP. Cit., P.45
الفصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

حدثت بعض القلاقل الأخرى في الأناضول في تلك الفترة. فقد تزعم بدر الدين قاضي عسكر الأمير موسى الذي قضى عليه، حركة صوفية متطرفة، هي الباطنية (1). وأخذ يحرص الناس على العصيان في بعض مناطق الروملي والأناضول 1416 و1417هـ، وكان بوركازو مصطفى وآيودي طورلاق كمال يساعد هذا العاصي. أرسل السلطان ابنه مراد وبابا زيد باتشأ أمير الروملي، لإخماد هذه الفتنة، فتمكنوا من قتل مصطفى في ضواحي إزمير. وفِضَّر بدر الدين هارباً إلى البلقان، فتباهاه حتى قبضا عليه، وأرسلله إلى السلطان في سرز. صدرت فتوى من أحد العلماء وبدعى "مولانا حيدر" الهراني، بوجوب قتل بدر الدين، فنفذ فيه الحكم 1420هـ (1447م) (2).

ولم تكد هذه الفتنة تخدم، حتى ظهرت فتنة أخرى، كان يترعمها الأخ الأصغر للسلطان وهو مصطفى، الذي يسمى في كتاب الترك دوره مصطفى، أي مصطفى المزيف، لأنه اختصى بعد معركة أتُرقة ثم ظهر فجأة في هذه الأونة، مما دعا الكثيرين للشك في نسبه إلى السلطان، لأنهم أجمعوا قبولاً على موتة في ساحة القتال، وانضم قره جنيد إلى الأمير الذي يطالب بالملك، وساعدهم بما تيسر له من جنود. تأم مصطفى بعد أن أحصى بقوته في عدة غارات على بعض مناطق اليونان التي تحت النفوذ العثماني. ولكن لم يبق على مواجهة جيوش أخيه، ففر إلى سلافيك وكانت قد أعيدت إلى البيزنطيين بعد موقعة أتُرقة. وجد الإمبراطور البيزنطي فرصة ساحرة أمامه، فأخذ الرجلين، واحتفظ بهما رهنًا عندى يسامى بها السلطان محموداً وقت الحاجة، واستعن عن تسليمهما له، وتعهد

(1) نشأت فرق كثيرة من فرق التصوف في الأناضول أيام حكم الدولة العثمانية.
(2) Dr. Ismail Hakkı Adigeçen Eser, Cilt I, s. 360-367
بعدم إطلاق سراحهما ما دام كلا العاهلتين على قيد الحياة، نظرًا لمعاهدات الصداقة التي تجمع بين الطرفين.

ولم توقف هذه الفتنة اهتمام السلطان محمد الأول بأوروبا، فعندما استغل نبلاء الألبان فرصة شغور العرش لقتل معظم جنود الحامية العثمانية في بلادهم، استعاد السلطان مكانته على الفور، واستولى على كروي (أو أنه حصار) في الجبال الوسطى وأولونيا على الساحل. ثم أغار على المورة، واستولى على جورجو مفتاح حصول الدانوب التي تتحكم في وسط هنغاريا، وأغار أيضاً على ترانسلافانيا وهنغاريا والبوسنة. (1)

وبعد انتهاء هذه الفتنة، تفرغ السلطان لإجراء بعض الأنظمة الداخلية لتحاشي حدوث مثل هذه المنازعات في المستقبل، ولكن الموت لم يمهله طويلاً، فتو๊في في أذرونه سنة 1421م (424هـ).

الدوشمة: (2)

يعزى الفضل إلى السلطان محمد مكان، في تنظيم الجيش لتدرك مسألة حدوث من جراء غارة تيمور.

توقفت الفتوحات العثمانية مؤقتاً بعد موقفة أنقرة، وفضلًا عن ذلك، فقد استولى الإمبراطور البيزنطي وملك بلغاريا على بعض الأراضي. لهذا أصدر السلطان محمد الأول "جند" وابنه مراد الثاني من بعده قانوناً بجمع الشباب في

(2) الدوشرمة: كلمة تركية الأصل تعني: الجمع، الأفظاظ، الاختفاء، جمع المسكر غير النظامية من هذا وهناك (شمس الدين سامي: قاموس تركي، م، ص 227، استنبول 1317هـ).
الفصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

سن السابعة أو الثامنة من بعض التبعة المسيحيين في الروملي كـ ثلاث أو خمس سنوات أو أكثر أحياناً، لأنهم لم يتمكنوا من الاستفادة الفعالة بالأسرى. (1)

وهكذا صدر قانون الدوشيرة. وكان يُقال لهذا النوع من الشباب "أعمامي أو خليجي". كما كانت تُطلق نفس التسمية على الأسرى الذين ينتمون إلى الانكشارية.

كان فتيان الدوشيرة يجمعون من الأرناؤوط والبلغار والأرمن والبوسنة، وكان الشنانق من بين هؤلاء أيضاً على الرغم من أنهم من المسلمين.

كان أبناء المسيحيين يؤخذون من أماكن معينة لكي يربوا على أصول الدوشيرة. وكانت أكثر هذه الأماكن، هـ: أنسل كوب، بايتشيب وكوستنديل، وبريزن وكوريجيوصون، بورصة وطاشليج، وأريبي كورتامير، وبرازيل، وأنشودر، وأرخيو، وفوجها ونوفيسين، ونوفايرسيه، ومناير، وموستر، وايموجيا وغودورنيك، وبورتال، وكوليكسيه، وفويه، فيلش، وآخوج قلعة. (2)

وجد السلاطين في هذا النظام ميزة كبرى، فالآجاق الذين يُجمعون بهذه الطريقة أصبحوا كابعين لهم تمامًا، فهم يؤخذون من أقل طبقات رعاياهم خطرًا، كما أن ارتباطاتهم القديمة قد انخفضت أو كانت. ومن هنا أدى نظام جمع...

(1) يقال أن سبب نشأة فكرة الدوشيرة راجع إلى توقف الانتفاضات مؤقتاً، مما سبب نقصاً في عدد الأسرى الذين ينتمون إلى الانكشارية. كما أن انتشار الدولة العثمانية في مناطق واسعة فرض عليها الالتزامات الجديدة نحو إقرار الأمن، وتشتيت الإدارة. (د. عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر، ص 44).

(2) مهмет زكي باكيام: أديجي Crusher, cilt I, s.445.
الأطفال إلى تطور آخر. بينما كانت الإمبراطورية الفارسية تقام على إدارتها في أيامها الأولى مسلمون أحرار، فقد حل الآن محلهم دون استثناء عبيد السلطان جيلب، نقل أسره، حتى وصل الأمر إلى أن كل منصب تقريباً في الهيئة الحاكمة للإمبراطورية أصبح يشغله إما مسيحي معيت أو عبود يقتني بطريقة أو بآخر على حد قول هاملتون جب وهارولد بورن.¹

وتولى مراد الثاني 1421-1451م (824-855هـ) بعد محمد جليبي.²

بعض القلاقل في عهد مراد الثاني:

بدأ السلطان الجديد يفكر في إضخام الإمارات الخارجية عن الحكم العثماني بالأراضي التي ردها تيمور لنك لأصحابها بعد موقعة أنقرة. ولكن مانويل الثاني لم يمهل حتى يستقر على الحرس، ويبعد التخطيط للفتح، فقد أطلق سراح عمه "وزيره مصطفى" وأمدته بالعتاد الجاهلي، تقدم مصطفى في الروم إلى واسرول على مدينة غاليبولي، إلا أن الثورة التي أتت الاستسلام. وبعدما توجه للاستيلاء على العاصمة أولده، فتصدى له الوزير بايزيد باشا، ولكن مصطفى

¹ هاملتون جب وهارولد بورن: المرجع السابق، ج2 ص136.
² بعد تقدير السيف لدى السكانين بعد إعلان البيعة للمسلمين الجديد. وأول من تلقى السيف هو السلطان مراد الثاني الذي توجه من أصلًا إلى برونس بعد أن علمني بتصبيحة على عرش الدولة العثمانية. وقد قبله الشيخ مبارك (أمير بخاري) صهر بايزيد الصادق، ومعه الأهازي خارج مدينة برونس، وبرصبه، وهو سيف عثمان (الأول) لد قريبين. ومنذ ذلك الوقت أصبح هذا تقليداً مستقبلاً لدى السلاطين العثمانيين، حتى أن السلطان محمد الفاتح تلقى السيف من الشيخ في شمس الدين، وفي عهد السلطان سليم الأول، اعتاد السلاطين العثمانيين على تلقى نفس السيف في جامع أبيي أوبو الأنصاري الصبحي الجليل الذي استشهد أثناء حصار القسطنطينية سنة 830هـ في عهد معاوية بن أبي سفيان. وقد بني السلطان محمد الفاتح هذا الجامع بعد نجاح القسطنطينية بجوار المكان الذي استشهد فيه أبو أوبو (أحمد راسم: المرجع السابق، م 1 ص1291).
تمكن من الفتك به. وكانت نهاية هذا الأمير المطالب بالعرش على يد السلطان نفسه، حيث قضى عليه بالقرب من غاليبولي، وأمر بشنقه 1227 م (825 هـ).

الحصار الثاني للقسطنطينية:

وبعد أن انتهى مراد الثاني من هذه الفتنة، أراد أن ينتقم من محركها، الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني. قام بمحاصرة القسطنطينية في 24 أغسطس 1227 م (2 رمضان 825 هـ)، وتشديد الحصار حولها. وأمام هذا الخطر الذي لا يقبل لمانويل به، فكر في إنشاء السلطان أو وزيره إبراهيم باشا عن عزمه بالإغاثات، ولكن مساعيه باعت الفشل. ففكر في حيلة أخرى يجبر بها خصمها على فك الحصار، وهي أن حرض الأخ الأصغر للسلطان ويدعى مصطفى جلبي على المطالبة بالعرش، وأمده بجيش وعتاد حربي، ليبدأ عصيانه في الأناضول. فاضطر السلطان لفك الحصار عن القسطنطينية بعد أن استمر شهرين تقريباً، وتوجه بسرعة لإخماد الفتنة، التي أتسع نطاقها بانضمام بعض أمراء الأناضول إليها، وتمكن من القبض على أخيه، وقتله.

استرجاع إمارات الأناضول:

وبعد أن استتب الأمور، بدأ مراد الثاني من سنة 1228-1426 م (826-831 هـ) في استرداد إمارات الأناضول دون عناء كبير، وهي: قسطموني وأيدين وصاروخان ومنتشا والقرمان ثم غريمان. وبهذا تمكّن هذا السلطان من استعادة كل الإمارات الأناضولية التي أعاد تيمور لنك استقلالها إليها بعد موقعه أثارة.(1)

---

(1) سكت عملة في عهد مراد الثاني كتب عليها: تَغْرِيره، أي أثره، وهو الإملاء الأصلي للكلمة، ثم سُمي فيما بعد أثارة (أحمد راسم: المراجع السابق، م.1 ص. 242، مص.1268، 1236 الميلادي)
مراد الثاني وحروبه في أوروبا:

وإذ ذلك واجه مراد الثاني الدول الأوروبية، فقد انسحبت بعض المناطق عن الدولة العثمانية بعد موقفة أنقروه واستهان بقوتها البعض الآخر.

1- الأفلاق:

عصي "دره قول" أمير الأفلاق الدولة العثمانية واعتقدي على بعض أملاكها مارأ بسلاسة، فتصدى له القائد العثماني فيروز بك وهزمه هزيمة منكرة. فاضطر دره قول لعقد الصلح ودفع مبلغ من النقود عادل خراج عتدين اثنين. وعندما علم أمير الأفلاق بانتقال السلطان مراد الثاني من الأناضول إلى أدرنة، أرسل إليه ودده ليتقدم الطاعة والولاء وخراج العامين. فحافظ السلطان بوحد منهما رحمة لديه 1424 هـ (1807).

2- الصرب:

ثم أراد أمير الصرب الجديد جورج برانكوفيتش أن يغير من سياسة سلفه استطاع لوادرفتش التي ترمى إلى همادنة العثمانيين. فقام بتسليم لسجسر ملوك المجر وإمبراطور ألمانيا عن بعض بلاده ليدافع عنه وقت الخطر ضد العثمانيين. ولكن ملك المجر احتفظ بعض هذه المناطق كمسندشه مثلاً، وترك بعض الفلاحة للعثمانيين سنة 1427م (1812). وعندما هم بتحليصها منهم، لم يوفق في ذلك، وفضل الدخول معهم في الصلح. وعندما رأى أمير الصرب

Zuhuri Damişmend: Adigeçen Eser, cilt 3, s. 220-300.
Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser, cilt 1, s. 398

1- نظر:

انتظر:
ذلك، أراد أن يقوت الفرصة على ملك المجر، فعقد صلحًا مع السلطان العثماني، تعهد بموجبه بدفع جزية سنوية تقدر بخمسين ألف دوق، وتقدم بعض الجنود للعثمانيين مساعدة لهم في حروبهم. وقام بقطع كل علاقاته مع المجر.

ومن الجدير بالذكر أن المجر كانت دائما تحرض الصرب والألاق ضدها.

الدولة العثمانية، لأنها تدعى أحياتها بملكية هاتين المنطقةتين.(1)

٣ - سلاطين والحرب العثمانية البندقية الأولى:

لم يتمكن مراد الأول من الاستيلاء على سلاطين، وفي ١١ أبريل ١٩٢٤م (١٩٧٩ هـ) استولى بايزيد الصاعقة عليها. وبعد موقعة أنقرة تركها الأمير سليمان بن بايزيد الصاعقة للإمبراطور البيزنطي. وفي عهد مواد الثاني دخلها أخوه الأصغر مصطفى جندب الذي أعلن العصيان عليه، فرأى السلطان العثماني أن يرجعها إلى النفوذ العثماني، وأمر بعض قواده بمحاصرتها. ولما لم يستطيع الإمبراطور البيزنطي أندرونيكوس بن مانوئل أن يدافع عنها، اضطر أهلها إلى الارتداء في أحضان البندقية لتخليصهم من ويلات الحصار. وقررنا ببع المدنية لهم سنة ١٣٤٣م (١٨٢٢ هـ)، فاستمرت البندقية سلاطين مقابل خمسين ألف دوق، بشرط أن يظلوا على ولاية تام لهم.

بقي العثمانيون والبندقية أصدقاء معظم الوقت حتى هذه اللحظات، فقد شغلت البندقية بحماية انتزاعاتها التجارية في الولايات العثمانية وباقي منطقة البحر الأسود، وتأكيد العلاقات الطيبة مع الدولة العثمانية، خاصة منذ أن بحث

Ismail Hamid Daşşmend: Adigeçen Esər, cilt 1, s.90-95
Ismail Hakkı: Adigeçen Esər., cilt 1 s.399,400

(1) انظر:
(2) انظر:

تاريخ الدولة العثمانية

٩٦
مناوسهم من الجنوبيين كيفية استخدام صداقتهم للسلطان مـراد في طردهم وإبعادهم. وقعت البنـدية اتفاقية تجارية مع مـراد الأول 1388م وظلت بعيدة عن الاشتراك في حرب قوـصوه التي تـحالفت فيها الـدول الغربيـة ضـد الـدولة العثمانية. ولكن الفتح العثمانى لمـناطق مـقدونيا تـجاه الأـدريـنيك وـبلدان البـوندان تـجاه بـحر أـلـيـو، أفقَع الـبـنـدية من المـد العثمانى في مناطق كانت تحت السيطرة البندقية لـبعض الـوقت، ومن ناحية أخرى فإن العثمانيين اعتراهم الـقلق من جرائ سيطرة البنادقة على ممرات بـحر أـلـيـو، مما يهدد أـملاك العثمانيين في الأـراضي والرومانى وـبـمنع إتمام توحيد شـطري الإمبراطورية العثمانية.  

(1)斯坦فورد شاو: الملاحظات، ص. 47

(2) بـقية من الإمبراطورية البيزنطية عند اـنضمام جـون الثالث العـرش (1453م - 1458م).

(3) الدكتور هـالـيل يـاـيلـيك: الـنشأة الفـوزية، أراـية في أراـية الإمبراطوريـة البيزنطية، ص. 182.

(4) د. عبد القادر اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية، ص. 1911.

(5) يستمرت المناوشات بين الطرفين مدة طويلة ابتداء من 1422م (1467م)، بسبب ضعف الأسطول العثماني.
الفصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

4 - الصرب والمجر والقرمانيون:

وأثناء انتقال السلطان العثماني بحروبه في أوروبا، اتفق إبراهيم بك حاكم القرمان مع الصرب والمجر على محاصرة الدولة العثمانية، وسلخ بعض الأجزاء من أراضيها، وشغله بين أوروبا وأسيا. ولهما علم السلطان بذلك، فأرسل إلى الفور بعض القوات لمنزلة الدولة الأقوى بين هذه القوات الثلاث، ألا وهي المجر. وقد تمكن قواؤده من إزالة هزيمة كبرى بملكها في موقع عديم سنة 1432م (683هـ)، فولى هارباً. ثم تحرك السلطان بنفسه إلى بلاد القرمان، وعزل إبراهيم وعيين أخاه عيسى مكانه. وقد وصل إبراهيم أحد العلماء لطلب العفو من السلطان، فعفا عنه ورضا. ثم يتوت حكم الولاية. وآخذ السلطان يفكر في محاصرة الصرب، ولما علم أميرها بذلك قدم اعتذاره عن تحالفه مع القرمانيين، وأرسل إبنه ماريه للسلطان لكي يتزوجها، فرضها السلطان لحريم القصر لصغر سنها، وأرجأ الاستيلاء على بلاد الصرب.

تفرغ السلطان بعد ذلك لمحاصرة المجر، فأرسل قائدته على بك على رأس جيش كبير، عبر به نهر الطونة، ثم استولى على مشوار سنة 1436م (84هـ) بعد حصار دام أربعين يوماً. وفي السنة التالية تحرك السلطان بنفسه إلى بلاد ترانسلافانيا، وانضم إلى قوات الصرب والبلغار الموجودة في تلك المناطق، وعندما علم ملك ترانسلافانيا بذلك تقهقر أمام هذه القوات التي اتخذت من عساكر الصرب والبلغار دليلاً لها في المنطقة.

حانت الفرصة أمام السلطان للاستيلاء على بلاد الصرب، فأرسل قوات حاصرت سمتنة واستولت عليها، ثم توجهت إلى بلغراد وأحكمت الحصار حولها. ولكن قلاع المدينة لم تسقط في أيدي العثمانيين رغم شدة الحصار الذي
الفصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

دام ستة أشهر، فرفع القدرات العثمانية عنها الحصار سنة 1439م (1642هـ).

5 - محاولة توحيد الكنيستين:

بذل جون بالبولوج الثامن محاولات عديدة لتحقيق توحيد الكنيستين في القسطنطينية وروما، ليضمن مساعدة الغرب له ضد العثمانيين، رغم معارضة الأتراك والدين، ومقابلتهم هذه المحاولات بإظهار العداء السافر للروماني. بدأ بالبولوج مساعيه بعد أن أحس بالخطر بهدف عقبة تعتبر السلطان العثماني من هزيمة الصرب والبلغار والمجار في عدة مواقع. فقد فرضت إيطاليا لمقابلة البابا أوجين الرابع (1431-1447م). ثم عقد مؤتمرًا في فلورنسا أعلن فيه توحيد الكنيستين في 3 يوليو سنة 1439م، إلا أن هذه المعرفة القوية في القسطنطينية جعلت هذه الوحدة غير مجدية. كما أثارت هذه الوحدة للدول السلافية وخاصة روسيا، التي رأى رجال الدين فيها موافقة بطريق القسطنطينية على الاتحاد خيانة للعهد الصحيح.

6 - النكتة الغربي وموقعة وارنه:

استمر العداء بين الدولة العثمانية والمجار. فأرسل السلطان قواته في مارس سنة 1442م (30 ذو القعدة 858هـ)، تحت قيادة مزيد بك إلى ترنسلافانيا. تحركت القوات العثمانية، وبعد أن عبرت بلاد ترنسلافانيا وتقدمت

(1) Zuhuri Danişmend: Adigeşen Eser, cilt 3, s. 302-305
Ismaïl Hakkı: Adigeşen Eser, cilt 1, s. 413-418.

وعبد القادر يوسف: المرجع السابق، ص 183

تاريخ الدولة العثمانية

99
فيها، حاصرت قلعة هرمانشافت. فسارع جان هونيادي (هونيادي يسائوش) لمساعدة القلعة على فقد الحصار. ولكن القائد العثماني شدد الحصار حول القلعة، ويمكن من قتل صديق لهونيادي يدعى سيمون دي جينيتي ومعه ثلاثة آلاف جندي. وبهذا تمكن العثمانيون من إجبار النصر في هذه المواجهة. ولكن القوات المحاصرة اشتركت في الهجوم على العثمانيين، فانحصرت القوات العثمانية بين نارين، وسقط منهم نحو عشرين ألف قتيل كان بينهم مزييد بـ كواينه. ودخل هونيادي بلاد الألبان، وخرج المدن الواقعة على شاطئ نهر الطونة. وقد كان انتصار هونيادي في هذه المعركة سبباً في شهرته في أوروبا.

حشد السلطان العثماني قوات كثيرة تحت إمرة بعضاً قواده، لمواجهة هونيادي، ولكن هذا القائد الماهر استطاع أن ينزل بها جميعاً هزيمة شديدة في موقعها وازال سنة 442 هـ (1815).

طاف "جناكي طورزلاو" مبعوث البابا بأوروبا يحمل رسالة، يقول فيها أن الأسطول المسيحي يستطيع أن يغلق المضائق، فيصبح على العثمانيين نقل الجنود من الأناضول إلى أوروبا، والاحتياج ماسة إلى توفير 800 جندي لطرد العثمانيين من أوروبا واستعادة الأرض المقدسة. وقد أبلغ الإمبراطور البيزنطي السلطان بأنه لن يشترك في حرب صليبية ضد الدول العثمانية.

ومن الجدير بالذكر أن الهزيمتين اللتين مني بها العثمانيون أمام هونيادي شجعت الدول الأوروبية على مواجهة العثمانيين في حرب صليبية. فتجمعت قوات من لهستان (بولونيا) والألبان والصرب والألمان وإيراهيم بـ ك أمير.

القرمان المعزول، وشارك كل من فرنسا والبندقية مشاركة وجدانية. تحررت هذه القوات الكبيرة تحت قيادة لادسلام جاجيلون ملك بولونيا والمجر (هنغاريا) وهوندي في 22 يوليو سنة 443 م من عاصمة المجر بودين (بودا)، ومرت بالقرب من سلما، ثم عبرت الطونة إلى بلاد الصرب، وانضم لهذا الجيش في ذلك الوقت بعض القوات من بلغاريا والبوسنة والأرناوتوط. كما شارك كل من أمير الصرب جورج براكونفتش وأمير الألفاق دراكولا ووكيل البابا الكاردينال جوليان سيزاريني في هذه الحروب. استولى هوندي على بلاد الصرب وخرج كورشواج (الوجه حصان) وشكركوي ونديش. ثم انتزعت القوات الصليبية مع القوات العثمانية بالقرب من نيش على نهر موراوا في 3 نوفمبر سنة 443 م، ودارت الدائرة على العثمانيين وشنتت قواتهم. تقدمت القوات الأوروبية بعد ذلك ودخلت بلغاريا واستولت على صوفيا، وانتزعت بالقوات العثمانية التي كان يقودها السلطان نفسه عند نهر أزيلاند. وانهزمت القوات العثمانية للمرة الثانية، ثم للمرة الثالثة عند بالواج. فانسحب السلطان إلى أدرنة، وطلب الصلح فقبله لادسلام في 12 يونية سنة 444 م (5 صفر 848 هـ). ثم تنازل السلطان بعدها عن الحكم لابنه محمد، متأثرًا من كثرة هزائمه. ولكن كبار رجال الدول أقنعوه بالعودة لصفر سن ابنه البالغ من العمر اثنتا عشرة سنة ولقلة تجاربه، وإحاطة الدولة بالأخطار الصليبية.

لم يمض على معاهدة أدرنة أكثر من سنة أشهر حتى نقضها الصليبيون. وقامت الحرب بين القوتين عند وارنة في 10 نوفمبر سنة 444 م (28 رجب 848 هـ). وقد تمكن السلطان بصعوبة بالغة من التصدي لهذه القوات، وسقط
في المعركة لاسلام والكاردينال، خُلا فرقت قرئ الصليبيين، وتمكن مراد من إلحاق الهزيمة بهم.\(^1\)

وتعتبر معركة وارنة آخر المحاولات الصليبية لإنقاذ القسطنطينية على حد قول إسماعيل حقي.\(^2\)

وعندما استتبث الأمور ترك السلطان العرش لابنه ثانوية، ولكن كبار رجال الدولة أثاروا عليه عساكر الأناضورية، فعاد السلطان للعرش مرة أخرى.

المورة:

دخلت شبه جزيرة المورة تحت النفوذ العثماني في عهد بايزيد الصقيلة، وبعد موقعة أنقرة أستلت من الدولة العثمانية. فأعادها السلطان مراد الثاني إلى الأراضي العثمانية بعد أن فتح برزخ كورناته في 26 نوفمبر سنة 446 هـ (8 رمضان 850 هـ). وقد قبض السلطان من الإمبراطور البيزنطي قسطنطين دفع الجزية مقابل حكمه للمورة تحت النفوذ العثماني.

بلاذ الأرناؤوط (ألانيا):

منذ أن استولى السلطان على بلاد الأرناؤوط وهي دائمة القليل، فبعد أن استولى بايزيد عليها أخذ أبناء أميرها جورج كاستروتا رهينة لديه. وكان بين هؤلاء الأولاد ابن يسمى أسكندر اعتنق الإسلام، وتولى الحكم بعد موت أبيه بموافقة السلطان. ولما تحقق أسكندر يلك من انشغال مراد الثاني بمحاربة

Ismail Hami Danışmand: Adigeçen Eser, cilt I, s. 200-208

Dr. Ismail Hakki: Adigeçen Eser, cilt I, s. 435

(1) أنظر:

(2) تاريخ الدولة العثمانية
الصليبيين، أحضّر كاتب أول باباكنتش* السلطان على بلاد الأرناووط وأُجبره على أن يوجه إليه باسم السلطان حكم مدينة آق حصار الألبانية. ثم قام بقتل هذا الكاتب ليخفي السر. وتوجه إلى المدينة المذكورة، فدخلها بسهولة. ونادي هناك بطرد العثمانيين من البلاد كلها والتخلص من الحكم العثماني. علم السلطان بهذا التمرد، فأرسل إليه أحد قواده وهو على باشا لإخضاعه. التقى القائد العثماني بسكيدير بك في عدة مواقع وانتصر عليه، ثم تراجع مسرعاً بعد ذلك، لقيام الصليبيين بنقض صلحهم مع العثمانيين. ولما تمكن السلطان من الانتصار في موقعة وارنه (1) عاود إرسال الجيش لإخماد فتنة سكيدير بك. وانتصر الجيش العثماني في عدة مواجهات، ثم انسحب من الميدان فجأة بسبب إغارة هونيدي على بلاد الصرب لمحو عار هزيمة وارنه.

9 - التكتل الغربي مرة أخرى وموقعة قوصوه الثانية:

بدأ هونيدي محاولاته المستمرة لتكوين جيش صليبي جديد منذ أن عاد إلى بودا. وقد عين وصياً على العرش بالمجر لحداثة سن ابن لابسلامس، مما قوّى عزيمته على تنظيم الجهود ضد العثمانيين في كل أوروبا. عبر هونيدي الدانوب شمالي الصرب ومعه 5000 رجل ولم ينضم إلى براتونوفش أو يقوم بمساعدته، على الرغم من وجود قوات من لدن سكيدير بك والأفلاق انضمت لهذا الحشد الكبير الذي كان يتحرك جنوباً.

تقابل الجيش العثماني بقيادة السلطان مع جيش هونيدي المكون من الصليبيين في قوصوه في 17 أكتوبر 1448 م (18 شعبان 852 هـ) وانتصر.

(1) انظر "مخطط ميدان معركة وارنه" ضمن قسم الخرائط واللوحات، رقم (8).

تاريخ الدولة العثمانية
العثمانيون هذه المرة نصرًا ساحقًا، أعاد إلى أذهانهم موقعية قوامهم الأولي مع ملك الصرب ليزار 1389.

وتتوعد الحكم العثماني من جديد في جنوب الدانوب، وأرسل مراد الثاني الغزاة إلى الأفلاق، وتمكن بهذا من إخضاعها.

لقد أنهى مراد التهديد الصليبي، إلا أنه ترك لخليفته واجب توحيد الجهود العثمانية لخوض المعركة الأخيرة في القسطنطينية.(1)

ثم رغب السلطان في عقد السلام مع إسكندر بك لتعب الجيوش العثمانية من كثرة الحروب التي خاضتها في أوروبا، مشترطاً دفع الجزية. ولكن إسكندر بك لم يوافق، فتأكد من أن العثمانيين قد أنهكوا قواهم من كثرة المعارك، وقد ترتيب على ذلك أن رجع السلطان إلى أدرنة، بعد العدة لمقابلاته، ولكن المنそうな كان أسبق منه، فقد توفى في 9 فبراير 1451 م (5 المحرم 855 هـ).\(^{(2)}\)

وهكذا استعاد مراد الثاني أقاليل الدولة العثمانية في آسيا وأوروبا وزاد عليها، بعد أن فقد أعقبها بعد موقعية أثيرة، واستعاد هيبة الدولة العثمانية في آسيا وأوروبا خاصة، بانتصاره على الصليبيين في موقعتي وارنه وقوصوه.(3)

---

(2) انظر خريطة "الدولة العثمانية في عهد السلطان مراد الثاني" ضمن قسم الخرائط واللوحات، رقم (9).
(3) Dr. Ismail Hakki, Uzunçarsılı: Adigeçen Eser, cilt 1, s. 446-448.
الفصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

العلاقات العثمانية الملكوية في عهد مراد الثاني:
لا ينبغي أن يفوتنا هنا أن نشير إلى العلاقات العثمانية الملكوية، فقد نشأت العلاقات بين الطرفين منذ عهد مراد الأول، ثم تطورت عبر العصور التالية.

بدت العلاقات بين الدولتين غاية الصفاء، ففضل عصاداً شاملاً رخ بين تيمورلنك لكل من برسباي 1490-1492م (897-901هـ) ومراد الثاني.
وجاء رسل عثمانيون إلى القاهرة 1433م، يحملون تهنئة السلطان العثماني باعتلاء برسباي عرش السلطنة الملكوية في العام السابق، واغتنام برسباي بمقدمهم ومما أحضروا معهم من هدايا ثمينة، رد عليها بأثمن منها حسبما يتطلبه الآبين الملكي. لكن هذه الهدايا لم تصل إلى "أبن عثمان"، إذ وقعت في أيدي المتجرمة في البحر الأبيض من أهل قبرص، وإخوانهم في القرصنة وقتلك...
غير أن ذلك لم يمنع السلطان مراد الثاني من أن يبعث 1466م إلى برسباي هدايا فخمة صحبة رسائل عثمانيين مرة أخرى، من باب التهنئة على ما أحرزتهم حملتان مملوكيتان من نصر في جزيرة قبرص. وأقام أولئك الرسل بالقاهرة.
حتى عادت حملة مملوكية ثانية من قبرص سنة 1477م، مكللة بأياس النصر، وفي ركايبها عدد من الأسرى بينهم ملك القبارصة نفسه، وهو جانوس الثاني لوزنيان.

---

(1) محمد مصطفى زياده: المراجع السابق، ص 200.
أرسل برسباي قاصده إلى مراد الثاني للتحيز على أهل العثمانيين ومعاركهم مع المجر "انكروص" وغيرهم. فرد عليه السلطان العثماني بكتاب مع رسوله في 1427 هـ (1 ذي الحجة 832 هـ) حتى له فيه أخبارانتصار العثمانيين على المجر عند نهر الطونة واستيلائهم على قلعتين من قلاعهم.。
وينبأ أن الخبرة التي أثارها مشهد الأسرى القبارصة في مصر، هي التي أدت بالسلطان مراد الثاني أن يرسل إلى برسباي 1428 هـ (832 هـ) خمسين أسيراً مسيحياً إثر انتصارهم على المجر عند الطونة.

فقد ظل الجانبان العثماني والمملوكي يتبدلان رسائل الصداقة والمحبة. فكلما تحقق نصر لأحد الطرفين على عدوه، سارع إلى إبداع رسول من عنده إلى الطرف الآخر يبشره بفتح الإسلام المبين.

عندما تسر للعثمانيين فتح قلعة سلامي، "هي أحسن القلاع الأفريجية وأصعب الديار الحربية، وهي والقسطندونية توأمان في كونهما منبعى الكفر والضلالاً في أيدي الكفرة الفجرة.
أرسل السلطان العثماني قاصده إلى السلطان المماليك يزف إليه بشائر النصر. ويخبره أيضاً بانتصاره على حاكم المملكة الأرناووطية.

(1) انكروص أو انكوروس أو انقروس: اسم أطلقه العثمانيين على شعب المجر، ويشيع استعماله في التصوبي التاريخية العربية في العصور الوسطى.
(2) أحمد فريدون: المراجع السابق، ورقه 287-288.
(3) د. محمد مصطفى زيدان: نفس المرجع، نفس المكان.
(4) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقه 291-292.
ولا أدل على قوة الصداقة والعلاقات الطيبة المتينة بين مراد الثاني وبرسباي، من أن الأول بعث رسوله إلى الثاني في 1472 هـ يستشير في أمر الصلح بينه وبين ملك بني الأسفر (1) من المماليك المجرية "الألفروسياء" لمدة ثلاث سنوات، وفي شرعية دفع الأفلاق للجزية (2).

أشار برسبي إلى السلطان العثماني بالامتثال بما قال عـز من قائل "الصلح خير" ونصحه بعدم الصلح مع من يرى أن الصلح معهم أنفع وأخذ الجزية من البعض الآخر إذا رأى أنها صناعة، كما سبق في عهد الرسالة مع مشركي مكة المكرمة (3).

وهكذا ظل الجانبان يتبادلان رسائل التهنئة والفتوح. فأرسل مراد الثاني كتاباً مصحوباً ببعض التحف والهدايا إلى قميق (438 هـ = 1438-1439 م) في سنة 843 هـ (1440 م) لتهنئته بالجلوس على العرش. وقام قميق من جانبه بتهنئة مراد بفتح قلعة سمندرة وتخريب بلغراد وكوهين وطميشوار وانتصاره على اللاز (الصربي) وبني الأسفر (4).
وفي 20 من ذي الحجة 843 هـ أرسل جقمق رده على هذه الرسالة. وقد ضمت التحف والهدايا التي صاحبت الرسالة، المصحف الكوفي الذي كتب به خاتم بن عفان رضي الله عنه (1)، مما يبره من مدى ما بلغته الصداقة بين السلطانين.

وعلى أثر انتصار العثمانيين سنة 443 هـ على جيوش الصليبيين في مدينة وارنه (بلغاريا الحالية)، أتخذ مراد الثاني خمسين مملوكاً وخمسة من الجوالي البيض وكمية من القمش على سبيل الهدية إلى حقّق ليبرهن له على مدى ما تحقق على أيدي العثمانيين من فتح إسلامية (2).

وبعد وفاة مراد الثاني بالسكتة القلبية في 5 فبراير 1451 هـ، تولى العرش بعده ابنه محمد الثاني (3) (1451-1481/865-886 هـ) تمشياً مع الوصية التي تركها أبوه تحاشياً لوقوع الفتن الداخلية في البلاد. وكان محمد يبلغ التاسعة عشرة أو العشرين من العمر.

كانت بلاد الروم في ذلك الوقت قاضرة على القسطنطينية وضواحيها ومحاطة بأملاك العثمانيين. ولم يكن خارجاً عن الحكم العثماني في آسيا

(1) أحمد فريدون: نصي المراجع، ورقة 385، 386، 387.
(2) المعاويا: البهر المسرب لسلاسل مخطوط مكتبة أجايوفا بstamp المجلة تحت رقم 3113، ورقة 219، 219.
(3) يطلق سيفWOOD شر أحمد المؤرخين المعاصرين المشاهير على الفترة التي تلت من حكم السلطان محمد الفاتح إلى نهاية حكم السلطان سليمان القانوني (1516-1566) وعهد السلاطين محي الدين، محمد الفاتح وبايزيد الثاني وسليم الأول وسليم القانوني أوج (ضمن قمة أضعاف العثمانية) (Apogee of Ottoman Power)
الصغيرى غير جزء من بلاد القرمان ومدينى سينوب ومملكة طرابزون الرومانية.(1)

الصلح مع بعض الدول:

اعتلت إمارة قرمان على أن تتخذ موقف العداء من العثمانيين، كلما سحبت الفرصة.(2) فقد قام حاكمها إبراهيم بك بنقض الصلح الذي كَـُـعَن بين الفرقةين، بعد أن تولى هذا السلطان الشاب العرش وتحالف مع البنادقة، واستولى على علانيته، ثم أخذ بحروض بكات الأناضول على الدولة العثمانية، ونتمه بالجنود والعتاد الحربى، مما حدا بالسلطان أن يتحرك بنفسه من أدنى على رأس قواته لمحاربة الفرمانيين، وترك فرق الرومنى العسكرى تحت قيادة داى قراح باشا، تحسباً لهجوم محتمل من هونيداي. لم يثبت إبراهيم بك أمام السلطان الذي تقدم في أراضيه وأرسل إليه أحد العلماء ويدعى مَـلاً ولى، لعقد الصلح. فوافق السلطان، بشرط أن يترك إبراهيم المناطق التي استولى عليها قبل موقعه وارنه في عهد مراد الثاني، وأي بد العثمانيين بالجنود في حروبهم ومعاركهم.

وأثناء عودة السلطان وهو بالقرب من بروصه عارضه الإكثارية، وطلبوا منه توزيع منحة الحرب عليهم بموجب القانون، لأنها أول معركة تحدث

محمد فريد: المرجع السابق ص 590، 588.

(1) يعتبر الفرمانيون في عهد الذين وثوا في السلاطنة عندما انقضت دولتهم، وكان أفناء قرمان أكبر وأقوى دولة في الأناضول بعد الدولة العثمانية. (انظر الجزء الثاني من ترجمة د. أحمد المسعد سليمان لتاريخ الدول الإسلامية، تأليف مستقل في إنجلج).

تاريخ دولة العثمانية

109
في عهده، غضب السلطان من هذه الجرأة، لكنه انساع لمطالبهم، وبعد عدة أيام، عزل بعض قواده وجرى بعض التعديلات في صفوفهم.

وبعد أن وصل السلطان إلى أذربيجان، عقد صلحًا مع هونيدي الوصي على عرش المجرب لمدة ثلاث سنوات، وأعاد إليه كروشواح (آلاجج حصار) بموجب ذلك. كما جدد معاهدة الصلح مع الصرب، وأعاد إلى أميرها ابنته دسپينا (ملا) التي سبق أن أرسلها إلى مراد الثاني لكي يتزوجها. وخصوصاً لهما دخل ضمن منطقة عند حدود الصرب الصريف على كل احتياجاتها. ثم ترك منطقة قورني للإمبراطور البيزنطي، لقاء استمرار احتفاظه بالمحمدي أورخان بن سليمان بن بايزيد الصاعقة، كما سبق أن تعهد له قبل الحرب مع القرمان بدفع ثلاثمائة ألف آنجة من حاصلات قره صو المجاوره لسلانيك، نظير ذلك، وفضلاً عن ذلك جدد المعاهدات مع الأفلاق (الفلاخ) وجزر ميديلي وساقز وورود.

وبعده فتح القسطنطينية، ويدر أن السلطان محمد الثاني عقد هذه المعاهدات، لكي يтарح لعمل الترتيبات اللازمة لفتح القسطنطينية، ولكي يأمن شر هذه القوى عندما يهم بفتحها.

فتح القسطنطينية

محاولات المسلمين لفتح القسطنطينية:

بجدر بنا قبل أن نتناول فتح القسطنطينية وكيف تم، أن نتحدث في إيجاز — عن محاولات الفتح التي جرت من قبل المسلمين قبل عهد السلطان محمد الثاني.
كان فتح القسطنطينية أملًا إسلاميًا منذ أن قامت الدولة الإسلامية. وقد عبر عن هذا الأمر الحديث النبوي الشريف الصحيح الذي يبشر بفتحها وبحث عليه: وهو: لنفتح القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيشه (1). ومنذ ذلك التاريخ قامت عدة محاولات، من قبل الحكومات الإسلامية طوال ثماني قرون، لتحقيق هذا الأمر.

فقد حاصرها معاوية بن أبي سفيان سنة 324 هـ (644م)، في خلافة ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وفي عهد بني أمية رتب أول الخلفاء معاوية بن أبي سفيان أمير فتح القسطنطينية برأي وبجراح، كما رتب ما عرف بالصوائف والشوارع، وفي سنة 274 هـ (664م) سار فضالة الأنصاري على رأس جيش كبير، ثم أمده بقوة على رأسها يزيد بن معاوية. وحاصر الجيش القسطنطيني، وهو الحصار الأول في خلافة معاوية. وقد بذل القائدان فضالة ويزيد جهودًا جبارة لفتح المدينة العظيمة. ولكنها فشلت بسبب مناعة حصون المدينة ودفاع قسطنطين الرابع (2).

ورد هذا الحديث النبوي الشريف في:
- أسعد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير.
- الإصابة في تلميح اسماء الصحابة لابن حجر الصقلي.
- الاستعاذة في معرفة الأصحاب لابن عبد البر التمري.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل.
- الجامع التصوير السيوطي.
- القاهرة 1966
- د. سالم الرشيدي: محمد الفتح، ص 27, 28.
- القاهرة 1971
- د. علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام ص 279, 280.

تاريخ الدولة العثمانية
وفي سنة 48 هـ (688 م) جهز معاوية جيشاً آخر لفتح القسطنطينية برأ
وابأر. وكان هذا الجيش بقيادة سفيان بن عوف، وخرج معه عبد الله بن عباس
وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وأبو أيوب الأنصاري، وأمر معاوية ابنه
يزيد على الجيش، فساروا حتى بلغوا القسطنطينية، فاقتتل المسلمون والروم، ولم
يستطيع جيش العرب فتح القسطنطينية، لمتاحة أسوارها، ومنبتة موقعها، وفتك
النار الإغريقية بسفن المسلمين (1). وقد استشهد في المعركة الصحابي الجليل
أبو أيوب الأنصاري، ودفن شمالي المدينة. وقد عثر العثمانيون على قبره عند
فتح القسطنطينية، فأمر السلطان محمد الفاتح بناء جامع كبير بجواره. وقد
جرت العادة بعد ذلك إنشاء من عهد سليمان القانوني، أن يتقيد كل سلطان
عثماني جديد سيف منشئ الدولة العثمانية عندها، في جامع أبي أيوب
الأنصارى.

هذا، ولم تتوقف محاولات معاوية عند هذا الحد، بل إن الأسطول
الإسلامي في خلافته حاصر المدينة سبع سنوات، ما بين سنتي 54 هـ 
(673 م، 679 م) (2). وكانت هناك حملة برية في نفس الوقت بقيادة عبد الرحمن
بن خالد، وكان برفقة يزيد بن معاوية القائد العام للحملتين. وقد تحقق ببعض
الانتصارات البحرية القليلة، لكن الحصن المنيع للمدينة استعصت على
الفتح. وكان من نتيجة هذه المعارك استشهاد القائد عبد الرحمن، وتولى

(1) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، السياسي والدولي والثقافي والاجتماعي ج، 1، ط. 8.
القاهرة 1964، ص. 228.
(2) د. علي إبراهيم حسن: المصدر السابق، ص. 218.
فلفل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

سفيان بن عوف القيادة مكانه. وبعدها عادت الجيش والأسطول دون تحقيق الهدف، بناءً على استدعاء الخليفة。

وحصصت القسطنطينية سنة 189هـ (716م) في عهد سابع خلفاء بنبسي أمية، سليمان بن عبد الملك. فقد أرسل هذا الخليفة أخاه مسلمة على رأس جيش كبير لفتح هذه المدينة. وشجعه على ذلك ما قبل أنه قد حذره بعض العلماء بأن الخليفة الذي يفتح القسطنطينية اسمه اسم نبي. ولم يكن بين خلفاء بني أمية قبله من اسمه اسم نبي غيره(1). لذلك أعد حملة لم يعد مثلها من قبل. وإظهاراً لاهتمامه بها رحل إلى مرج دابiq ليكون قريبًا منها، ويتضاعف إيصال الموت في أقرب وقت. أما الأسطول البحري، فكان تحت قيادة أمير البحر عمر بن هيره. سار مسلمة عبر آسيا الصغرى، حتى وصل إلى عمورية، وكان حاكمها أَنْزَك ليو الأيسوري(2)، فحاصرها، ولكن ليو نجا من الموت بحيلة، ولم يتمكن مسلمة من فتح القسطنطينية، وخسر خسارة فادحة. ثم مات سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز، فأرسل يستدعى الجيوش المحاصرة للمدينة سنة 100هـ (718م)، نظراً لعدم نجاحها في الفتح وإصابتها بالخسائر الكبيرة(3).

وفي عهد عاشر بني أمية هشام بن عبد الملك، حُصصت المدينة سنة 121هـ (739م)، ولكن دون جدوى.


(2) مؤلف مجهول: اليونان والهند في أخبار الحقيقية، ج 2، ص 24، مكتبة المعارج، بغداد 1969.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 26، ص 396، القاهرة 1952-1953.

(4) د. إبراهيم العدوي: الأميون والبيزنطيون، ص 191، القاهرة 1967.

تاريخ الدولة العباسية

113
وهكذا رغم المحاولات الكثيرة المستمرة، لم يتمكن بدو أمية من فتح القسطنطينية، لحصانة موقعها، وشدة فتك النيران الإغريقية.

وفي عهد العباسيين، قام المهدي ثالث الخلفاء بتجهيز حملة كبيرة سنة 165هـ (781م)، وضع لقبيتها أمير قواده يزيد بن مزيد الشيباني والربيع بن يونس(1). تقدمت الحملة في آسيا الصغرى، ووصلت من أنقره إلى نيقوميديا، ثم توقفت عند بلدة خرسوبوليس، وأصبح الطريق أمامها مفتوحاً إلى القسطنطينية. ولكن الإمبراطورة "إيريني" الوصية على عرش ابنها قسطنطين السادس، تمكن من عقد الصلح مع الخليفة العباسي الخامس هارون الرشيد نظير دفع الجزية(2).

ولكن الصلح لم يدم طويلاً، فقد نقض الإمبراطور البيزنطي تفوق الأعـيد سنة 187هـ (803م)، فجعل هارون الرشيد جيشاً كبيراً لمحاربته. واما وصلت هذه القوات مدينة مرقة قبالة مدينة القسطنطينية، ثاب الإمبراطور إلى رشده، ووافق على دفع الجزية المقررة التي رفض دفعها.

وخطط المأمون سابع الخلفاء العباسيين، لفتح عموـرية والقسطنطينية، وتوطيد العرب البدو في آسيا الصغرى بلداً بلداً مع سير الفتح، ولكن الأجل لم يمتهله، فمات سنة 218هـ (832م). وخلفه المعتصر فقوبته لديه الفكرة، خاصة وأن البيزنطيين هاجموا أعلاي الفرات، واعتدوا على شعور الجزيرة. فتوجه الخليفة إلى عمورية، وتمكن من فتحها سنة 223هـ (838م). وقد قرر

---

القاهرة 1326هـ  
بغداد 1970

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ 8، ص 154،  
(2) د. شاهر مصطفى: دولة بني العباس، جـ 2، ص 307.

تاريخ الدولة العثمانية 114
الفصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

المعتصم بعدها أن يتحرك إلى القسطنطينية، ولكن الفتى ثارت فجأة في بلاده ومنعته من تحقيق غرضه(1).

وهكذا أخفق العباسيون، كما أخفق من قبلهم الأمويون والخلفاء الراشدون، رغم كل هذه المحاولات العديدة التي بلغت إحدى عشرة مرة قبل المرة الأخيرة، إذا أضافنا محاولات العثمانيين أيضاً. فقد حاول الخلفاء الراشدون مرة، وحاول الأمويون خمس مرات، ثم حاول العباسيون ثلاث مرات، فالعثمانيون مرتين، وفُتحت في الثالثة.

الاستعداد لفتح القسطنطينية:

عندما تحرك السلطان محمد بن نفسه لتأديب أمير القدرن إبراهيم بك على تقصيره للعهود، لم يضع في حسابه الموافقة على الصلح معه. ولكن الإمبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع انتهج الفرصة أثناء هذه المعركة، وأرسل للسلطان بعض الرسول بكتب، يطلب فيه زيادة مخلصة الأمير أورخان، أو إطلاقه في الروملي. قابل الرسول الصدر الأعظم خليل باشا أولاً، كما تقتضي المراسم، وطرحو عليه الأمر، فعملهم بعنف(2).

أخبر الصدر الأعظم السلطان بما حدث، فثارت ثائرته مما بدر من الرسول.

1. المسعودي (أبو الحسن): مروج الذهب ومعان الجوهر، ج-2، ص. 191.
2. Ducas: Rum Tarihçisi, Mirmiroğlu Tercümesi, s. 236
   Istanbul 1940

تاريخ الدولة العثمانية

115
ويذكر إدوارد جيبن، أن الصدر الأعظم خليل باشا هدد الرسل تمهيداً صريحاً، بقوله: "إنها الرومان الحققى المساكين، إذا تعرف حيلكم، وإنكم للجهلون الخطر الذي ينتظركم! إن الصبر لم يطول، فالعرض العثماني مشغول بفتح شاب لا تقيده قوانين ولا تعترضه عقبات. فلم تثثو عن شيء يلقى الرب في نفوسنا عيبة أو يهدينا بطريقة غير مباشرة؟ تذكروا الراحل أورخان. أدعوا الهنغاريين من خلف الدانوب لمواجهةنا. جندوا ضدننا أمان الغرب. وتأكدوا أنكم ستلقون القُنا القاعل بإثارتكم لنا".

وطلب السلطان مقابلتهم له، وعندما جاءوا إليه، أحسن لقاءهم، وليتهم في القول، لكي يفوت الفرصة على الإمبراطور. ثم وعدهم بتنفيذ مطالبهم، مطهراً لهم الإخلاص والوفاء. وقرر لهذا عقد الصلح مع العثمانيين، لكي يتفرغ للإمبراطور.

كانت مدينة القسطنطينية وما جاورها من الضواحي والمناطق التابعة للبيزنطيين، تشكل عائداً يقيد حركة العثمانيين المتقلنين بين أراضيهم في الأناضول والبلقان إلى حد ما. فالمدينة وما جاورها تجعل من الصعب على العثمانيين السيطرة الكاملة على الروملي. وقد أصبح فتحها ضرورة ملحة، لتمكينهم من الاحتفاظ بما فتحوه في البلقان، ووصلوا فيه حتى نهر الطونه. ويمكننا أن نوضح ذلك بمثال بيّن من عهد السلطان مراد الثاني خاصية: كانت السفن البيزنطية والسفن الصديقة لهم مثل سفن البابا وسفن البندقية، تسيطر على المنطقة الممتدة من السبور إلى الدردنيل أثناء معركة وارن 1444م.

(1) Edward Gibbon: The Decline and Fall of the Roman Empire, vol.7, p.59 London 1900
(2) Ducas: Ayn Eser, s. 237
أضطر مراد أمان ذلك، إلى الاستعانة بعوف جنوه عدوه البنقية، لنقل قواته وعتاده الحربي إلى الروملي، نظر أربعين ألف دوقه. ومن ذلك الوقت فكر السلطان في إقامة قلعة مقابل قلعة الأناضول، ولكن الأجل لم يمهله. وعند عودة السلطان محمد الثاني من حربه ضد القرمان، وجد مراكب الفرنجة تسيطر على البوغاز، فأمر ببناء قلعة تقابل قلعة الأناضول، أثناء عبوره إلى الروملي. (1)

وهكذا أكدت التجارب العثمانية - وهم الذين لا يملكون أسطولاً قوياً - ضرورة فتح القسطنطينية. ولهذا بدأ العمل في قلعة الروملي (روملية حصارى) أو حصن بوغاز كسن (بوغاز كسن حصارى)، بناء على أمر السلطان، لمنع كل أنواع المساعدات التي قد تصل من البحر الأسود للبيزنطيين، ولضمان حرية المرور للعثمانيين عبر الشاطئين. ولم يكد السلطان يصل بعد حربه ضد القرمان، حتى أصدر أوامره بإنشاء القلعة، فبدأ العمل على الفور عند أضيق مكان في البوغاز في مواجهة قلعة الأناضول. (2)

ولما علم قسطنطيني الخبر، أرسل رسله إلى أدرنه، بعد أن نبههم إلى عدم الحديث بشيء عن موضوع أورخان. وطلب منهم الملاينة في القول مع السلطان، وإقناعه بالعدول عن إنشاء القلعة. وصل الرسل إلى أدرنه، وقابلوا

(*) استقبال 1922

(1) عاشق بكشنا زادة: تأريخ آل عثمان، ص 141
(2) ابن كمال: تأريخ آل عثمان، ج 28، ص 329، مخطوط بمكتبة نور عثمانية في استنبول.
(3) دائرة توحيد قلعة الروملي ضمن قسم الخزانات واللوحات، رقم (10).
(4) معناؤها الحصن المحكم في البوغاز.

Ducas: Adigeçen Eser, s. 238 - Ismail Hami Danışmend: Adigeçen Eser, cilt I, s. 230-235

اقترح:

تاريخ الدولة العثمانية
السلطان، ثم عرضوا عليه الأمر. فرد عليهم قائلاً: "إنني لا أقيم على شيء به مساس بالمدينة. أما خارج نطاق المدينة، فلا يوجد مكان محترم على، ولهذا فلا مكان من إقامة القلعة. عندما اعتدى المجرب (الهنغاريون) على المناطق المجاورة لوارنة في عهد أبي، تحرك أبيناء من الأناضول لمواجهة العدوان. ولما هم بالعبور إلى البر الأوروبي، اعترضت السفن الأوروبية والبيزنطيّة، ومنعتهما من العبور، فأضطر أبوه للاستعجال بالأسلوب الجنسيّ. إن إمبراطوركم يعلم مدى العناء الذي واجهه مراد الثاني في العبور. لقد كنت في عيني صغيرًا في ذلك الوقت، أنتظر قوم أبي في أدرنة والمسلمون في قلق واضطراب، بينما كان الإمبراطور فرحاً ومسروراً بما يحدث. ولم يكد أبي بعبار الماء بصعوبة وعناء، حتى أقسم أن يقيم قلعة على البر الأوروبي في مواجهة قلعة الأناضول، ولكنه لم يوقف في ذلك، وأنا الآن آمر ببيمنه. لم تربد أن تجتمعين من تحقيق ذلك، أنت قد قادراً على تنفيذ ما أريد في بلادي؟! أذهبوا إلى إمبراطوركم، وأخبروه أن السلطان الحالي مختلف عن سابقيه. وما لم يتمكنوا من تحقيقه، يستطيع هو أن ينفذه في سهولة ويسر! (1)"

تفقد السلطان المكان المقرر لإنشاء القلعة بنفسه، واتعلع على الرسم المقرر تنفيذه. وتأكد من الخطة، ثم بدأ العمل في الإنشاء في 21 مارس 1456 م (جمادى الأولى 856 هـ) عند أضيق نقطة في الخليج في مواجهة قلعة الأناضول التي أمر السلطان بترميمها. وقد كلف محمد الثاني ثلاثة من الوزراء بمراقبة التنفيذ، وهم: خليل باشا وزغت سباشا وصاروخ باشا، وقسم بينهم العمل، وجعل الوزير شهاب الدين مشرفاً على تنفيذ المشروع ككل. وقد استرك

---

(1) Ducas: Adigeçen Eser, s. 240
Zuhuri Danişmend: Adigeçen Eser, cilt 4, s. 220-229.
في العمل في القلعة عدد هائل من العمال يربو على ستة آلاف عامل، يتانبون العمل تحت إشراف المهندس المعماري مصلاح الدين، في حراسة ثلاثين سفينة حربية ومجموعة كبيرة من سفن الشحن استدعى على عجل من ميناء غاليبولي، تفادياً لما قد يحدث من تعرض السفن المعدية لعملية البناء، خاصّة وأن القلعة تطل على مجرى السفينة. وقد أنهى العمل بالقلعة خلال أربعة أشهر، أي في أواخر يوليو 1452م (نهاية ربيع الآخر 856هـ)، ومن الجدير بالذكر أن السلطان نفسه شارك في عملية البناء، لكي يعطي دفعة قوية لحركة التشطيب، وبمجرد الانتهاء ملأ القلعة بالأسلحة والذخيرة ونصب فوق أبراجها المدافع الضخمة. وعين ضيروس أغما محافظاً عليها، وجعل معه أربعمائة محارب إنجليزي. وقد قام محمد الثاني بنفسه بتبقي أسوار القسططينية وخصائصها، لمدة يومين كاملين، ثم أمر بترك قوة استطلاع صغيرة حول المدينة، ورجع في أول سبتمبر إلى إدربه، بعد أن أوصى فيروس أغا بال委会 يمكن بمرور أي سفينة في السيفر إلا بعد أن تنزل أشرعتها وتؤدي رسوم المرور، فإن استدعى أطلق عليها المدافع وأغرقها. وقد تصادف أن مرت إحدى سفن البندقية بعد صدورة هذه الأوامر، وأolta أن تنزل أشرعتها أو تطيع الأوامر الصادرة إليها، فأمر

محتفظ القلعة بإرغاقها.

(1) هامر: دولت عثمانية تاريخي، ترجمة عطاء بالك، مص.19 ص.342

(2) Ducas: Adigeçen Eser, s. 246-248
ولما عاد السلطان محمد إلى أدرنة، أمر كلاً من المهندس مصلح الدين وصالحه سكباك والمهندس أوربان المجري — الذي هرب من استانبول أثناء إنشاء قلعة الروملي ولجأ إلى العثمانيين — بإجراء تجربة واسعة بالذخيرة الحية لاختبار مدى صلاحية القلعة للصمود أمام أي هجوم. ثم سارع تلاقياً لأي مواجهة مع الدول الأخرى بتجديد المعاهدة التي عقدها مع البنادقة (1524م)، على الرغم من أنه كان على علاقة حسنة مع الجنوبيين خصوم البنادقة.

 حل الشتاء، وأخذ السلطان يتجه الفرصة لتفكيك الخطوات القادمة التي سيتخذهما لفتح القسطنطينية. ورغم ما واجه العثمانيين في المعارك الصليبية الثلاث السابقة، إلا أن محمد الثاني صمم على الفتح، رغم اعتراض الكشيين الذين تعلموا بالخسارة الفادحة التي سنتلهم من جراء مواجهة صليبية جديدة. ثم تسلم خريطة القسطنطينية، وأخذ يرسم عليها المواقع، وما يلزمها من معدات عسكرية، ويحدد أماكن الألغام وأماكن وضع السلاح على الأسوار. وانتهى من أفكاره وخططه هذه خلال أربع وعشرين ساعة (1).

 وفي هذه الأثناء أحس الإمبراطور بالخطر الشديد، فأرسل رسوله إلى الدول الأوروبية لتجديد طلب العون والمساعدة الذي سبق أن قدمه لهم، وأثناء قيام السلطان بناء قلعته، ولكن أوروبا التي مثبطة بالهزيمة في معركتين

(1) أوربان: مهندس مجري ماهر، كان يعمل بالقسطنطينية، ولكن الإمبراطور لم يقدر مهارته حق قدرها، فذهب واتجه إلى السلطان محمد الثاني، وعرض عليه موهبة، فقرر منه السلطان وأقر معاهته. وأمر بصناعة المدافع التي برز في صنعها، وكذلك أخبر بصناعة القلصاد لها. و путешествت الإمبراطورية أن أوربان هذا أحد المصنعين على أسوار القسطنطينية.

(2) Ducas: Adigeçen Eser s. 250-252

تاريخ الدولة العثمانية
فصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

صليبيين ضد العثمانيين في وارنه 444 هـ (1448 م) وقوعه الثانية 448 هـ (1444 م)، خلال أربعة أعوام، لا يمكن أن تجاهف هذه المرة بحركة صليبية جديدة وهي لا تتضمن العاقبة، خاصة وأنها فقعت ثقتها في جان هونيدي الذي قاد معركة قوصوحة الثانية، وهزّ فيهما شر هزيمة.

استغات الإمبراطور البيزنطي قسطنطين دراجايس بأوروبا، ولكن المصالح لعبت دورًا هاماً في نتائج الصراع. فقد وافق هونيدي نائب ملك المجاهد على المساعدة تظهر منحه سيلوزى أو (مسوزى) (1). ولم يكن أمام الإمبراطور إلا أن يوافق على ذلك. كما اشترط الباب نقولا الخامس على قسطنطين لقاء المساعدة، أن يوافق على تنفيذ ما دار في مجمع فلورنسا بخصوص توحيد الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية، ويأمر بقراه اسم البابا في كنيسة أيا صوفيا (2). وأن يوافق على قوم الطريق جريجوريوس – الذي عزل سنة 450 م – إلى القسطنطينية وينصبه بطريرقًا. وأن يطلب من البابا إرسال بعض الأشخاص المهمين إلى القسطنطينية لإزالة الخصومة القائمة بين الكنيستين (3).

وافق الإمبراطور على مطالب البابا، وقام بإجراءات تنفيذها، واهتم بالمطلب الأخير. وقد أرسل إليه البابا الكاردينال البولوني روميو الأصل Isidore دجاج لبناءً على طلبه. اصطحب الكاردينال معه خمسين رجلاً، ثم استقل بهم سفينة جنوبية وقاد جزيرة ساقز، وتوجه من هناك ويرتفع عدد أكبر

---

(1) مدينة تقع على بحر مرمرة إلى الجنوب من القسطنطينية.
(2) بني قسطنطين الأكبر (323-337 م) كابسة ياصوفيا في 8 نوفمبر 337 م.
(4) كان إسيدورو رئيساً لأساقفة روسيا لفترة طويلة في السابق. وهو ضمن الشخصيات البارزة التي حضرت مجمع فلورنسا. (264 م).

تاريخ الدولة العثمانية

121
الفصل الثالث: فكرة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

من اللاتين إلى القسطنطينية، وصلها في نوفمبر 452م. وعُرفت انتقالاً رسمياً حافلاً لدى وصوله.

كان قسطنطين دراجيس وعددهم قليل من رجال الكنيسة يفضلون توحيد الكنيسة، ولكن الكثير كان ضد هذه الفكرة، كما كان الشعب لا يحب التوحيد أيضاً. كان جرائد نوتراس وجناديوس على رأس المعترضين. وبأمر من الإمبراطور كان جناديوس يقوم بإيافة جنودية في كنيسة بانتوكراتور، لأنه من معارضة فكرة توحيد الكنيسة. وعندما علم بقدوم إيسيدور إلى القسطنطينية، احتج على ذلك ببيع ورقته على باب الكنيسة التي يقيم بها، كتب عليها: "اتركوا الاستعالة بالله، والتجرأوا إلى الفرحنة". وقد أشتكى معارضتهم الناس للإمبراطور، بعد أن قرأوا هذا الاحتجاج. ورغم ذلك، أقام إيسيدور المراسم الدينية التي تدل على وحدة الكنيسة في أيا صوفيا في 12 ديسمبر 452م. وقد ازداد احتجاج الشعب على هذه المراسم، لدرجة أنهم رفضوا أخذ الخيز المقدس الذي يدل على الوحدة عندما وزع عليهم. وفد عبر أهم رجل بعد الإمبراطور قسطنطين وهو جرائد نوتراس عن احتجاجه الشديد بهذه العبارة البليغة: "خير لنا أن نرى العمامة التركية في القسطنطينية، من أن نرى قنسوسة اللاتين".

أخذ الإمبراطور بعد ذلك يعد العدة للدفاع عن القسطنطينية، فأرسل الرسل إلى كل طرف لإحضار المأكل والمشروب والوازم الاحترازية لمقاومة الحصار المرتقب. فأحضر سفن كبيرة من جزيرة سافز محمولة بأسلوقة الأطماع المختلفة كما حصل على الذخيرة وبعض الأطعمة والفطائر من الموره.

---

(1) Ducas: s. 264.
(2) Ducas: s. 257.
فتح القسطنطينية:

بعد أن أنهى السلطان محمد الثاني من بناء القلعة، أمر فرقة من الجنود بعمل نقط مراقبة حول القسطنطينية من البر، وعند أي شخص من دخول المدينة أو الخروج منها. وفي نفس الوقت استدعى الإمبراطور البيزنطي مواطنيه من الخارج، ثم أغلق مداخل المدينة البرية، وترك مداخلها البحرية. وانتهى الروم هذه البائدة العدائية من جانب السلطان، فهاجموا القرى التركية الواقعة على ساحل البحر، وأسرعوا بعضهم منها وقتلوا البعض الآخر. رد السلطان محمد على ذلك بنصب المدافع أمام القسطنطينية فنصبت على بعد خمسة أميال من المدينة في شهر فبراير 1453م (1).

وقبل نقل المدافع أمر السلطان القائد قرجه باشا ومعه قوة مكونة من عشرة آلاف جندي بالاستيلاء على القلاع البيزنطية، ميسورى وأخيل وويسا وبيجاواس وغيرها. فاستولى عليها دون قتال، أما قلعة سلیورى فلم تسلم إلا بعد معركة حامية (2).

وبدأ السلطان محمد اعتباراً من أوائل مارس 1453م برسل الفرمان لولاته، لكي يخبرهم بأن اقترب فتح القسطنطينية، ويأمرهم بالانضمام للجيش الذي يُعد لهذا الغرض، فوفدت عليه قوات كثيرة التحقت بالجيش.

(1) Ducas: s. 258.
(2) ابن كمال: المرجع السابق، ص. 93.
وقد استمر امتناعه احتمال قيام أخرى قسطنطين دومناس، وديمتريوس أمير المورة بمساعدة أخيهما، فثار طراخان وابنه أحمد وعمر بالإغارة عليهم، لكس شكوكهما.

بعد أن اطمئن السلطان إلى اكتمال استعداداته، تحرك من أدرنة قاصداً القسطنطينية في يوم الجمعة 23 مارس 1453 م (12 ربيع الأول 885 هـ).

وصل محمد الثاني إلى موقع يقال له كشان، ثم توقف هناك في انتظار عبور قوات الأندلس من بوغاز جناق قلعة (القديس). وبعد عبور هذه القوات، استمر في السير قاصداً القسطنطينية، ووصلها في 5 أبريل (25 ربيع الأول). وفي اليوم التالي (الجمعة) حاصر المدينة، وباشر الأسطول العثماني في عملية الحصار (1). ولكنه لم يتمكن من دخول القرن الذهبي لأن البيزنطيين سدوا مدخله وقُلوبه، لمنع الأسطول العثماني من إكمال تطبيق القسطنطينية وإحكام الحصار حولها.

قام الإمبراطور بترميم أسوار المدينة منذ أن أحس بالخطر، وأحكم قلعة أبوابها للبرية (2). وقد جاء لنجدها جستنياني الجنوى في 26 يناير 1453 م، ومعه

(1) أحمد فريدون: المراجع السابق، ورقة 3185.
(2) ابن تغرى برد: حوادث الدهور ص 277 مخطوطة بمكنية أيا صوفيا، بسلتسبول، رقم 3185.
(3) أحمد فريدون: المراجع السابق، ورقة 3253.

مدينة القسطنطينية ثلاثية الشكل، يقع الجنب الجنوبي منها على بحر مرمره، والجبال الشمالية على القرن الذهبي، أما الجنب الثالث وهو الغربي فيربط المدينة بأوروبا برجًا، وتحيط بالمدينة الأسور من كل جانب، فضلاً عن أن الجنب الغربي يحيط به سوران عظيمان. يبعد كل منهما عن الآخر مسافة خمسة عشر أو عشرين متراً. وقد أقيمت أمام السور الثاني (الخارجي) خنادق تبعد عن السور سطوع سبعة أمتار على عمق مترين أو سبعة أمتار، وبلغ ارتفاع السور الثاني (الخارجي) سبعة أمتار ونصف مترين، وعرضه مترين، أما السور الأول (الداخلي) فبلغ ارتفاعه أثنا عشر متراً.

تاريخدولة قسطنطينية

124
فصول الثالث: فترة التحول إلى الإمبراطورية

سفينتان عسكريتان كبريتان وسبع ملاحة محايرب. ونظرًا لشهرة هذا القسائم، فقد عينه الإمبراطور قائدًا عامًا، وعهد إليه بالدفاع عن الأسوار التي يتوسطها الباب الأوسط المسمى باب (طوبيقو)، وقد وعد الإمبراطور القائد جستينيان بأن يقدم له جزيرة لا موس، إذا تمكن من تخليص القسطنطينية من الحصار (1). وقد دفع الحماس جستينيان أن يغير موقفه بعد مدة من بدء الحصار، وينقل لمواجهة كثافة الحصار التي ازدادت في المنطقة الممتدة من باب أدرنة (أدرنة قابي) إلى باب (طوبيقو) في الأسوار الغربية، وهي أضعف منطقة في الأسوار. وقد اصطحب معه أربعمائة جندي مدرع وثلاثمائة بحار (2).

أما الباباء، فقد أرسل أثناء الحصار ثلاث سفن حربية كبيرة وثائنيين من الأجنود، وبعض المهام واللوازم، وأعلن أنه يقوم بتجهيز ثلاثين سفينة أخرى (3). وفضلاً عن ذلك، أرسل جنوبو جزيرة ساقز سفينتين وسبع ملاحة محايرب، وجاءت من جنوب سفينة واحدة وثلاثمائة جندي، كما وصلت قوات من أسبانيا ومن الجزائر (4).

(1) Dr. Ismail Hakki: Adigeceen Eser, cilt I, s. 470.
(2) وقد حار الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني وترد في أي السورين الغربيين يخطط من نحوه خطأ للدفاع، عندما حاصر مرف القيصر القسطنطينية 1224 م (824 هـ) واستمر رأبه في النهاية على أن ينقذ من كتبهما خطأ للدفاع.
(3) Chalcondyle: Histoire de la decadence de L'Empire grec et l'ETablissement de celui des Turcs, P. 169, Paris 1632
(4) Ducas: s. 266
(5) Feridun Dirimtekin: Istanbul'un Fetihsi, s. 139
(6) Quirin Wolos: تاریخ سلطان محمد خان ثانی، ترجمه فاروئی فرید ، ص 112 (من نشرتیات (تاریخ علماتی جنگی سومه سی) استقلال 1229 م) Istanbul 1872
Pachymeres: Istanbul Tarihi, Ali Sevket Tercümesi, s. 195

125 تاريخ الدولة العثمانية
كان كثير من الجنوبين الذين يمارسون التجارة مع البيزنطيين يقيمون بحي غلطة. وعندما أحسوا بالخطر الذي سيصيبهم من إجراء الحصار، أرسلوا في طلب قوة عسكرية من جنوه، فاجتزاهم قوة مكونة من سفينة حربية واحدة محملة بخمسمائة مقاتل. وقد سيطرت على هؤلاء عقلية التجار، فأرادوا أن يتحالفوا مع الطرف الأقوى. وأرسلوا للسلطان محمد سراً بينما كان في أدرنة قبل الحصار، يطلبون تجديد معاهدات الصداقة المعقدة بينهما، فوافق السلطان على ذلك، مقابل تعهدهم بعدم الاشتراك في الدفاع عن القسطنطينية وقت الحصار.

وزع السلطان محمد جنوده أمام السور الغربي للمدينة على النحو التالي:
الجناح الأيمن ويتكون من جنود الأناضول تحت قيادة أمير أمراء الأناضول أسحق باشا ومحمود باشا، ويواجه الجزء الذي يمتد من الجنوب عند بحر مرمرة ويمتد حتى طوقيلو، والجناح الأيسر ويتالف من جنود الرومي تحت قيادة أمير أمراء الرومي "دابي قراقش باشا" ويواجه الجزء الذي يمتد من الشمال عند القرن الذهبي حتى باب أدرنة. أما القلب ويتالف من عساكر الانكشارية والجنود المختارة، فكان تحت قيادة السلطان نفسه، ويواجه الجزء الذي يمتد من باب

أرسل السلطان محمد عدداً من رسل رجاء إلى بعض الحكام المسلمين بعد الفتح، نذكر فيها الدول التي شاركت في البيزنطيين في الحرب ضد العثمانيين، فعلى من في رسالة لجهاشها: "جونييز (جنوه) وقلائلون ونونك (البندنجا) ووريس وفرنسا وغيرها.
وقال في رسالة أخرى لسلطان المماليك إينال: "هم (البيزنطيون) مستكرون على أهل الإيمان منتصرون بالجزاء الغريبة مثل روس وقلائل ونونك وجنويز وغيرهم من أهل الشرق والطغبان" (أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة 322، 323).

ملاحظة: تقع قطط Catalonia شمال شرق أسبانيا وتبعد على البحر الأبيض المتوسط، وهي تضم:
Catalonia
Lلرية أقليم هي: برشلونة، وبارسيا وجيرونا وترجونا. وشمام من اللاتين وسمي قططان
Encyclopaedia Britannica Junoir vol 4 (انظر ص 151)

(1) Ducas: s. 267
فصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

أدرنه إلى طوبقيه. وقد نُصبَت أضخم المدافع العثمانية في المنطقة الممتدة من القرن الثاني حتى طوبقيه، ووضع أضخم مدفع فيها شمال طوبقيه بقليل (1).

وفقًا للجند المدفعية إلى أربع عشرة فرقة: ثلاث فرق عند أقصى الشمال من السور أي عند القرن الثاني، وفرقان أمام السور جنوب المنطقة السابقة عند الباب المقوس (أكرب قابي) وفرقان أمام باب أدرنه، وأربع فرق أمام باب طوبقي، وثلاث فرق أمام باب سليمان الذي يقف أمامي الجناح الأيمن من الجيش (2). أما منطقة غلطة التي يقيم فيها التجار اليونان، فقد أرسل السلطان قوة عسكرية تحت قيادة زغنوش باشا، لكي ترتبط حول أسوارها وترابيهم.

ويقدر المؤرخون الأوروبيون المعاصرون لفتح القسطنطينية عدد القوات العسكرية العثمانية التي اشتركت في الفتح بثمانين ألف أو مائتي ألف جندي (3). ولكن إسماعيل حفي لا يؤيد هذا التقدير، ويرجع عدد الجيش العثماني الذي اشترك في الفتح بثمانين ألف أو مائتي وعشرين ألف جندي، مع العلم بأن قسمًا من هذا الجيش أقام حول أسوار غلطة تحت قيادة زغنوش باشا (4).

ويقدر عدد أسطول العثماني بثمانين وخمسين قطعة بحرية بين صغيرة وكبيرة. ولكن المؤرخين البيزنطيين يزيدون العدد إلىضعف أو أكثر. وكان سليمان يكل بلطه أوغلي يقود الأسطول. وقد قام منذ توليه القيادة بالاستيلاء

(1) Feridun Dirimtekin: Adigeçen Eser, s. 137
(2) Feridun Dirimtekin: Ayap Eser, s. 138
Hammer: Adigeçen Eser, cilt s. 281
(3) Ducas: s. 250 – Hammer: cilt 2, s. 82,371
(4) Ismail Hakki: Adigeçen Eser, cilt 1, s. 473
على بعض القلاع المنتشرة في جزير بحر مرمرة، التي ينتظر أن تتقدم على
مؤخرة الأسطول العثماني، أو تساعد المدينة على فك الحصار.

أما الجيش البيزنطي، فيقدر عدد الجيش العامل فيه بخمسة آلاف، وينقل
عدد من هم تحت السلاح بأربعة آلاف وتسعمائة وثلاثة وسبعين، وتشير
المصادر إلى أن القوات الأجنبية التي جاءت لنجدة قسطنطين من البندقية وجنوه
وجزيرة كريت وساق، وأسبانيا ومقاطعة بروفانس فرنسا تقدر بتلماجع ألاف
جندي. أما القوات البحرية سواء منها البيزنطية أو الأجنبية، فيقدر عددها بالآلاف
مقاتل.

ومن الجدير بالذكر أن الأمير أورخان العثماني ابن محمد حبى الذي كان
يعيش لدى قسطنطين، اشترك في المعارك ضد العثمانيين. وكان يقود قوة تقدير
بستمائة محارب تركي وعدد من الراهبان المتطوعين. وقد عهد إليه بالدفاع عن
المنطقة الواقعة بين (قوم قابى) وصماتية جنوب المدينة على بحر مرمرة.
ويندر المؤرخون قوات الدفاع البيزنطية كلها بما لا يقل عن خمسة عشرو
الف جندي.(1)

قسم الإمبراطور منطقة الأسوار إلى سبعة وعشرين موقع دفاع، خصص
لكل موقع قائداً. وقام هو وجستينانيو وكانتاكوزين بقيادة الموقع الذي يواجه قلب
الجيش العثماني عند طوبيو. أما الأسطول، فيقدر عدد قطعه بثلاثين
قطعة بيزنطية وأجنبية. شاركت فيها جنوه بثمان قطع والبندقية بخمس عشرة

(1) Feridun Dirimtekin: Adigeçen Eser, s. 63-68.
والجمهورية الإيطالية بست والباقي من بعض البلاد الأخرى ومن البيزنطيين. وقد قامت هذه القطع بغلال مدخل القرن الذهبي بالسلاسل في 2 أبريل سنة 1453 بمباشرة أوروس الإمبراطور.

بدأت ترتيبات الحصار العثماني في 2 أبريل 1453، وأكتملت يوم 11 منته. وقبل أن يبدأ المعارك أرسل السلطان محمد القائد العثماني محمود باشا إلى الإمبراطور، طالباً منه تسليم المدينة حقناً للدماء، كما تقتضي التقاليد الإسلامية. ولكن الإمبراطور أقسم على الدفاع عنها، أو دفع الجزية بجواب معاهدة صلح توقع بين الطرفين. وبناء على ذلك بدأ الحصار الفعلي اعتباراً من 12 أبريل 1453 (2 ربيع الآخر 857 هـ)، وتحرك الأسطول العثماني في مواجهة ميناء القسطنطينية.

بدأ المدفع الكبير الذي صُوب نجاح طويقفي بطلق قد قاذفه المدوي، وقد خارت قوى أهلية القسطنطينية العيونية أمام هذه الضربات المتلاحقة على حجم المؤرخ البيزنطي المحاصر نقولا باربارو. فقد كان هذا المدفع يطلق سبع أو ثمان دفعات من القذائف الحجرية في اليوم (1). وقد أخذ الناس كرد فعل للمفاعجة، يحملون صور العزاء ويطوفون بها في الشوارع، وفي اليوم العاشر للحصار انفجر أحد المدافع الكبيرة فين يعمالون عليه. فاستشهدوا جميعاً، وقام المهندسون بإصلاحه في اليوم التالي. وبفضل تركيز الضربات المدفعية، أمكن إحداث عدة ثقوب في بعض الأسوار، ولكن البيزنطيين رجاءً ونساء كانوا يشاركون لسد هذه الثقوب بكل سرعة. وكان الإمبراطور يتفقد الأسوار كل يوم

(1) Feridun Dirimtekin: Ayni Eser, s. 69, 70, 142
(2) Nikola Barbaro: Kostantsiniyye’min Muhâsara Jurnalı, s. 52
بعد هدوء القصف المدفعي، وقوم بالتشجيع المدافعين(1). وفي يوم 18 أبريل، تمكنت المدفعية من إحداث تقدّم في الأسوار الضيقة عند وادي بيرام باشا، المواجه لقلب الجيش العثماني، ولكن الجنود العثمانيين لم يتمكنوا من اجتياز هذه الثلم، أو رفع سلام على الأسوار، نظرًا لاستباب الدفاع. وفشل الهجوم البري الأول. وقد حاولت السفن العثمانية كسر السلاسل لدخول القرن الذهبي، ولكنها فشلت أيضاً. كما فشلت محاولاتها التالية في يوم 30 أبريل(1).

علم البابا، بعث إلى أحوال المحاصرين، فأمه مساعدته لقسطنطينية، تتكون من ثلاث سفن حربية على ظهر كل واحدة منها أربعة محاور، ثم أرسل في أعقابها ثلاثين سفينة أخرى. وقد التحقت بهذه السفن الحربية سفينة بيزنطية واحدة محملة بالذخيرة والعتاد الحربي والمؤن من شبه جزيرة الصورة التابعة لهم، وعندما علم العثمانيون بتحرك هذه القوة البحرية، أعدوا العدة لملائقتها. وقد عهد السلطان لقائد الأسطول سليمان بك بالتصدي لهذه السفن وتحطيمها. استقل القبطان ثمان عشرة سفينة، وتوجه للقاء المدد القادم، فقابلهم في بحر مرمر، على مشارف القسطنطينية. ودانت معركة حامية بين الفريقين، على مرأى من السلطان والإمبراطور، تغورت فيها سفن الإمبراطور بفضل إعدادها ومهارة بحارته، ومساعدة الرياح التي كانت في صالحها. وتمكنت في النهاية من اختراق السفن العثمانية والانفصال داخل القرن الذهبي، بعد أن سقطت لـ البيزنطيون السلاسل، ثم شددها مرة أخرى بعد مرورها. وقد أثار هذا الفشل السلطان، فقرر عزل سليمان بك وتعيين حمزة بك مكانه(3).

(2) Feridun Dirimtekin: Adigeçen Eser, s. 154-160.
(3) Ducas: s. 269, 270.
لفصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

وبعد أن فشلت هذه المحاولات العثمانية الأولى، انعكس صدأها على الجيش، فأصبح الموقف يستدعي عقد مجلس حرب للباحث في الأمر، خاصة وأن البيزنطيين وصلوا المدد، ومن المتوقع أن يستمر الحصار فترة طويلة. وقد رأى الصد الأعظم المتخال كليلي باشا أن يقبل العرض الذي قدمه الإمبراطور. وهو رفع الحصار مقابل جزية سنوية قدرها سبعين ألف دوقة من الذهب. ولكن خصمه زغнос باشا وبعض القواد والعلماء رفضوا هذا العرض، وفضلوا استمرار الحرب.

كان زغнос باشا وفرقتته المكونة من خمسة عشر ألف مقاتل ترابط شمال غلطة التي يسكنها الجنوبيون، في منطقة بك أوعلي وفي قاسم باشا وشاص كوي حتى شاطئ الخليج وأيوان سراي. وقد صدرت الأوامر مؤخرًا إلى القائد زغнос، ببناء جسر يربط بين الشاطئ المقابل لشاص كوي والشاطئ الأخير، لكي ينشأ هناك ارتباط بين بك أوعلي شمال غلطة وأسوار القسطندنية الغربية، التي يرابط أمامها الجزء الأكبر من الجيش العثماني. كما أن الجسر هام وضروري لحماية السفن العثمانية، التي قد تدخل إلى القرن الذهبي بأي وسيلة من الوسائل. ويدرك المؤرخ البيزنطي دوكاس أن الجنوبيون في غلطة كانوا يمارسون سياسة ذات وجهين، فكانوا يساعدون البيزنطيين خفية في الليل، ثم يظهرن الصداقة للعثمانيين ويمدونهم بلواءزم الحرب التي يطلبونها بكميات وفيرة مثل زيت الزيتون الذي تحتاج إليه المدافع)

ومن الجدير بالذكر أن السلطان محمد الثاني تنبه لتفاقمهم بعد الانتهاء من فتح القسطندنية. وقد ذكر ما حدث منهم في الرسالة التي بعث بها لسلطان

(1) Ducas s. 275
الفصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

المماليك أينال، حيث قال: كان في شتى الشروم الذي يكون شماليًا منها قلعة أفرنجية جنوبية وهي المحصنة المدعومة بقلعة غطية وهي جارة لها {القسطنطينية} متسقة النظام مملوءة من المشركون الليام فلما حاصرنا قسطنطينية جاءنا أهل تلك القلعة وشددوا بنا ميثاقهم وجدنا معنا وقفاً وقفاً وقنا لهم كونوا كما كنتم وأثبتوا على ما أنتم عليه بشرط أن لا تعيشوها قبلوا شرطاً وأطعاً أمرنا فلما وقع ما وقع على قسطنطينية وجد يمن القلنتى والأسرى من أهل غلهة وهم قد حاربونا وبدا أنهم نقضوا ميثاقهم وأظهروا نفاقهم.(1)

وبعد أن أقام زعيم الجسر المطلوب الذي يربط بين جنابي الجيش العثماني، فكر السلطان محمد في حيلة لتلاقي السلاسل التي وضعها البيزنطيون عند مدخل القرن الذهبي. وقد كان البيزنطيون يهدفون من وراء هذه السلاسل إلى حماية الأشور المطلة على القرن الذهبي، لأنها أسوار ضعيفة، وكان السلطان يدرك ذلك جيداً. ومن الخجير بالملاحظة أن هذه السلاسل استُعملت لأول مرة سنة 100 هـ (1618م) من قبل الإمبراطور ليون، عندما قام العرب بمحاصرة القسطنطينية في أواخر عهد سليمان بن عبد الملك 98 هـ واستمر الحصار حتى أواخر عهد خلفه عمر بن عبد العزيز. ثم استعملت السلاسل مرة أخرى أثناء الحرب الصليبية سنة 1023م. وقد تمكن الأسطول البندقي وقتها من تحطيمها ودخول القرن الذهبي ومهاجمة المدينة من شواطئها.(2)

(1) نص الرسالة بالعربية في كتاب أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة 134.
(2) راجع ص 118، 111 من هذا الكتاب.

Feridun Dirimtekin: Adigeçen Eser, s.142

تاريخ الدولة العثمانية
开元三月，回纥小王子布尔罕到.Marker

وطلب الزيت من جنوبي غلطة لدهن البكر. وفي هذه اللحظات أمر السلطان بإطلاق المدفعية المنصوبة في تلك المنطقة على السفن الراسية عند مدخل القرن الذهبي للتمويه على جنوبي غلطة، كما جرت محاولات وهمية لإخضاع السلاسل أيضاً. وقام الجنود تحت جنح الظلام في 21 أبريل، بتسليق السفن على البكر من طويانه شمالي غلطة على بحر مرمرة، إلى "قاسم باشا" على شاطئ القرن الذهبي، ثم أُنزلت في المياه. وقد أمكن نقل سبعين سفينة تقريباً في ليلة واحدة، تحت ستار من المدفعية. ثم أخذت مدفوعة هذه السفن والمدفعية الموجودة على الشاطئ المقابل لها تمطر أسور القسطنطينية الضخمة الواقعة على شاطئ القرن الذهبي بالذات. وقد اضطر الإمبراطور أمام هذا الإجراء، أنقل بعض الفرق إلى هذه المناطق للدفاع عنها. ولم توفق الهجمات البيزنطية التي نصبها على الجسر أو على السفن التي نُقلت إلى القرن الذهبي وثقت كلها بالن 포ى الخارجية. واحتد المعركة بين الفريقين في القرن الذهبي وأصيب كل منهما ببعض الخسائر في السفن وفي الأرواح. وعقد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين دراجيس مجلس حرب، للتشاور في أمر السفن العثمانية التي نقلت إلى القرن الذهبي. فاستقر رأي المؤتمرين على وجود التخلص من هذه السفن بمباغتتهما Jacono Cocc  في جوف الليل وأحرازها، وأخذ البحار البلداني جاكومو كوكو على عاته هذه المهمة. وسررب الخبر إلى جنوبي غلطة، فأبلغوه للسلطان محمد على حد قول المؤرخين الأوروبيين المعاصرين للفترة. فأخذ يستعد للمفاجأة. ولم يكذ البحار البلداني يقترب بسفنه من السفن العثمانية الراسية في القرن الذهبي في 132
الفصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

28 أبريل، حتى أمطرتها مدافع الشاطئ بوابل من القنابل. فغرقت سفينة القائد في لحظات، وأصيبت بعض السفن الأخرى وفر الباقى(1).

أخذ السلطان العثماني بعد العدة للهجوم الثاني. فبدأ يعد توزيع المدافع من جديد، بناء على ما تكشف من تجربة الهجوم الأول. وركز الهجوم هذه المرة على منطقة القلب (طوبقور) لعدم أسوأها، ولكن كثافة الدفاع واستمتعة المدافعين جعلت الهجوم الثاني الذي بدأ في 2 مايو يصاب بالفشل. وقد لبي الدبابات والبندقية نداء الاستغاثة الذي وجهه الإمبراطور البيزنطي إليهم في هذه اللحظات العصيبة، فأرسل الدبابات إليه خمس سفن في 7 مايو، كما أرسل إليه البندقية أسطولاً بقيادة لوريدانو(2).

ولما لم يحرز الهجوم الثاني نجاحاً، فكر السلطان في توجيه هجوم أخر عن مكان آخر من الأسوار، فكلف الجنرال الأيسر بتوجيه الضربة هذه المرة في 16 مايو. ولكن الهجوم الثالث رغم عطفه، لم يحقق النتيجة المرجوة.

رأى السلطان محمد بعد ذلك أن يبدأ هجوماً شاملاً على المدينة، حتى يتمكن من اختراق الدفاع ودخولها. ولكن قيل أن يقوم بتنفيذ الهجوم، أرسل رسوله قاسم بك استنديار أوغلى إلى الإمبراطور في 24 مايو يعرض عليه التصالح، بشرط: تسليم المدينة. وخروج الإمبراطور منها سالمأً ومعه حاشيته وخصائصه إلى أي مكان يشاء أو يقبل حكم الموره. وخروج الأهالي من المدينة أو بقاءهم فيها متمتعين بالحرية التامة. وإلا كانت العاقبة وخيمة. فأرسل

(1) د. سالم الرشدي: المرجع السابق، ص 16
(2) Dr. Halil İnalcık: Fatih Devri Uzerine Tektikler ve Araştırmalar, s. 129 (Türk Tarih Kurumu Yayınlarımdan) Ankara 1956
الإمبراطور بدوره رده مع رسله إلى السلطان، قائلاً: ندفع الجزية كما تقررت، ولا نرضى بغير ذلك. فرد السلطان على الرسل، بقوله: لا يمكن أن أبرح هذا المكان، فإما أن أفتح المدينة أو أموت تحت أسوارها. إذا انسحب الإمبراطور من المدينة بسلام، فإني أمنحه حكم المورة وأعطي إخوته ولايات أخرى، ونكون بهذا أصدقاء، وإذا فإن العاقبة ستكون وخيمة على الإمبراطور وحاشيته ورعيته(1).

وفي يوم 25 أو 26 مايو أرسل ملك المجر الشاب رسله إلى السلطان محمد، لكي يخبره بأن وصاية هونيادي قد رفعت عنه وأصبح ملك المجرب مفردوه. ويود لو أن السلطان رفع الحصار عن القسطنطينية، إلا أن ضرر لمساعدة الإمبراطور، وحث أساطيل الدول الغربية لنجده(2). وفي يوم 27 مايو عقد السلطان مجلس حرب للتشاور في فحوى الرسالة التي وردت إليه من ملك المجر. فأشار عليه الصدر الأعظم خليل باشا برفع الحصار عن المدينة نظير جزية كبيرة تحصل من البيزنطيين، حيث لا قبل للعثمانيين بمعركة صليبية جديدة، وقد جرت عليهم ثلاثاً منها، الوالد في السابق، ولكن زغنوس باشا رد قائلاً: إن الغرب لن يساعد المدينة المحاصرة كما قال ملك المجرب، وإن جاء لنجدها، فإن يلينا عن عزمنا شيء. ثم وافق الجميع على رأي زغنوس، وقرروا بدء الهجوم الشامل(3).

---

(1) Ducas: s. 276
(2) Feridun Dirimtekin: Adigeçen Eser, s. 177
(3) Dr. Halil İnalçık: Adigeçen Eser, s. 130.

تاريخ الدولة العثمانية
اتخذ السلطان كافة الترتيبات في البر والبحر لشن هجوم شامل مكثف على أسوار المدينة، خاصة وأن الحصار قد طال، والوقت قد حان ولا يحتفل التأخير بعد رسالة ملك المجر. وقد تم تأخير عودة الرسل، حتى تكتمل الاستعدادات للاهتمام المرتفع. أخذ السلطان يتفقد الأسوار والشواطئ، لكي يخطط للمعركة، كما أخذ يخطب في جنده ليزيد حماسهم وشجاعتهم\(^1\). ثم بدأ التحذر، المركز على جميع الجهات في البر والبحر في 27 مايو. وقد أحدث الهجوم عدة تلم في الأسوار، ولم يتمكن البيزنطيون من سدها نظراً لاستمرار القصف المدفعي. وقد تقدم مراد باشا من هذه اللحظة يريد اصطياد جستينياني، ولكنه فشل في مساعه وسقط شهيداً. ولما أشتد الهجوم أنشد كبار رجال الدولة البيزنطية على الإمبراطور بالهروب، ولكنه رفض بالإصرار. وتوجه نحو الأمن الأسوار، وتمكن من طرد العثمانيين الذين تقدموا من القلعة التي أحدثتها المدافع.\(^2\)

توجه الإمبراطور في ليلة 28 مايو إلى كنيسة آيا صوفيا ومعه كثير من البيزنطيين، وأدوا الطقوس الدينية، ثم تضرعوا الله أن يخلصهم من المأزق الذي وقعوا فيه. وكانت هذه آخر صلاة نصرانية تقام في آيا صوفيا.

وفي صباح 28 مايو بدأ القصف المدفعي بنشاط من جديد، وأخذت عدة تلم في أسوار طروقيو (منطقة القلب). وقد أخذت هذه اللحظة تتسع رويداً رويداً. ثم توقف القصف وبدأ في مساء 29 مايو، واستمر حتى الساعات الأولى لصباح 29. وفي الصباح بدأ الهجوم المكثف، فاستمرت الضربة الأولى ساعتين

---
\(^1\) انظر خريطة "أهمية موقع القسطنطينية وحصار الفالج لها" ضمن قسم الخريطة واللوحات، رقم (11).

\(^2\) Kritovulos: Adigeçen Eser, s. 280.
ولم تنجح، واستمرت الصراعية الثانية ساعة ونصف ولم تصل إلى نتيجة حسنة. كما أن الجنود العثمانيين الذين تسلقوا الأسوار عن طريق السلالم الخشبية قد أُبطِلوا بالنار الإغريقية. ثم بدأت الصراعية الثالثة وكانت طويلة الأمد. وقد أبلِي فيها الانتشارية بشدة جداً كما أن قوات الاحتياط ساهمت بنصيب كبير أيضاً. وكان السلطان في القلب يقود هذه الفرق. كما أن الإمبراطور وعاصمته كانا في الطرف المقابل للقلب. وقد جُرح جستنيان أثناء الصراعية الثالثة في رأس وفحي ذراعه، فانسحب من الميدان رغم إطلاق الإمبراطور عليه بالبقاء. ويُقال أنه استقل سفينة أُقيمت به حتى جزيرة سافار(1).

تقدمت قوات الانتشارية تحت ستار المدفعية حتى تجاوزت الخناص إلى السور الخارجي، وقد تسلق ثلاثة منهم السور، وكان في مقدمتهم الجندي المغوار حسن أبادلي. وقد تمكن البيزنطيون من قتل ثمانية منهم بالسمام والحجارة. ثم أصيب حسن وسقط شهيداً من فوق السور، كما سقط معه كثيرون. ولكن الانتشارية صممت على استغلال السور، رغم كثرة الخسائر.

وتوالت المجموعات المضادة للسور، وأصبحت من الكثرة بحيث لـم يستطيع الإغريق التخلص منهم. واستولى الانتشارية بعد ذلك على المكان الذي يقع بين السورين، وقد أعطى بالمدافعين. وقد أصيب الإمبراطور في كتفه في هذه الأثناء وسقط كتا كوزين بجواره قتيلاً. فزع الإمبراطور من هول الهجوم، فـترعى هارباً، ثم سقط قتيلاً من تأثير قذيفة شديدة لحقت به(2).

---

(1) Ducas: S. 284.

كان الإمبراطور في الخمسين من عمره عندما سقط في المعركة.
تهوي الدفاع عن السور الداخلي لطوبقير، فتقدم الانكشارية واستولوا عليه وتقدموا بعده إلى داخل المدينة. كما تمكن جنود الجناح الأيمن من دخول المدينة بعد أن هدموا جزء من الأسوار المحاذية لـ "باب سوري"، بصورة بالغة. كذلك تمكن الجناح الأيسر فيما بعد من اجتياز الأبواب الموجودة في الأسوار التي برابعون أمامها. ثم سقطت الأسوار الواقعة على القرن الذهبي بعد ساعة ونصف أو ساعتين تقريباً. وعندما علم الأمير أورخان قائد الفرق البيزنتينة المرابطة خلف الأسوار الواقعة على بحر مرمره بسقوط المدينة، تساقل أحد الأسوار وألقى بنفسه في فوته، فانتحر. وعُرفت جثته فيما بعد. (1)

وهكذا سقطت القسطنطينية بعد حصان دام أربعة وخمسين يوماً. وبعد أربع ضربات مكثفة في 18 أبريل وفي 6، 12، 29 مايو. سقطت القسطنطينية التي استمرت عاصمة للإمبراطورية البيزنطية لمدة 1125 عاماً. ودخل العثمانيون استانبول بعد ظهر يوم الثلاثاء 29 مايو 1453 م (20 جمادي الأول 8 هـ). (2)

كان السلطان محمد في الثانية والعشرين من عمره، عندما فتح استانبول. (3) وقد استحق لقب الفاتح عن جدارة بهذا العمل الكبير الذي كلف المسلمين كثيراً، دخل السلطان المدينة من طوبقير يحيط به لقب هائل من...

---

(1) Ducas: S. 291-293.

(2) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة 240، 340، 350.

(3) لا يعرف السنة التي ولد فيها محمد الثاني بالتحديد. يقول علاي في كتابه الإخبار 824 هـ، وعاشق باشا زاهد 832 هـ، ونافذ التراجم لعبد الدين 823 هـ، وتأثرا في تأصيل نامه 836 هـ، وذكر الله في نهج التراجم 835 هـ (1432 م) وكان من ندماء السلطان مراد الثاني، ورأى أقرب إلى الصواب.
الوزراء والعلماء وكياء رجال الدولة. ثم أخذ يتجول في المدينة وهو يعطي جواده، وينصح الجنود بالكشف عن السباب والنهب، وتوجه بعد ذلك إلى أيا صوفيا، وهنالك نزل من على صهوة جواده. والثاني على الأرض خشيًا يحتو التراب على رأسه جمالًا وشيكًا. وعندما دخل أيا صوفيا، وجد بها الطريق وأنشأ كثيرين من المسيحيين. فنادى على الطريق وقال له: أنت ورفاقك وكل الناس من الآن فصاعدًا، أحرار أمنون على أرواحكم. ثم نادي قوات الجيش العثماني وحذرهم من تعرض أي جندي لأحد بسوب. وأمر الفاتح أحد العلماء بأن يؤمن الصلاة العصر في كنيسة أيا صوفيا، ثم أدى الصلاة فيها ليذنباً بتحويلها إلى مسجدًا. وذهب الفاتح بعد ذلك إلى قصر الإمبراطور. وهناك قدم إليه أحد الصربين رأس الإمبراطور، فتعرف عليها بقوات الروم. وعندما أُحضرت الجثة وجد النسر الذهبي مرسومًا على الجواب والحذاء، وهي شارات الملك الذي يترقب بها الأباطرة حسب العادات القديمة. وقد أمر الفاتح بدفع الإمبراطور، بطريقة تليق بالحكام، ثم سأل عن زوجة الإمبراطور وأولاده. فأخبروه بأنهم هربوا على سفينة جستنياني إلى المورة(1).

ورأى الفاتح أن يهتم بشن عقوبة الروم الدينية، فأمر رجال الدين بانتخاب طريق من بينهم. فاختاروا جنابيوس بطريقة ليهم، وكان من أقوى المعترضين لاتحاد الكنيستين. وقد خول له السلطان صلاحيات واسعة في الشئون الدينية والدنيوية.

---

(1) أنظر: أحمد راشد: المراجع السابق، م 219، ص 284.
(2) أحمد خضر باشا: المراجع السابق، ص 164.

بعد أن انتهى الفتح من ترتيب الأحوال في استنبول، عاد إلى أدرنة في 
18 يونيو 1453 م. (1)

وقد أرخ المؤرخون العثمانيون لهذا الفتح العظيم بـ "بلدة طيبة". ويحسب
هذا التعبير بحساب الجملي، حيث يوافق السنة الهجرية للفتح 867 هـ. (1)

فتوحات محمد الثاني التي أعقبت فتح القسطنطينية:

(1) الصرب والبوسنة:

بعد أن فتح السلطان محمد القسطنطينية، عاد إلى أدرنة، فجاءته رسل من
قبل ملك الصرب جورج برانكوفيتش (بوركي في الكتب التركية)، للتهنئة بالفتح,
وتقدم مفاتيح القلاع الصربية التي سبق للعثمانيين فتحها. وفي نفس الوقت كان
ملك الصرب يتباحث مع المجر للاشتراع في الحرب الصلبية التي نادى بها
البابا ضد العثمانيين.

كان أول هدف ترمي إليه سياسة السلطان محمد هو التمكين لسلطته في
شبه الجزيرة البلقانية، حيث كان المجر الأشداء في الحرب يهددونها، بحكم
قربهم من تلك الديار، بأعظم الانتظار. من أجل ذلك كان لزمًا عليه أن يقتـح

(1) Dr. Ismail Hakki: Adigeçen Eser, cilt I, s. 452-493.
(2) يجري حساب الجمل بحساب الأعداد التي تقابل الحروف الهجائية، وهي أ=1 ب=2 ج=3
د=4 ه=5 و=6 ز=7 ح=8 خ=9 ل=10 ك=11 م=12 ن=13
س=14 ع=15 ف=16 ض=17 ق=18 ر=19 ش=20 ت=21 ث=22
غ=23 وه=24 ز=".

تاريخ الدولة العثمانية
140
فصل الثالث: فترةتحول من الدولة إلى الإمبراطورية

بلادochrome، لكي يضمن لجيشه قاعدة ثابتة يستطيع الانطلاق منها لحرب المجر. (1)

ببدأ الفاتح بعد العدة للتحرك لقتل الصرب سنة 1454م، فعلم برانكوفتش بذلك، وأخذ يحصى قلاع العاصمة سامندره. ثم ترك الدفاع عنها لأحد قواده، وهرب هو وأولاده إلى المجر. تحرك الفاتح إلى الصرب، وضُرب حصانة حول سامندره وأستروفتش. لم تسقط سامندره، أما أستروفتش فقد سلمها محافظها للعثمانين لقاء احتفاظه بحياته. ثم عاد السلطان العثماني أدراه إلى أدرنة، وترك الفاتح فيروز بك، لكي يحكم قلاد الصرب. جاء ريسادي لمساعدة برانكوفتش، واستلحا سوياً في منزلة القائد العثماني، فهزماه وأسراه، ثم قام بختريب البلاد الواقعة بين ودين ونينش.

تحرك السلطان بنفسه إلى الصرب، فوجد برانكوفتش وجدً بعد أن عاد هونادي إلى بلاده. فأثر ملك الصرب تشليم، وقبل الاكتراف بعشتلاق العثمانين على بعض القلاع ودفع الجزية وتقديم الجنود للجيش العثماني وقت الحرب.

وفي 1455م (859هـ) تحرك السلطان على قلاد جبهة إلى الصرب، وحاصر مدينة نوفوبردا الشهيرة بالفضة لمدة أربعين يوماً حتى استسلمت. وكانت هذه المدينة في يد العثمانين، ثم استردها الصرب. واستولى بعد ذلك...

(1) كارل بروكلمن: المرجع السابق، ص 430.
على بعض المدن الصغيرة والقلاع.(١) ولم يبق أمامه في الصرب إلا الاستيلاء على بلغراد مفتاح قلب أوروبا.

وقد سبق للعثمانيين أن حاصروا بلغراد لأول مرة في عهد مراد الثاني، ولكن هونيادي تمكن من رفع الحصار عنها. وهو في هذه المرة يأتي ومعه ملك الصرب للدفاع عن بلغراد. استعد السلطان محمد لكي يقود هذه المعركة بنفسه لوقفه على مدى صعوبتها، فتحرك من صوفيا إلى الصرب. ولماء وجد مكان الصرب نفسه وحيدًا، هرب إلى المجر. هذا وجد بلغراد مدينة حصينة حيث أنها على شكل شبه جزيرة تقع عند النقطة نهر الطونة وسما. وإذا وقعت في يد العثمانيين فإن الطريق أمامهم إلى وسط أوروبا يكون سهلًا وسريعًا. لهذا قام البابا بتحريض هونيادي على ملاحة العثمانيين. تمكن هونيادي من تحطيم السفن العثمانية التي جاءت لتكامل الحصار حول المدينة. واشتد القتال بين الطرفين، وتمكن هونيادي من إلحاق خسارة فادحة بالعثمانيين، حتى أن السلطان محمد جرح في فخذه أثناء اشتداد القتال. ثم رفع الفاتح الحصار من حول المدينة يائساً من فتحها، وعاد أدراره إلى أدراره بعد أن استشهد من جنوده أربعة وعشرون ألفًا تقريبًا.(٢) وقد توفي هونيادي بعد انتهاء المعركة بعشرين يومًا أي في 11 أغسطس 1456، متآثراً بجراحه التي مني بها في هذه المعركة. ثم توفي

١٤٢

تاج التواريخ لسيد الدين، جد١، ص٤٥٣.
تاريخ أبو الهيثم: ص٦٧.
تاريخ أبى الفتح: ص٨٢.
البلاذ زاده تاريكي: ص١٤٧.
الفصل الثالث: فترة تحول من الدولة إلى الإمبراطورية

جورج براونكوفتش في العام التالي أي في 24 ديسمبر 1451م، وقد قال الأب هنادي بعدها بمنصه تعرض على مقبرة هنادي: لقد ماتت آمالنا بموت هنادي(1).

وبعد موت براونكوفتش، تنازع أبناؤه على العرش وتصارعوا، ثم تولى أحدهم وهو لوزر، لمدة عام واحد مات بعد، وتجدد الصراع على العرش مرة أخرى. فتمكن السلطان من ضم بلاد الصرب للدولة العثمانية 1459م (863هـ) ما عدا بلغراد، ثم ضمته إلى الدولة العثمانية في يونيو 1463م دون قتال.

المورة وبعض الجزر اليونانية:

عندما مات حاكم أثينا نيريو أكسيبولي سنة 1452م، ترك وراءه فتي قاصرة، فأقيمت زوجته وصية عليه، وقد وقعت هذه السيدة في حب فتى من البندقية، ثم زوجته وأراد الفتي أن يتزوج على عرش أثينا، ولكن ابن أخ نيريو تصارع معه على العرش، وشكا أهل أثينا للسلطان العثماني، فأرسل قائده عمر بن طراشق للاستيلاء على المدينة، لأن أهلها سخطوا على الطرفين، فتم له ذلك في سنة 1456م (863هـ).

عهد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين دراچيزيس بحكم الموره إلى أخوته توماس وديمتريوس سنة 1448م. كان توماس رجلاً غليظ القلب، أما ديمتريوس فكان ينصف بالدعاء والميل إلى الهدوء، ولم يكذ الأخوان يصلان إلى الموره، حتى قامت بينهما الخلاف والمنازعات. وقبل أن يشرع السلطان محمد في فتح القسطنطينية، أرسل بعض جنوده إلى المورة، لمنع حاكمها من مساعدة أخيهما.

(1) د. سالم الرشيدى: المرجع السابق، ص 128.
ولما تم الفتح، بادر الأخوان بطلب الأمن، فمنحهما الفائز الأمن بسرعة دفع الجزية. ولكن الهدوء لم يستمر في المورة، حيث تدخل في قتال بعض المغامرين الألبان طمعًا في حكمها. واستمر الصراع بين الأطراف الثلاثة فترة طويلة. وقد خشي السلطان من استيلاء الألبان على شبه الجزيرة، فأرسل إليهم القائد علي بن طراخان سنة 454 هـ، لكي يوقف الخطر الألباني عن المورة.

ولكن الوضع لم يستتب، فذهب السلطان بنفسه، واستولى على شمال المورة وضمها إلى الدولة العثمانية. ولم يكد الفاتح ينسحب من المورة حتى حدث نزاع آخر بين الأخوين توماس وديمتريوس، وقام الألبانون من جنوبهم بتخريب ما وصلتهم إليه أيدهم. فدخل السلطان المورة مرة أخرى، واستولى على بعض أجزائها. ثم خصص لديمتريوس رابطاً سنوياً نحرياً، وجعل له مدينة أينوس مقراً. وقد تزوج الأمير الرومي في أخريات أيامه، وتوفي في اثرنة سنة 471 هـ. أما توماس فلم يكد يسمع بوصول الفاتح، حتى فر إلى شواطئ المورة، ثم مكث مدة حتى اعتراها اليأس، وقرر اللجوء إلى البابا ليطلب معاركه سنة 460 هـ. ولم أمم يستجب البابا انتقل إلى ألبانيا ومكث بها حتى مات سنة 465 هـ.

وهكذا ضمت المورة إلى الدولة العثمانية، كما سبق أن ضمت أثينا أيضاً.

وأصبحت اليونان تابعة للدولة العثمانية، ما عدا بعض المدن على الشواطئ كانت تتبع البندقية، خاصة كورون وموزون وأرخوس وليبانت.

ولم تسلم هذه المدن من تعرض القائد العثماني عمر بن طراخان لها، بعد أن عُين حاكماً على المورة. وقد كان هذا العدوان باعتلا على اتحاد بعض القوي الصليبية مع البندقية ضد الدولة العثمانية مثل البابا والمجر وألبانيا. ولكن هذا الحلف لم يكن مؤثراً، فقد تمكّن القائد العثماني محمود باشا من الانفراد بالبندقية الذين كانوا يخافون على المدن التي تتبعهم في المورة. وأنزل به الهزيمة تلو تلو.
الفصل الثالث: فترة فتحات الدولة الإمبراطورية

الأخرى، حتى تمكن من الاستيلاء على بعض قلاعهم في المدن المذكورة.  
وبعد ذلك تمكن العثمانيون بعد صدام طويل مع البابا والجنوبيين من الاستيلاء على بعض الجزر التابعة للجنوبيين في بحيرة ايجه لتأمين سواحلهم، مثل ايمبروس (يسميها العثمانيون ايمروز) وساموترايس (يسميها العثمانيون سامارك) وتاسوس (يسميها العثمانيون طاغوش) وليمнос (يسميها العثمانيون ليسيني) وسبوس (يسميها العثمانيون مديللي).  

(3) بعض مناطق الأناضول:

وجد الفاتح بعد القسطنطينية أن بعض الإمارات والدول في الأناضول تشكل خطراً على الدولة العثمانية، فبدأ يخطط للاستيلاء عليها بعد أن خاض بعض الجولات في الصرب والموره.

(1) كانت إمبراطورية طرابزون الرومية أقوى البلاد الخارجية عن الحكم العثماني في الأناضول، وكان إمبراطورها يحب الحكومة من أن آخر ضد الدولة العثمانية. وبعد فتح القسطنطينية بثلاث سنوات أمر الفاتح خضر بك والي على أراضي بهجوم على طرابزون أيام أن كان السلطان في بلغراد. وقد تمكن القائد العثماني من التوغل في طرابزون ويلقاء الرعب في قلب إمبراطورها يوحنا. وكان من نتيجة هذه المعركة أن اعترف الإمبراطور بالحوثية العثمانية وأقر دفع الجزية، وبعداً أخذ يوحنا يبحث عن حليف له يناصره ضد الدولة العثمانية، فوجد الأمير التركمان موزن حسن (حسن

ن. تأريخ التواريخ لسعد الدين: م ، ص 420، 5313 هـ  
سعد الدين: نسخ المصدر، م ، ص 513.  

تاريخ الدولة العثمانية  

140
الفصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

الطويل) على استعداد لمناصرته بشراط أن ينتزوج ابنته كاثرين. وافق الإمبراطور على ذلك، وسعى لدفع بعض الإمارات الأخرى لمناصرته مثل سينوب والقرمان. كما حاول من ناحية أخرى أن يكسب عطف البابا بيهامه بأنه يوافق على وحدة الكنيستين الشرقية والغربية. ولم ينجز بوخا ثمرة جهوده حيث فاجأ الموت سنة 458م، وترك وراءه إبنًا قاصرأ لم يتمكن من اثارة العرش لصغر سنه، فتوجه بعدها أخوه داود(1) وكان الفاتح مشغولاً أذن ذاك بالموره، فوجد داود الفرصة مهيأة أمامه للاستعداد لمواجهة الدولة العثمانية. فأرسل رصمه إلى البابا وإلى حكام أوروبا خاصة فرنسا وجنوبه يهتم عليه الإعداد لحرب صليبية ضد العثمانيين. ولم يكن لجوئه مستمرات غير مدينة أسامة، في أمزية الصغرى على شاطئ البحر الأسود وكفه بشبه جزيرة القرم، بعد أن استولى العثمانيون على غله في أعاقب فتح القسطنطينية. وبعد أن عاد رصمه داودظن أن الأمور قد استتب وأن العيون سيمرد إليه من الغرب ومن الشرق. فحارس أوزون حسن على الامتياز عن دفع الجزية للفاتح. ولما علم السلطان بذلك قاد جيشه في البر وأمر محمود باشا بقيادة السفن في البحر الأسود، فأصدر أوزون حسن الآل قيوبلي، وأثناء سيره في الطريق استولى على أسامة، ثم فتح سينوب سنة 461م (685هـ).(2) وعند ذلك أحس أوزون حسن بالخطر يقترب منه بعد أن تحرك السلطان إلى أرضروم، فأرسل أمرًا سارة خاتون على رأس وفد الفاتح، وقد قبل السلطان رجاء سارة، واشترط عليها ألا يساعد ابنها طرابزون وألا يغير على الحدود العثمانية. ثم زحف الفاتح نحو طرابزون ومعه

(1) انظر: عمر فاروق: المراجع السابق، م، ص 195-196

Ismail Hami Danişmend: Adigeçen Eser, cilt I, s. 300-311

(2) ناج الكلازي: تاریخ ذات الأزمان، م، ص 182

تاريخ هدنة العثمانية 146
فصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

ساره، وتمكن بالجيش والأسطول من فتح المدينة والقبض على داود في أواخر سنة 1411 هـ (1688 م)، وإرساله إلى أدرنة، لكي يقضي بقية أيام حياته بها.

وفزع البابا بي الثاني لهذه الواقعة المحزنة، ونادى دول أوروبا لتحرب صليبية ضد العثمانيين تبدأ من مدينة أنكون بإيطاليا تحت قيادته، ولكن الفوضى والمنازعات الداخلية التي كانت سائدة في أوروبا لم تساعد على تحقيق هذه الحملة، فخابت آمال الصليبيين.

(ب) لم يكذ أمير القرمان إبراهيم بك يعلم بوفاة صهره مراد الثاني حتى شن الحرب على الدولة العثمانية، ظناً منه أن السلطان الجديد محمد الثاني لن يستطيع الوقوف ضد زوج عمته. ولما لم يتمكن من الوصول إلى نتيجة من عدوانه، استخف السلطان فعفا عنه. ولكن إبراهيم كان يضمر العداوة في نفسه، فاتصل بسلطان المماليك أبنال وحرص عليه قتال العثمانيين، إلا أنه لم يستجب لطلب الأمير القرمان. فثار إبراهيم على الدولة المملوكية واعتدى على بعض بلاد الحدود التابعة لهم، واستولى عليها. واعترضه الجيش المملوكي، ولم يكفت بإعادة ما أخذ، بل توغل في بلاد القرمان، ثم عقد السلاح بين الطرفين. وقبل موت إبراهيم ثار عليه أبناؤه السبعة وطردوه من قونية. وما لبث إبراهيم أن مات، فتنازع أبناؤه العرش من بعده. ودام بينهم السراط فترة طويلة واستتجد بعضهم بأوزون حسن وبعضهم الآخر بالسلطان الفاتح. (1) وحدثت بأوروبا أحداث شغفت بالفاتح بها مدة من الزمن، ولما استقرت الأمور هناك عاد إلى أسبا الصغير ليقضي على إمارة القرمان.

(1) Zuburi Danışmen: Adigeçen Esr, cilt 4, s. 315-317.
فقد تمكن السلطان من قهر القرمانيين وتولية ابنه مصطفى حكم بلادهم في سنة 1427هـ (772م). ولكن القرمانيين ما لبثوا أن ناروا على الحكم العثماني، فأرسل إليهم الفاتح الصدر الأعظم أسحق باشا في سنة 1471هـ (1476م) الذي تمكن بعد صراع طويل بين الطرفين من ضم الإمارة للحكم العثماني والقضاء على شوكة القرمانيين.

(ب) أما أوزون حسن أمير الآت قيزونلية، فقد تحالف مع البنادقة درعا للخطر العثماني الواقع عليه. وقام بالاستيلاء على مدينة خرط بـشت التابعة لإمارة ذي القدر التي تحظى بالحماية المملوكية، لكي يعبر منها إلى البحر الأسود، فيسهل عليه الاتصال بحلفائه البنادقة وطلب معونتهم العسكرية. غير أن سلطان مصر خوضق غضب من هذا المسمك، وأخذ يتعدد إلى السلطان العثماني للاتفاق معه ضد أوزون حسن القرمانكي. وما أن علم أمير الآت قيزونلية بذلك حتى أولف أمه إلى السلطان المملوكي معترأً عما قام به، فعفا عنه خوضق.

(1) أتفاق مسعود حسن بقرته، فصم على محاربة العثمانين والمالكي في أن واحد. فأوفد ابن عمه يوسف ميرزا على رأس جيش، تمكن من الاستيلاء على بعض البلاد عند حدود الدولة العثمانية. فكتب الفاتح إلى ابنه مصطفى حاكمة على بلاد القرمان يجاه على منازل جيش يوسف ميرزا. التقى الجيشان في قونية في 19 أغسطس سنة 1477هـ (14 ربيع الأول 777هـ) ودارت بينهما معركة حامية، انتهت بالانتصار الساحق للامير الصغير مصطفى، وأسر القائد الآت قيزونلي.

(2) حواسد الدور لابن تعرى برد، ص. 241.
(3) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة 420.
أما الجيش الثاني الذي أرسله أوزون حسن بقيادة بعض أبنائه لقتال المماليك، فقد استولى على بعض مناطق الحدود المملوكة شمال الشام. ولما جاءت أوزون حسن أخبار انسحاب جيشه على يد الأمير مصطفى ابن الفاتح، أمر بسحب جيشه من المناطق التابعة للمماليك.

وفي هذه الأثناء كان السلطان العثماني قدر فرغ من مشاغله في الجبهة الأوروبية إلى حد ما، فأخذ يستعد في مارس 1473م (شوال 878هـ) للتحرك على الأق قيبلية. سار السلطان بالجيش شرقًا، ثم توقف عند مدينة سيواس، وأرسل فرقة من جيشه جعل على رأسها القادّ "خالص مراد باشا" لاستطلاع الموقف. وكان الأمير التركماني متحصنًا في إقليم أرزنجان، ينتظّر الجيش العثماني، فألحق معه خالص مراد في معركة حامية، انتهت بغرق القادّ العثماني عند فراره في نهر الفرات وأمر بعض كبار رجاله.

ومن أن علم الفاتح بالنتيجة السيناء، حتى تقدم بنفسه لمواجهة أوزون حسن، وجعل في الميمنة ابنه بايزيد وفي الميسرة ابنه مصطفى واحتفظ هو بالقلب. كما أرسل أوزون حسن ابنه زينل في الميمنة وابنه أوغورلي محمد في الميسرة، والتحم الجمعان في معركة فاصلة في أونطيلي، لقي فيها زينل حتفه، وهرب أخوه الثاني، وحازت قري جيش أوزون حسن فولى هارباً، يتبعه الفاتح بالانتقام. ولكن الظروف لم تساعد الأمير التركماني، حيث شار عليه ابنه أوغورلي محمد سنة 1475م (880هـ) ثم ابن أخيه من بعده، وتوافى أوزون حسن بعد ذلك. (1) فتوقف بعده ابنه خليل الذي حالف العثمانيين وعقد معهم معاهدة للصلح.

---

(1) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eser, cilt2, s. 87-110.

(2) ابن إيس: بذال الزكور، ص 282.
الفصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

(4) ألبانيا والأقلاع والبغدان:

أ) كان جورج كاستروتا (إسكندر بك) أحد الحكام المناوئين للحكم العثماني. وقد رأى السلطان محمد الثاني بعد أن فتح القسطنطينية أن يقضي على هذا الحاكم الذي كان يتحالف مع الصليبيين من أن لا يحق ضد الدولة العثمانية. وقد وقع إسكندر بك في قوته، فأخذ يتصدى للعثمانيين ببراعة شديدة، كنما حذرتهم النفس بالتعرض لألبانيا. قام إسكندر بك بمحاولة مدنية بيورات الألبانية في يوليو سنة 1456 لتخليصها من الحكم العثماني. ولكن العثمانيين تصدوا لهذه المحاولة وأوقفوا بهزيمة منكرة على يد القائد عيسى بن أورنوس، وبمساعدة أكبر قواد إسكندر بك الذي فر إلى العثمانيين قبل المعركة ويدعى مويس غلام ديبارة. وشنتوا القوات الألبانية وتقاتلوا خيرة رجال إسكندر بك وكثيراً من جنود نابولي الذين كانوا يساعدونه.

وفي مايو 1456 قاد مويس جيشاً عثمانياً، بغية القضاء على إسكندر بك، ولكنه فشل في مهمته، ولما قرر بعدها العودة إلى بلاده، طلب العفو من إسكندر بك، فقبل إسكندر تراجعه وغضبه.

وجد ملك نابولي أن الألبان لا يقدرون على مواجهة العثمانيين، فاتبع البابا بأن ينادي أوروبا لكي تغتنه، فأرسلت إليه فرنسا وألمانيا والصرب بعض القوات لمساعدته.

لم تكى تهدأ نفس إسكندر بك القائد العنيف، حتى فر ابن أخته حمزة بك والتما إلى العثمانيين، ثم قام بتحريضهم على قتال خاله. تحرك الجيش العثماني تحت قيادة إسحاق بك وكان يرافه حمزة الذي يعرف بلاده جيداً. وقد أشار حمزة على اسحق بالتوجه إلى العاصمة كروبا مباشرة. ولكن إسكندر بك خشي...
ان سقط العاصمة في يد العثمانيين، فتحصّن عند بحيرة ألبولينا في انتظار الجيش العثماني. ودارت بين الفريقين معركة في سبتمبر 1457م، أومها فيها أسكندر العثمانيين بأنه فزَّم وُفِر أمامهم فتعقبوه. فقُذِّب في الجبال التي يَجِب الحرب فيها، وأنزل بهم هزيمة مدكّرة، وأسر ابن أبيه، ثم أرسله إلى نابولي.
وقد لقب البابا كاليكست الثالث أسكندر بك بـ "القائد العام للمقام المقدّس" بسبب انتصاره في معركة ألبولينا.

وبعد موت ألفونسوملك نابوليا 1458م، لم يعد هناك حاكم ولا نصير لأسكندر بك. وقد طلب البابا بابي التاني منه مساعدة فرديناند بن ألفونسو على تولى العرش. كما أن أحداث الموره والصراع مع البندقية والقناصل المستمرة في آسيا الصغيرة كانت تشغِّب بالفائز وتمشى راحته. فقرر عقد الصلح مع ألبانيا، حيث لم تعد هناك فائدة من استمرار المعارك مع أسكندر بك لوعودة بلاله الجبلية. وهكذا انتهت المفاوضات بعقد الصلح سنة 1461م (1468هـ)، لكي يتفرغ كل منهما لمشاغله.(1)

لم يدم الصلح أكثر من ثلاث سنوات، حتى شرع أسكندر بك بعد عودته من أيطاليا في نقضه، بناء على إلحاح من البابا بابي الثاني. وقد قام البندقية بالاتصال بالألمان للتحالف معهم ضد العثمانيين الذين استولوا على مدينة أرجوس التابعة لهم في الموره، كما أن المجر اتفقت مع أسكندر بك على محاربة العثمانيين.

(1) Dr. Isma'il Hakkı Adigeçen Eser, cilt 2, s.65-67.
تحرك الجيش العثماني تحت قيادة "بالابنان باشا" الألباني (الذي أطلق عليه حسنًا في فتح القسطنطينية) واستمر بالجيش الألباني. وعلى الرغم من أنه لم يتمكن من إحرار النصر على سكيندر بك، إلا أنه تمكن من أسر ثمانية من كبار قواده. ثم عاود "بالابنان" الكرة على الألبان مرة أخرى وضيق عليهم الخناق، إلا أن بعض قواد سكيندر بك تمكنوا من إنقاذه من أسر محقق. وفي نفس العام، أي في 9 أغسطس 1464م، عاد "بالابنان" للهجوم على سكيندر بك، إلا أن الزعيم الألباني تمكن من إزال الهزيمة به. وعلى الرغم من ذلك عاد "بالابنان" لدخول ألبانيا، كما دخل عقوق الألباني على رأس جيش عثماني آخر. ولكن سكيندر بك تمكن من إزال الهزيمة بهما كل على حدة. وللذل أنه قرر الفتح التحرك على ألبانيا بنفسه.

دخل الفاتح ألبانيا في يونيو 1465م (ذي القعدة 870هـ)، وتمكن بسرعة من الاستيلاء على بعض القلاع، ثم تحرك حتى وصل إلى كرويا، وضرب حولها نطاقاً من الحصار. ثم وجد أن الحصار مبطول، فترك مكانه لبالابنان، وعاد هو إلى استانبول. وجد سكيندر بك أنه لا قيل له بالعثمانيين، فترك الدفاع عن كرويا لأحد القواقد الإيطاليين، ثم خرج منها إلى روما لطلب العون من البابا. ولكن البابا بول الثاني، كان يعاني من ضائقة مالية، فأعطاه مالًا قليلًا ودعا له. توجه سكيندر بعد ذلك إلى نابولي، فساعدته بالمال. عاد سكيندر بك في أبريل 1467م، فوجد بالابان لا زال يحاصر كرويا، فانقض عليه فجأة، وهزمه وقتله، فتفرق الجيش العثماني.

---

(1) أنظر: صولاق زادة تاريخي، ص 96-97.
علم الفاتح بهذه النتيجة السببية، فقرر مواجهة أسكدار بك بنفسه. تحرك السلطان العثماني في ربوع سنة 744 هـ، ودخل ألبانيا بالقرب من قلعة ألبسا، وأمر الجنود بتخريب بعض القلاع، والاستيلاء على بعضها الآخر، فانضمت أحوال أسكدار. وقرر الدفاع عن كرويا بكل ما أتى من قوة، ولكن المدينة عاجلته في 6 يناير 745 هـ (جمادي الثاني 872 هـ)، وجاء بعده ابنه جان، وكان صغيراً لا يقدر على الحكم بمفرده. فتحالفت البندية ونابولي على الدفوع في ألبانيا. وفي هذه الأثناء، عاد الفاتح إلى استانبول لكترة مشاغله، بعد أن صمم على إعادة الكرة على ألبانيا عندما تسحب الظروف.

عندما قرر الفاتح إرسال الصدر الأعظم كديك أحمد باشا 748 هـ (788 هـ) لفتح إشقوقره، قدم الصدر الأعظم الأعدار وأبدى عدم رغبته في الذهاب إلى ألبانيا نظراً لما سمعه من أحداث المعارك السابقة، فعزله الفاتح وحبسه في قلعة الرومي، وقرر الذهاب بنفسه لحسم موضوع ألبانيا.

دخل الفاتح ألبانيا، وأرسل أحمد بن أورونوس وعمر بن طبرخان على رأس القوات لفتح كرويا التي آلت إلى البندية بعد موت أسكدار. وقد ترك البندية لأمير البحر أوريدانو مهمة الدفاع عن المدينة، فأرسل إليها قوة، تمكن العثمانيون من قهرها وفتح المدينة في أواسط يونيو 748 هـ (788 هـ). وبعد ذلك أمر الفاتح أحمد بن أورونوس بفتح إشقوقره، ثم عاد هو إلى استانبول. وبعد عودته بستة أشهر تمكن أحمد من فتح المدينة في 749 هـ.

وهكذا تمكن العثمانيون من فتح معظم ألبانيا (3).

(1) ناج التأريخ: م 10 ص 510.
(2) ناج التأريخ: م 10 ص 565.
(3) نظر خريطة "الأيروحة" ضمن آسم الخرائط واللوحات، رقم (12).
(ب) وجه السلطان العثماني نظره بعد ألبانيا إلى الإمارات الرومانية:
الأنجليز والبزقان.

ومن الجدير بالذكر أن السلطان سليم الأول فتح الأفلاق عام 1392م (789هـ). لكن حاكمها مرحا الأول انضم إلى الصليبيين في حربيهم ضد العثمانيين في معركة نيكوبوليس 1396م (798هـ). وبعد موقعة أنقرة 1402م (804هـ) أعلن أمراء الأفلاق استقلالهم عن الدولة العثمانية. وقد تمكن محمد الأول من إعادة الأفلاق إلى الحكم العثماني 1416م (819هـ).

وبعد عامين توفى مرحا الأول، وقد تمكن ابنه دراكولا أشهر حاكم قاس وسفاك للدماء في التاريخ من تولي العرش بعده.

قام دراكولا بعقد معاهدة صلح مع السلطان محمد الفاتح 1460م (864هـ)، لكي يضمن حماية الدولة العثمانية له نظير دفع الجزية. ولكنه لم يحترم المعاهدة، وقام بالتحالف مع ملك المجر ماتياس كورفان ضد الدولة العثمانية. فقرر السلطان فتح الأفلاق وإرجاعها للحكم العثماني. وقد تحقق للعثمانيين الاستيلاء على بورخايت 1462م (866هـ). ثم استعاد دراكولا الحكم مرة أخرى، إلى أن غافله أحد عبيده وقتلته سنة 1479م، فأعاد العثمانيون سيطرتهم على الأفلاق مرة أخرى.

(1) يقول عنهما البربريون: ولازما، ومونافيا.
(2) يسميه العثمانيون بترش.
(3) تاريخ له الفتح، ص 109.
أما بغداد فقد تولى حكمها في الفترة من 1456-1504 استيفان، وكان عنيداً ورفض دفع الجزية المفروضة عليه من قبل الدولة العثمانية، فأرسل إليه الفاتح جيشاً في 1475 م (880 هـ) بقيادة سليمان باشا الخادم، وقد تمكن استيفان من إلحاق هزيمة ساحقة بالجيش العثماني، رفعت شهانه في العالم المسيحي. ولهذا قاد الفاتح الجيش بنفسه في 1476 م (881 هـ) والتقى مع الأمير البغدادي في الأحراش، وتمكن من إلحاق الهزيمة به بشق الأنفس (1) وتقدم الجيش العثماني بعد ذلك في الأراضي البغدادية، وأخذ يستولي على بعض المناطق، إلا أن ظهور وفاء الطاعون بين الانكشارية جعل السلطان يسحب جنوده على الفور من البغداد، بعد أن قضى بها شهرين تقريباً (2).

5) الحرب مع البندقية:

بعد أن فتح العثمانيون القسطنطينية، وفرقا في حروبهم في ألبانيا والبوسنة والموره والجزر، وتمكنوا من الاستيلاء على إمبراطورية طرابزون وإمارة جاندار ودولة القرمان وإمارة عثمانية، فجر عليهم هذا كله حقد بعض الدول في الشرق وفي الغرب، ففي الشرق كان الآت فيونليا وفي الغرب كانت صربيا البندقية وملك نابوليو ولكي المجر وعلى رأسهم جميعاً البابا. كما كان هناك أسكندر بك وفرسان رودس أيضاً.

وبعد أن استولى الفاتح على شبه جزيرة الموره في 1465 م (886 هـ)، شعرت البندقية بالخطر على مراكزها في شواطئ الموره. فأخذت تعداد العدة

---

(1) Salıkatı Zad, تاريخ، 120.
(2) ناجة التواريخ، 112.

(1) Dr. Ismail Hakkı Adigeçen Eser, cilt2, s.80.
الفصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

للصدام مع العثمانيين. أعدت البندقية أسطولاً بقيادة لويس نوريدانو وجيشه بريحاً بقيادة برتولدو ديجست. هاجم الجيش البري بعض قلاع المصورة بقيادة برتولدو ديجست و868 هـ واستولى عليها من يد العثمانيين، كما هاجم الأسطول بعض الشواطئ بالموره واستولى عليها أيضاً. ثم تقدم الجيش البندقي لاستيلاء على كورنثأ أقوى مدينة في يد العثمانيين، لكنه لم يوفق، وقُتل قائده فعاد خاسراً.

وتمكن العثمانيون سنة 1464 هـ بقيادة محمود باشا من استرجاع بعض المدن والقلاع التي كان البندقية قد استولوا عليها مثل أرجوس وبتراس واسبانسة.

وفي 1470 هـ، هاجم العثمانيون جزيرة نيجربيون التابعة للبندقية، واستولوا عليها. فطلب البندقية التحالف مع أوزون حسن ضد الدولة العثمانية، ولكن الحلف كان مفككاً.

وتتابعت بعد ذلك الغارات التخريبية البندقية على شواطئ آسيا الصغرى 1472 هـ، خاصة على أنطاليا، ولكن دون جدوى. وفي 1479 هـ، هاجم البحرية رسولها جيوفاني داريو لتوقيع الصلح مع الدولة العثمانية. وقد وافقت البندقية بموجب المعاهدة على التخلي عن أرجوس ونيجربيون ولمنوس ومعظم ألبانيا، ما عدا بعض الشواطئ، ودفع جزية سنوية.

(1) القسم:

كان الجنوبيون منذ أكثر من قرنين قد أقاموا لأنفسهم مستعمرات في شواطئ القرم وفي بعض قلاعها. وكانت كله أهم قلاعهم في الشرق.

(1) Dr. Ismail Hakki. Adigece Eser, cilt 2, s. 111-125.
الفصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية

توفي خان القرم حاجي گراي ۱۴۶۷م (۸۷۰هـ)، فتنازع ابناؤه على العرش. وقد نجح منكِلی کراي في تولي العرش بمساعدة جنوبی كفیه وكافأ الخان الجديد الجنوبيين على مساعدتهم له، بأن جدد معهم المعاهدات التي تتيح لهم الاستمرار في السيطرة على كفه.

وفي ۱۴۶۸م (۸۷۱هـ) توفي الحاكم النتری ماماک الذي كان ينظر في أحوال النتر المقيمين في كفه وما حولها، وتولى بعده أخوه أمنلك. ولم يرض كبار رجال النتر على تدخل خان القرم في تعيين وکأ آخر على كفه، ودعموا السلطان محمد الفاتح للاستيلاء على المستعمرات الجنوبي بالقرم. فأمر السلطان كدلک أحمد باشا بقيادة الأسطول إلى شبه جزيرة القرم، وصل القبطان العثماني إلى كفه ب۴۶۰م (۸۸۰هـ)، تمكّن من الاستيلاء عليها في ثلاثة أيام، ولم يجد العثمانيون صعوبة كبيرة في فتح بقية بلاد القرم، وبعد الفتح عفا السلطان عن منكِلی کراي، وعينه خان القرم من قبله.

وبعد فتح القرم، وسيطرة الأسطول العثماني على البحر الأسود، أصبح هذا البحر بحيرة عثمانية دون منازع:۱)

(۱) حصار رودس:

تشكل جزيرة رودس دون شك أهمية بالغة بالنسبة للعثمانيين، حيث تقع في بحر أذربيجان بالقرب من الشواطئ العثمانية. كما كانت هذه الجزر موثقًا لأقرانها أوروبا. وبعد أن انتهى الفاتح من دخول القسطنطينية، أرسل إلى رئيس

دریس هکیم: Adigeçen Eser, cilt2, s. ۱۲۹-۱۳۲.

تاريخ الدولة العثمانية
الفصل الثالث: فترة التحول من الدولة إلى الإمبرطورية

فرسان القديس يوجى برودس وهو جان دى لاستيك، رسله لطلب الجزية،
فرفاض رئيس الفرسان هذا الطلب في كبرياء.

وفي 1467 طل طير دوبسون رئيسة الفرسان. وكان فارساً تشييضاً
استطاع أن يتحالف مع كثير من الدول المسيحية ضد الدولة العثمانية، كما لم
يتوان عن السعي نحو الاستعداد المستمر للقتال مع العثمانيين.

أرسل السلطان قائده مسيح باشا (من أصل رومي) على رأس أساطول
كبيرة إلى رودس 1480 (885هـ). ورغم الجهود الهائلة التي بذلت لم يتمكن
مسيح باشا من فتح الجزيرة. ومنى العثمانيون بخسائر فادحة، وارتدوا عنها.

الحرب مع إيطاليا:

زالت المعاهدة التي وقعتها البندقية مع الدولة العثمانية العداء بين البندقية
وبقية دول إيطاليا، خاصة جنوب ونابولي، ولم يخف البابا سيكست الرابع على غضبه
وعيشه من المعاهدة أيضاً.

وجد الفتح الفرصة مهيبة أمامه لفتح بعض المدن والقلاع في إيطاليا، بعد
أن قدمت نابولي بعض سفينها لمساعدة رودس. وقد كانت العدوى بين دول
إيطاليا عملاً مشجعاً على الإقدام على هذه الخطوة. قام الأسطول العثماني
بالاستيلاء على جزر زنترا وكورفو وسانتامورا وكفالونيا في 1480
(885هـ). ثم تقدم كديك أحمد باشا بعد ذلك واستولى على مدينة أوترانتو.

(1) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Escri, cilt 2, s. 137-140.
(2) انظر خريطة الدولة العثمانية في عهد السلطان محمد الفاتح، ضمن قسم الخرائط واللوحات.
رقم(12).
ومع ذلك، فقد توفي السلطان العظيم إبراهيم باشا في خلال هذه الفترة، وخلفه ابنه محمد الثاني. وذلك بسبب التوترات الدائمة بين العثمانيين والمماليك، مما ساهم في استمرار الصراع.

وقد حاول السلطان محمد الثاني أن يمدد تأديب بعض حكام شرق الأناضول الذين يقطعون طريق التجارة بين الأميرات ويستفيدون من ذلك. فقد أرسل رسالة شكر وتقدير على ما قام به خدمة للمسلمين.

وفي 2 صفر 856 هـ، كتب السلطان محمد الثاني رده على هذه الرسالة وأرسلها إلى العاشرة العثمانية في ذلك الوقت، وهي أدرنه إلى القاهرة. والرسالة مليئة بالمدح والثناء والدعاء لسلطان المماليك. وفيها يقدم السلطان العثماني نفسه على أنه بمنزلة الأعلى بالنسبة لامجام، حيث يقول: "ومن ثم تحية المحبة الجارية على ألسن الأحبة، أن نسبة الجناج السلطاني الأعظمي هذا المحب نسبة الأب العظيم وإنه شنت قلته نسبة مولى الموالي إلى مولى هو أطوع الموالي".

---

(1) Dr. Ismail Hakki: Adigeçen Eser, cilt 2, s. 133-147.
(3) أحمد فريدون: نفسه المرجع، ورقة 4376-4388 - 4376-4388.
الفصل الثالث: فترة التحول من الدولة الإمبراطورية

وبعد أن تم فتح القسطنطينية، احتفلت القاهرة بهذا النصر العظيم فزينة الأسواق والشوارع وأوقفت الشعوب ودفت طبول النصر. وأرسل السلطان العثماني رسائل الفتح الإسلامية لبعض الحكام المسلمين، بيشيرهم بالنصر. فأرسل لإبن سلطان المماليك قريش 1451-1461م (657-868هـ) رسالة يشرح له فيها ما حدث. ويصف ابنه في رسالة بأنه بمنزلة الأب، مما يدل على مدى التبجيل والاحترام الذي خص به ابن عثمان سلطان المماليك. يقول السلطان العثماني عن فتح القسطنطينية: "جهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجورًا وكمرا التي بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفرها فقرأ.

فقدتها حصف على الخذ الأخر.

وهي محصنة صعب المرام شامخة الأرکان راسخة البنية مملوءة من المشركون الشجعان خذلهم الله أيهما كاتب وسوري مستكرون على أهل الإيمان. متناصرون بالجزائر الغربية مثل رودس وقلطان ونداك وجنويز وغيرهم من أهل الشرك والطيبان وحسن مصدقة متبعدة متبعد من النظام وما ظفرنا بأحسن أفلاطون هؤلاء السلاطين الأسرائي المفخاخ مع أنهم جاهدوا حق الجهاد ولم ينالوا بها نيلًا. ونزلنا عليها في السادس والعشرين من ربيع الأول من شهر مهربة سبع وخمسين وثمانية. ودار بيننا وبينهم القتال أربعة وخمسين يومًا وليلة. فمتى طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من شهر جمادى الأول هاجمنا مثل النجوم رجوعًا لجنود الشيطان. قد مهربت الله تعالى

(1) كان ابنه في الثمانية والسبعين من عمره في ذلك الوقت، وكان محمد الثاني في الثمانية والعشرين.
(2) هكذا تكتب في الوثيقة.

تاريخ الدولة العثمانية
160
بالفتح... وأول من قتل وقطع رأسه تكفورهم اللعين الكئود فأملكوا كقوم عداد وشمود... وصبرنا معبد عبادة الأصنام مساجد أهل الإسلام وتشرفت الخطة بشرف السكة والخطبة.

وقد أرسل الفاتح مع رسوله "هدية بسيرة من الأسمراء والغلمان والأنهشة وغيرها" ليندل على عظمة فتحه وانتصاره على "الكافرون". (1)

وفي 30 ذي القعدة سنة 857هـ أرسل إبنال ردة على رسالة الفاتح مع قاصده برسيبين الأشرفي: هذا السلطان المملوكي السلطان العثماني في زمسالته بالفتح، الذي أحرمه الله لأيام معده وهذا النصر الذي من الله تعالى به على المسلمين. وأرسل إليه هدية تؤكيد أسباب الوداد والمحبة ويوجيه عري الاتحاد والصحبة كما هو تأد السلفين الأقليمين من الحكم والسلاطين. (2)

وفي سنة 1456م وصلت إلى القاهرة سفارة عثمانية، برساء تنبي عين أنصار محمد الثاني على الصربينين، في وقعة نوفنوردا وغيرها من الوضع، النامية ببلاد يوغوسلافيا، والحالية. أرسل إبنال ردة مشابهًا، وقبل أن يتحرك الأمير المملوكي قاني بك، وهو الذي كلفه إبنال أن يحمل هذا الرس إلى السلطان العثماني، شاع بالفترة نبا وفاة محمد الثاني، ثم ظهر كتب هذا النبأ. (3) فأمر إبنال بدق البشائر السلطانية بالقلمة ثلاثة أيام، ثم سافر قاني بك إلى القسطنطينية، ورجع سنة 1457م محملًا بالهدايا الكثيرة. (4)

(1) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة 1328، ص 539.
(2) أحمد فريدون: نفس المرجع، ورقة 1329، ص 643.
(3) جرح السلطان محمد الفاتح في فضاء أثناء سواحل فتح بلغراد، فضا نبا وفاته.
(4) محمد مصطفى زيداء: المرجع السابق، ص 532.
لكن العلاقات بين الدولتين بدأت تسوء، منذ أن تولى خشقدم حكم المماليك 1411-1424م (867-882هـ)، نظراً لتضارب مصالح الدولتين في مناطق شرق الأناضول وجنوبها. فقد بدأ العثمانيون يلون اهتمامهم إلى الأناضول ويتخلون في شئون بعض الإمارات التي كانت مشمولة بحماية المماليك كإمارتي دولقادر(1) وقرمان(2) لكن الأجل لم يمهل خشقدم للرد على هذا التدخل.

ظلت العلاقات بين قايتباي 1461-1494م (872-892هـ) ومحمد الثاني متوترة، نظراً للمناقشة التي اشتدت بينهما على التدخل في شئون الإمارات المذكورتين. وكان الموقف بنذر بالخطر بين الطرفين.

قانون وراثة العرش:
لم يكن لوراثة عرش السلطنة العثمانية قانون ثابت يُتبع عندما يموت السلطان الحاكم أو يعزل أو يعزل. وهذا ما أدى إلى ت싸ير الأمور على العرش منذ نشأة الدولة العثمانية، باستثناء الأمير علاء الدين وأخيه السلطان أورخان. وقد قُتل كثير من الأمراء نتيجة لإعلانهم العصيان، أو للشك في احتمال قيامهم بتمرد، أو محاولة الاستقلال ببعض مناطق البلاد؛ أو سُميت عيونهم لكي يجدوا عن الحركة. وقد أعلن بعضهم العصيان على أبيه.

(1) قايتباي.
(2) فرقتمان أو فرمان أو وراء مان.

تاريخ الدولة العثمانية 164
وبعد أن أعطي محمد الثاني العرش، أصدر قانونه المعروف بـ (قانونه آل عثمان) وأجاز فيه للسلطان قتل إخوته من الأمراء حفاظًا على نظام السلطنة. ونص المادة الخاصة بوراثة العرش والتي وردت تحت عنوان "في بيان تنظيم القانون الخاص بنشأة السلطنة"، وهو: "فلكن السلطان في متناول جميع أبنائه، وقد أجاز معظم العلماء للسلطان منهم قتل جميع إخوته الباقين حرصةً على نظام العالم. ولهذا فعليهموا بهذا القانون". (1)

وقد ظل هذا القانون معمولاً به إلى عهد محمد الرابع 1623-1640م (1026-1032هـ)، ثم غَيِر هذا القانون وأصبح العرش لأكبر أفراد الأسرة الحاكمة سنأناً.

أدى عدم وجود نظام ثابت لوراثة العرش إلى تصارع الإخوة طمعاً في الحكم أو حرصاً على الحياة. فبمجرد أن يعتلي أحدهم العرش بقيم المذاهب لإخوته خوفاً من منافستهم أو تمردهم أو تآمرهم، فقد وُلد هذا الرعب صراعاً مستمرًا على الفوز بمستعمرة السلطنة، فمن لم يفز به فتصرمه القتل، وله لم يكن لديه أي طموح في تولي العرش. وأكبر صراع بين الإخوة من الأمراء شهد التاريخ العثماني، واستمر أحد عشر عامًا-من 1413-1424م (818-820هـ)، حدد بين أبناء بايزيد الصادقة، سليمان ومحمد ومصطفى. ومصطفى بعد معركة جواموق أوروه قريب أنقرة التي هزم فيها تيمورلنك بايزيد الأول في 20 يوليو 1402م (19 ذي الحجة 804هـ) وأسره.

(1) قانونه آل عثمان، ص 360 - 362، نص المادة بالتركية، وهو كيميزة أولاد مسند به ورسالة كتابي نظم وعالم اسمن به، أي من مصادر أكثر، علماً دخليه توزيع اهتمامه أأنكة عمل أوله للـ Zuhuri Danişmend: Adigeçen Eser cilt 4، s. 211-222.

النظام:
تاريخ الدولة العثمانية
ولقب الفاتح قانونه، سيطر الفزع على نفوس الأمراء، فتمكن بعضهم من الهرب إلى ممالك مجاورة خوفاً على حياتهم، أو نتيجة لإغراق حكام هذه الممالك لهم بالعمل على مساعدتهم في تولى العرش، أو بسبب خلافات دامية على الحكم. وقد أدى إيواء المماليك للأمراء العثمانيين الفارين من الإعدام والسجن أو خوفاً من العقاب، إلى تأزمه العلاقات بين العثمانيين والمماليك، لأن سلاطين العثمانيين كانوا يخافون على عروشهم من منافسة هؤلاء الفارين.

وبموت أبي الفتح تنتهي المرحلة التي تحولت فيها الدولة العثمانية إلى إمبراطورية متراوية الأطراف، وتبدأ مرحلة جديدة تعتبر بحول العصر الذهبي لإمبراطورية آل عثمان.

والشيء الذي يسترعى الانتباه أكثر بالنسبة للعثمانيين، هو أنهم كانوا قليل العدد، وبنوا إمبراطورية واسعة في وقت قصير. وقبل أن ينتهي قرن ونصف القرن من عمر دولتهم، صارت من أقوى القوى في العالم.

انفصل الرابع

فترة العصر الذهبي

١٤٧٠ - ١٥٩٠ م (٨٨٦ - ٩٩٨ ه)
تدخل الدولة العثمانية في مرحلة العصر الذهبي فيما بعد الإزدهار والتقدم، وتبليغ أقصى قوتها. ففي هذه المرحلة تنتجه الفتوحات العثمانية نحو الشرق والجنوب أيضًا، وتتسع فيما توسعت تهاطلًا، بالإضافة إلى فتوحاتها العظيمة في الغرب. ثم تبلغ قوتها أقصى مدى بلغته، حيث تولت الانتصارات الكبيرة على القوى الموجودة في المناطق المذكورة، وأصبحت لسياستها في تلك الأرجاء، كما أصبحت لها السيطرة الكاملة على البحر الأبيض المتوسط.

الصراع بين بايزيد الثاني والأمير جهم على العرش:

أنجب السلطان محمد الفاتح ولدين، أحدهما اعتلى العرش من بعده و هو بايزيد الثاني (1481-1512م = 918-962هـ)، والآخر وهو الأمير جهم نازع أخاه على العرش، لأنه كان يعلم أن القانون الذي سنه أبو سبطان لأول مرة حفاظًا على استقرار السلطنة ومنعًا للقتلة. وقبل أن يموت الفاتح كانت تراود الأمير أحلام العرش، فلما تمكن أخوه الأكبر بايزيد من الفوز بعرش السلطنة، جمع "جم" جيشًا في قونية وتحرك على رأسه قاصداً بروصه، وقد تمكن إياك باشا بمعاونة ألفين من الجند العثمانيين من صد هجوم الأمير في البداية، لكن الأمير جهم استطاع أن يستولي على بروصه في مايو 1481م، وقرر الخطوة له فيها كسلطان وضربت السكة باسمه، وأعلن نفسه حاكماً على المناطق المجاورة أيضاً. لم يبدأ لجم بال⁻ أرسل إلى أخيه وفقداً مكوناً من سلجوق خاتون ابنة السلطان محمد جلبى وموالاه إياك وأحمد جلبى بن شكر الله

(1) كتاب اسم جم في الكتب العربية المعاصرة للقرن "جنجمه".

(2) محمد فريد، المراجع السابق، ص 180.
لكي يعرضوا عليه اقتراحًا بتقسيم السلطنة، على أن يكون جمع حاكمًا على الأناضول وبايزيد سلطانًا على الروملي، لكنه لم يستجب لهذا الاقتراح.

استمر حكم الأمير في بروصه ثمانية عشر يومًا، ثم تركها هاربًا إلى ينى شهرلهجوم جيوش السلطان المكلف عليه، توجه جم إلى قوته، ولم يحسم باقتراب الجيوش نحو ترکها في 28 يونيو 1481م، واتجه جنوبًا حيث سلطنة النهريد. عبر جبال طوروس ووصل إلى طررسوس ثم أذنه، وتوجه بعد ذلك إلى سوريا. طلب جم من أمير حلب أن يبلغ قايتباي يرغبته في اللجوء إليه ومعه ثلاثمائة محارب من أتباعه، فوافق سلطان المماليك على استقباله في القاهرة متنوّع وصل إليها.

عندما وصل الأمير إلى حلب في 19 يوليو من نفس العام، علم بايزيد الثاني بعبوره إلى الأراضي المملوكة، فأرسل إلى علاء الدين ذولقادر أمراً بالقبض على الأمير إن صادفه فيما بعد.

وصل جم إلى مصر في 25 سبتمبر 1481م، فاستقبله قايتباي استقبالاً حافلاً، وعمل معاملة أبنائه، وبعد مدة من الزمن أرسل الأمير خطاباً إلى أخيه يطلب منه بعض المناطق في الأراضي العثمانية، لكنه رفض، واكتفى بتعيين رابط سنوي له قدره مائة ألف ألفه.

ترك جم مصر في 10 ديسمبر من نفس العام وذهب إلى الحجاز مصطحبًا معه أمه وزوجته لأداء فرضية الحج. ولما عاد إلى مصر في 12 مارس 1482م، عاودته أحلام السلطنة مرة أخرى. وفي تلك الأثناء، أرسل إليه

أحمد قريكد: المرجع السابق، ورقة 1491.

تاريخ الدولة العثمانية 168
خلفاؤه من أمراء الأناضول... أمثال قاسم بك القراماني ومحمد بك حاكم أذربيجان وكديك أحمد باشا حاكم أرمينيا... يستمعونه ويعدونه المساعدة.

طلب جم المساعدة من قايتباي لكي يتمكن من العودة إلى دياره. عقد السلطان المملوكي مجلساً حضراه كل أمرائه، وطرح عليهم الموضوع، فوافقوا بحجة أنه إذا حدثت اضطرابات في الأناضول فستكون في مصلحة المماليك، وعارض الأمير أزبك وحده رأيه.

وبعد أن حصل جم على مساعدة قايتباي، ترك في مصر أمه وزوجته في 27 مارس سنة 1487، ووصل إلى حلب في 6 مايو، وفي يوم الأحد التاسع عشر من نفس الشهر دخل الأراضي العثمانية، فتحت حوله زعام الأناضول الذين ودعوه بالمساعدة. وفي 6 يونية تم له حصار قونية، لكنه لم يستطع الاستيلاء عليها لقوة حصونها ودفاعها؛ فتوغل في الأناضول حتى وصل إلى ألترا، أحس جم بالخطر يحيط به من كل جانب فهرب، وقرر اللجوء إلى إيران لكنه عدل عن فكرته في النهاية، وأرسل لأخيه رسولاً يطلب منه أن يترك له حكم بعض الأجزاء؛ لكنه رفض، وطلب منه أن يعيش في القدس مقابل راتب سنوي، فلم يوافق جم على ذلك.

اقترح قاسم بك على الأمير أن يذهب إلى الرومي، حيث يستطيع أن يطلب مساعدة ملك المجرب، ولم يوافقه رغبته في اللجوء إلى العرب أو العجم.
استقر رأي جم أخيراً على أن يلجأ إلى جزيرة رودس لكي يساعده رئيس فرسان القديس يوحنا على دخول الروملي ومعارضة الثورة ضد أخيه.1

d'Aubusson دوبوسون Hospitalllers

لجأ جم إلى رئيس الاستبارة فتوجس بايزيد الثاني عنيفة مما قد يحدث في المستقبل، فقد العزم على التفاوض مع دوبوسون لكي يحتفظ بالأمير عنده ويوافق تحركاته، نظير دفع خمس وأربعين قطعة ذهبية بندقية سنوياً، وافق رئيس الاستبارة على ذلك، ثم استقر الرأي على ترحيله إلى فرنسا فقضى فيها سبعة أعوام انتقل بعدها إلى الفاتيكان ثم إلى إيطاليا في صحبة ملك فرنسا شارل الثامن.

وفي 25 فبراير 1495 م (29 جمادي الأولى 900 هـ) توفي جم في نابولي، فاستراح بايزيد الثاني من شره.

حروب بايزيد الثاني في أوروبا:

كان بايزيد الثاني ميلاً للسلام أكثر منه للحرب، محبًا للعلوم الأدبية مشغولاً بها. ولهذا سماه بعض مؤرخي الترك "بايزيد الصوفي". لكن دعته سياسة الدولة إلى ترك أشغاله السلمية المحضة والاشتغال بالحرب،1 وكانت أول حروبه داخلياً ضد أخيه جم كما رأينا.2

---

1 Cavid Baysoz: Cem Sultan, s. 15-31
2 Istanbul 1946

(1) أي محلة تمبكة Consolidation of the Empire

(2) في طلب بايزيد الثاني Shaw الإمبراطورية.

(3) محمد فريدون: المراجع السابق، ص. 268.
تراجمه جيوش محمد الفاتح بعد أن انتصروا على البغدانين ـ 481م، نظراً لمرض الطاعون الذي تفشي في الجيش. وقد أراد بايزيد الثاني أن يفتح البغدان، لكي يضم للأسطول العثماني مجالاً أوسع على شواطئ البحر الأسود، الذي أصبح للعثمانيين ثلاثة أرباع شواطئه، على حد قول المؤرخ التركي إسماعيل حقي. (1)

بدأ بايزيد الثاني بالاستيلاء على مدينة كيلي Chilia مفتاح البغدان على البحر الأسود (15 يوليو 1484م) (898هـ)، وكانت تساعده قوات من الأفلاق والقرم. ثم استولى بعد ذلك على أق كرمان Cetacea Alba. وهكذا أغلق العثمانيون الطريق المؤدي بين البغدان والبحر الأسود باستيلائهم على كيلي وأق كرمان. وقد أدى هذا إلى تحرك أمير البغداد استيفان، لتخليص المدنيين من يد العثمانيين، وكسر الحصار الذي يمنع وصولهم إلى البحر الأسود. كيف السلطان على باشا الخادم أمير أمراء الروملى ومعه أمير الأفلاق وقواته، بالتصدي لأمير البغداد الذي نهب لمنازلة العثمانيين.


(1) Dr. Ismail Hakki: Geçen Eser, cilt2, s. 181.
إلا التسليم بما حدث، والموافقة على أن يكون حاكماً على بلاده من قبل العثمانيين، بشرط دفع الجزية السنوية المقررة.

بعد أن فتح العثمانيون البغدان، أصبحت حدودهم تساخب بولونياً، وقد أحس ملك بولونيا جون أنبرت بالخطر، فقال بالاعتداء على البغدان (1497م) (902هـ). ولكن القوات العثمانية بقيادة بالي بك ومعاونة أمير البغدان، تصدت للقوات البولونية المغيرة (1498م) (903هـ)، وردتها على أعقابها. ثم تعقبتها في أراضيها واستولت على بعض المواقع والقلاع. ثم جاء موسم الشتاء، فعادت القوات العثمانية من بولونيا، بعد أن أوقفت خطرها على الأراضي العثمانية.

توه ملك المجر ماتياس كورفان (1440م) (895هـ)، ولم يكن له وريث شرعي، فتصارع الأمراء على العرش. وانتهى أمراء الحدود الفرنجة، فلقبوا الدولة العثمانية. تحرك بايزيد الثاني على رأس جيشه 1492م (892هـ) قاصداً المجر، وأثناء الطريق راودته فكرة الانعطاف نحو ألبانيا إلى أن تواجيه الفرصة. دخل السلطان ألبانيا 1492م (897هـ) واستولى على بعض القلاع التابعة للبندقينة، وذلك على مسمح شعبية على شرق الأناضول.

وفتحت فرنسا وألمانيا والبابا ونابولي وفلورنسا في تحرير الدولة العثمانية على البندقية، لوجود عداء شديد بينهم وبين البنديقية. ولكن البنديقية أسرعت وأرسلت سفيرها إلى الدولة العثمانية للحاشي الصدام بين الطرفين. إلا أن هذه المساعي باعت بالفشل، نظراً لتكرار مساعدة البنديقية لألبانيا ضد الدولة.

(1) تاريخ الدولة العثمانية.

ناج التورني، م. ص 79-85.

173
الصلب الرابع: فترة العصر الذهبي

العثمانية. ورفض قربص التابعة للبندقة أبواء الأسطول العثماني الذي جنح على شواطئها بسبب العواصف أثناء الحرب مع المماليك.

قرر الديوان العثماني فتح المستعمرات التابعة للبندقة في المورة. ولكي يتم للعثمانيين الاستيلاء عليها بسهولة، كلف السلطان سكندور باشا حاكم البوسنة سنة 1499م بالإغارة على شمال البندية لشغفها.

تحرك القيตก كورك داود باشا على رأس الأسطول قصد شواطئ المورة فوصل حتى مشارف الليبانت، بهبوب العواصف الشديدة على سفنه. وأمر السلطان قوجه مصطفى باشا أمير أراوة الروملي بقيادة الحملة البرية على الليبانت. وقد تمكن الجيش البري من السيطرة على المدينة وفتحها 1499م.

ثم فتح العثمانيون ثغور مودون وكورون ونوارين (1500م) (606هـ).

استجابت البندية بأوروبا لمساعدة فلسطيني العثمانيين الذين استولوا على الثغور الهامة التابعة لها في المورة. فأرسلت أسبانيا وفرنسا وصولية قواتها لمساعدة البندية. وقد رأت هذه القوات أن تقوم بمحاصرة جزيرة مديللي، لكي تشن العثمانيين عن الاستيلاء على أملاك البندية، ولكن هذه المساعي باءت بالفشل، وتمكن العثمانيون من رفع الحصار عن الجزيرة.

تحطم الأسطول العثماني في مواقع ليبانت البحرية في عهد سليم الثاني كما سميح شمروحة.

فسماء العثمانيون موقعة ابنة بكيني، أي الحظ العقار.

تاج النصري، م/4، ص 110.

تاريخ الدولة العثمانية

173
ولما لم تجد البندقية أي نمرة من التصدي للعثمانيين، وقعت معهم معايدة صلح (1068 هـ، 1658 م)، اعترفت فيها للعثمانيين بما استولوا عليه. وفي السنة التالية وقعت معايدة صلح من المجر لمدة سبع سنوات (1).

العلاقات العثمانية المملوكية في عهد بايزيد الثاني:

بدأت العلاقات العثمانية - المملوكية تسوء من جديد. فبعد أن تولى بايزيد الثاني عرش العثمانيين نازعه أخوه جعجع على الراقص، وعمر لم يتمكن جم من النقل على أخيه، هرب إلى مصر عام 1481م وطلب مساعدة قايتباي، فأمدته سلطان المماليك بما أراد. تحرك الأمير العثماني على رأس جيش من حلب سنة 1482م للاستيلاء على الأناضول، وإرغام أخيه على التخلي عن العرش. ولهذا السبب ساءت العلاقات بين العثمانيين والمماليك إلى حد بعيد.

ظلت العلاقات سيئة بين العثمانيين والمماليك، وحدثت بينهما صدامات عسكرية على الحدود، أراد العثمانيون بها الانتقام من المماليك لإبوااتهم الأمير جم. وقد كان النصر في هذه المعارك في صالح المماليك.

بدأ أول صدام مسلح بين الطرفين باعتراف قام به علاء الدولة أمير دولاقار ومعه بعض الفرق من جنود العثمانيين (1489م، 1488 هـ) على الحدود المملوكية، فتصدى تمرار الشمسي للمماليك واستطاع أن ينزل بهم هزيمة فادحة، وأسر جنداً كثيراً من قوات العثمانيين. وعلى الرغم من انتصار المماليك فقد أثر قايتباي حقن الدماء، وأرسل فاقده أمير آخر الثاني جاني بك حبيب.

(1) انظر خريطة الإمبراطورية العثمانية حتى مطلع القرن السادس عشر الميلادي، ضمن قسم الخرائط واللوحات رقم (14).
فترة العباسيين (1485 هـ - 1500 هـ) في عهد السلطان العثماني تغلب الخليفة العباسي بأن يكون بايزيد سلطاناً على بلاد الدولة العثمانية وما سيفتحه من البلاد الكفيرة.

التقي القاضي بعد أن عبر الحدود المملوكية - العثمانية، بعلاوة الدولة أمر دولقاد، فاستوقف الأمير المذكور وأرسل ما معه من رسول وأخذ إليه البايزيد الأعظم مع مصلح الدين، لكي يعرضها على السلطان، وحمل رسالة شخصية إلى البايزيد الأعظم، قال فيها:

"عندما قدم إلينا عبد‌كم مصلح الدين بك، جاعنا شخص من الشام يدعى خاير بك. وجاء قاضي الخليفة العباسي في مصر حالاً معه رسالة. أخذ عبد‌كم المشار إليه الرسائل وحمل الأخبار وتوجه إلى خدمتكم لعرضها عليكم".

ومن المحتمل أن تكون الخيوط الأولى لخيانة خاير بك المشهورة في تاريخ المماليك، قد بدأت منذ ذلك الوقت الذي عبر فيه الحدود المملوكية العثمانية دون علم قايتباي ورغم وجود عداء شديد بين الدولتين، واستمرت من بعد على أشكال اتصالات سرية مستمرة بين خاير بك وبين بايزيد الثاني وابن‌ه سليم من بعده.

لم يستجب بايزيد الثاني لنداء الصلح، وقام بالإعداد على حدود المماليك المجاورة، فسأل إليه قايتباي القائد أزريك في (1485 هـ) ودارت بين الفريقين معركة أنتهت بهزيمة العباسيين وأصر أحد قوادهم وهو أحمد بك ابن...

---

(1) رسالة محفوظة في أرشيف طوبيقو سراييا باستانبول، تحت رقم 620216.
الفصل الرابع: فترة العصر الذهبي

هرسك. وفي العام التالي عارض بايزيد المناوشات على الحدود، فأرسل إليه السلطان المملوكي أزبك مرة أخرى.

أرسل السلطان العثماني سطحه إلى شؤؤاته الإسبردرونه، (1) إلا أن عاصفة هبت عليه فأغرقت معظم قطعه. ولم تنجح خطته بايزيد الثاني في تحركه حتى وصل إلى أذنه واستولى عليها.

لم يبدأ بالسلطان العثماني، فأرسل حمله ثالثة 487 م بقيادة الصدر الأعظم داود باشا وامير الرومي "خادم علي باشا" استولت على سيس وطرسوس وغيرها. وفي العام التالي التقى الجيش في موقعة أغا جابر فانتصر الجيش المملوكي. إلا أن قايتباي لم يجد فرصه مواتية للتصدي للعثمانيين نظراً لشورة الجليان عليه وسوء الأحوال الاقتصادية.

وفي مايو 1489 (إجمادي الثاني، رجب 895 هـ) جاء رسول من قبل العثمانيين يعرض السلام، إلا أن الاتفاق لم يتم نظراً لعدم جدية المساعي العثمانية التي كان القصد منها الخديعة. فقد تأكد بايزيد الثاني من اضطراب الأحوال في مصر وعودة أزبك من حلب إلى القاهرة، ووجود فرصة مواتية لل ثور من الهزيمتين السابقتين.

وفي أواخر عام 1489 تم تجربة لدى قايتباي المعلومات عن وجود حشد عثماني قرب قيصرية، فأرسل قائد أزبك على رأس جيش للتصدي للعثمانيين.

وقبل أن يحدث صدام بين الدولتين، أرسل القائد رسوله مامو الهاشمي ليبحث إمكانية عقد صلح مع العثمانيين بناءً على توصيات قايتباي. ولما لم يعد القائد

(1) يذكر إسبردرونه في الوثائق العثمانية بكلمة إسبردرونة، راجع وثيقة رقم E.5693 ووثيقة رقم E.6671 بارشيف هوارير سراي باستنبول.

تاريخ الدولة العثمانية

176
أدرك أزبك عدم رغبة بايزيد الثاني في عقد الصلح، فهاجم عساكر العثمانيين في القاهرة واستطاع أن يجلبه عنها، ثم استولى على كواره. وعاد بعدها إلى المحرم 896هـ.

لم يأمن قايتباي جانب العثمانيين، فأخذ يستعد لما عسى أن تأتي به الأيام. وآثناء عملية الاستعداد هذه قدم سنة 910م (996هـ) رسول من قبل بايزيد الثاني صحبة ماماليون وصبيحة يعرض الصلح. قبض السلطان المملوكي الصلح، وعده في أبريل 911م (996هـ) جمادي الثانية.

توفي السلطان قايتباي سنة 1496م (996هـ)، فتولى العرش من بعده ابنه محمد (1496ـ 1512م) (996ـ 1010هـ). قام السلطان الجديد بإرسال خاير بك إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني، لكي يخبره بنبأ اعترافه العرش حتى تتعلق علاقات الود القائمة بين الدولتين.

ظللت العلاقات حسنة بين العثمانيين والمملوكي منذ وقع الطرفان على الصلح في سنة 1491م وحتى نهاية عهد بايزيد الثاني 1512م. وخلال هذه الفترة اعتلى قانصوه الغوري عرش المماليك، فزادت العلاقات بين الدولتين تحسنًا، بدلاً رسائل الكثيرة والتحف والهدايا التي تبودلت بين الغوري وبايزيد الثاني.

أرسل بايزيد الثاني في أواسط صفر 908هـ رسالة قصيرة حيث رأى رئيس السلاجقين لتهيئة الغوري بالسلاجقة جربًا على العادة القديمة بين الدولتين.
والذهاب إلى المذهب المعروف، وتبعًا للرسم القديم، كما أمر آنفًا وتقرر سالفًا. 

وقد أرسل قانصوه الغوري رده على رسالة بابيزيز الثاني مصحوباً ببعض الهدايا وتحسين مع أحد أمرائه الخاصية ويدعي شجاع الدين هنوداوي. وفي الرسالة يشكر الغوري الله سبحانه وتعالى على سلامته وجود السلطان العثماني، ويبين له أن سلفه قايتباي انزعج عن سبيل مصداقية بابيزيز الثاني، أما هو فقد أزاح غطاء المنازعه ووكرشف عن وجهه المصداقية. وأصلح ما أفسده قايتباي، وارفع العلاقات الطيبة بين الدولتين ونأى بها عن المعاداة.

ويبين سلطان المماليك في رسالته لبابيزيز الثاني مخاطر فرق القزاباش على مناطق الأناضول الشرقية واعتداءاتهم المتكررة وتوزيعهم في صميم بلاده.

أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة 489. 51-94. 

القزاباش: اسم أطلقه الترك على تسع قبائل من التركمان كانت تسبق فلنتسح حمارية على الروس، وهي: رومولوشامولواستاجد ونهك لو وذولفوغر وآبل وآبل ورخفاي ودوجرة وقربيغة. والكلمة عبارة عن تفظين تركيين: الأول «قربيغ» ومنه أحر اللون، والثاني «آبل» ومنه رأس. ومثل الإصلاح «اصحاب الروس الحمراء».

استطاع الشيخ صفي الدين الأردبيلي ولدها من بعد بيضاء ورضاعتهم لمجاعة المتصوفة والدرواش - جنب الكثير من المرتدين ليس في إيران وحسب بل في الولايات التركية - في أسما الصغرى والمتوسطة والخليج العربي بتأثير دعايتهم الفوقية. وكان التصوف قد بدأ يشق طريقه إلى المجتمع الإيراني في ذلك الوقت.

وقد تحدثت فرقة الدرواش التي يرمز بها الشيخ صفي الدين إلى مركز مذهب لبث الدعوة الدينية. وكانت نمذجة شيخ الأسرة الصوفية للثائنين الدينية والعسكرية معه الكبير في إبراز قدرتهم ورفاههم. وقد مهد الشيخ صفي الدين إبناه جنده وجدير المنفعة لخفيفتهم إشعارهم الصفوي الذي أعلن قيام الدولة مستفداً من مركزي الروحي والحضري، ومستفاداً أفراد قبائل القزاباش الذين لا ينفعون الشيء سوى التضحية في سبيل نصرا شاهينهم ومشارتهم الكمال، ولا يستطيع دار العصر الصفوي أن يتأثر دور هذه القبائل في إيجاد الكيان الصفوي.

(انظر المقدم الأول الذي كتبه الدكتور أحمد الخولي في كتاب: تاريخ الصفويين وحضراتهم، ص 37، 32-44، القاهرة 1976).
الأمان وبوادي الترك ويحوّها ديار قرامان وممالك الترك. وشروعهم في غض قبائلهم وهد معاكّتهم، وسبي أطفالهم ونسوانهم. 

ولا أدّل على حسن العلاقات بين المماليك والعثمانيين، مّن أن بايزيد الثاني أرسل إلى الغوري رسالة يلتمس فيها العفو منه عن دولتباي حاكم طرابلس الشام لما ارتكبه من أخطاء، فأجاب الغوري إلى طلبه، وطلب منه أن ينصحه حتى لا ينحرف عن الطريق القوي مرة أخرى.

تأكّدت الصداقة بين الدولتين أكثر بدليلا الرسالة التي حث فيها الغوري بايزيد على محاربة القرلباش وعرض عليه المساعدة. ففي ربيع الأول 719 هـ أرسل خاير بك رسالة إلى الصدر الأعظم، بناءً على أمر من السلطان المملوكي، أخبره فيها بوجوب محاكمة القادة الصوفية الملاحدة القرلباش، ومرتديهم من الطافقة المخزونة الأوباش لأنهم يعيشون فساداً. وذكر له أنه أصدر أوامره إلى أمراء الحدود للاستعداد بجندهم، لكي يلقوا عساكر الدولة العثمانية، ويشتركون معها في الحرب ضد القرلباش.

تُطلق الوفاق التركية والعربية التي كتبتها العلمانيون والمماليك في القرن العاشر الهجري (الملاس عشر المبالي) على إسماعيل الصفوي لقب الصوفي، وعلى القرلباش لقب الصوفية، وتصفهم بصفات مختلفة، منها: الصوفيّة الملاحدة القرلباش، والطافقة المخزونة الأوباش، والطافقة القرلباش الملاعين، والطافقة الملاحدة القرلباش، لعالم الله عليهم، والطافقة الباغية لمرها الله.”

(1) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة 1494 بـ 1494.
(2) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة 1499 بـ 1505.
(3) الرسالة محفوظة في أرشيف طهيفو سراي بباي باستنبول، تحت رقم 5483 E.

تاريخ الدولة العثمانية
الفصل الرابع: فترة العصر الذهبي

ظلت العلاقات حسنة بين الدولتين طالما لم يكن هناك تدخل من جانب
إحداهما في شؤون الإمارات التي تقع بينهما والتي كان بعضها متمورًا بحماية
المماليك والبعض الآخر متمورًا بحماية العثمانيين. وقد ساعد هذه العلاقات
عندما حدث التدخل، وكانت الحرب بينهما سجالًا. وفي الفترات التي حدث فيها
الاحتكاك بين القوى المماليكية والعثمانية كان النصر حليف المماليك في الغالب،
حيث كانت قوة العثمانيين لا تزال في دور التطور والنمو.

النزاع بين أبناء بايزيد الثاني على العرش:

كان بايزيد الثاني ثمانية أبناء، مات خمسة منهم وهو على قيد الحياة(1)
وبقي ثلاثة عينوا ولاة على بعض الأقاليم. عين ابنه الأكبر أحمد على أقاصيًا،
وقورقوداً (1) على صاروخان (مانيسه) 1488م (1488م)، وعين أصغرهم وهو
سليم على طرابزون في نفس العام تقريبًا.

عندما اشتد المرض على بايزيد الثاني، أبدى رغبته في التنزل عن
العرش لأبنه الأكبر أحمد. ولما علم سليم بذلك طلب من أبيه أن يعينه حاكماً
على إحدى ولايات الروملي، لكي يكون قريباً من العاصمة. لم يُجب سليم على
طلبه، فظهر على رأس قوة كبيرة بالقرب من سمندرية وودين، وهدد بالاستيلاء
عليهما، إن لم يزل ما أراد. ولما لم يزل عليه أحد استولى على أدرنة 1511م.
فأرسل إليه أبوه بعض القوات التي هزمنه عند جورلي، فلجأ إلى خان القروم.

(1) وهم عبد الله (ت 1483 م) ومحمد (ت 1504 م) ومحمود (ت 1576 م) وشهنشاه (ت 1511 م).
(2) وعلماش (ت 1512 م).

يذكر اسمه في الكتب العربية المعاصرة للقرن أو قريب.

تاريخ الدولة العثمانية 180
وفي هذه الأوقات بدأ الأب يجهز لإعلان ابنه الأكبر سلطاناً، ولكن الإكتشافية التي تجنب سليم أعلنت العصيان ورفضت السلطان الجديد. وفيما الأمر تسير على هذا النحو إذ سليم يصل إلى استانبول، فتستقبله حاميتها استقبالاً حاراً يدفع إلى إكراء أبيه على التنزل له عن العرش. وفي الأب في طريقه إلى مسقط رأسه ديموطيقاً لكي يقضي بقية أيام حياته، مات في بعض الطريق بعد أن دُس له السم بتحريض من ابنه سليم، كما يعتقد جمهور المؤرخين.

تولى بياوز سليم أو سليم الصارم (1) العرش في أبريل سنة 1512م (7 صفر 927 هـ). لم يوافق أحمد على أن يكون سليم سلطاناً، فأعلن نفسه حاكماً على قوته، وأرسل ابنه سليمان إلى آمرك شهير وعلاء الدين إلى بروصة لكي يخبرا الناس بأن أبوهما هو السلطان الحقيقي، وعندما علم سليم بذلك، وهو في بروصة جهزه وسار به لمحاربة أخيه وأولاده. لم يستطع أحمد الصمود أمام أخيه، فهرب إلى دارئه من توبيت سوريا. قام السultan قانصوه الغزوري (1) ـ 1516م = 926ـ ـ 927 هـ باستطلاع رأس السلطان سليم في إيواء أخيه عندوه. ولمد علم الأمير أحمد بتصور المماليك إزاء لجؤه إليهم، غضب غضباً شديداً، وينس من العودة إلى دياره، فتوجه إلى مناطق شرق الأناضول التابعة لشاه العجم إسماعيل الصفوي. وهرب أبناءه سليمان وعلاء الدين وقاسم.

(1) أنظر تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 445.
(2) تاريخ الدولة العثمانية، ص 17.
في مصر ابتدأ من 1512م (918هـ)، ولجأ ابنه مراد إلى بلاد فارس فيهما بعد.

مكان أحمد مدة لدى الصفوي، ثم عاد إلى بلاده، ولما علم سليم بعدته أمر بالقبض عليه، وخصمه سنان بك في 26 فبراير 1513م في بروصة.

بعد أن اعترض سليم العرش خنق أولاد إخوته الذين استطاع القبض عليهم، وهما: محمد وعثمان وموسى أبناء أحمد وأورخان وأمير شاه ابن محمد فسي 1512م (918هـ)، خوفاً على عرشه. ففزع قورقود مما حدث وأرسل لأخيه خطاباً بالتركية يتعهد فيه بالولاية ويشد الله على قوله. (1) رد سليم على أخيه موافقاً على تولستله. (2) وبعد ذلك توجس خيفة من رده فيما بعد، فانفذ إليه سنان بك أمير لواء منته، فemachineه في 13 مارس 1513م (5 المحرم 919هـ).

لقد عاصر سليم المنازعات التي حدثت بين عمه جم وأبيه بايزيد الثاني، وخشى أن تتكرر هذه الأحداث من إخوته وأبنائهم.

فتح بلاد فارس:

بدأ نشاط الشاه إسماعيل الصفوي يزداد في نشر المذهب الشيعي خارج بلاد فارس في عهد بايزيد الثاني. وقد شجعت مجموعات العلويين الموجودة في مناطق الأنضمام الشرقية الشاه على أن يرسل مريديه إلى هذه المناطق لنشر تعاليمهم، وتشجيع هذه المجموعات على عصيان الحكم العثماني، تمهيداً لضم هذه

(1) أحمد فريدون: المصدر السابق، ورقة 240ب.
(2) أحمد فريدون: نفس المصدر، ورقة 247ب.

تاريخ الدولة العثمانية 182
المناطق المجاورة. وقد زادت شجاعة الشاه بعد سيطرته على إيران واستيلائه على أذربيجان والعراق، فبدأ يوسع مجال نشاطه ونفوذه. أرسل الشاه إسماعيل، "تور علي خليفة" إلى شرق الأناضول، فاستولى على توناقات، وأمر بقراءة الخطبة باسم الشاه فيها، ثم تحرك حتى وصل إلى أسمايا.

امتدت نشاط الشاه حتى وصل إلى وسط الأناضول، وقد قام نور علي بجمع العلويين تحت رئاسته في سيواس وطوقين وأذربيجان وجوروم، ونشط شاه قولى في أنتفالية وحولىها. (1)

وقد علم قورقود بهدف شاه قولى الحقيقي من دعوات في أنتفالية، وطارده حتى هرب. ثم عاد إلى المدينة مرة أخرى. وهزم هو وأتباعه القوات العثمانية التي أرسلت للقضاء عليه عدة مرات. وقد قتل الصدر الأعظم علي باشا الخادم في عصر بايزيد الثاني بقليل، أرسل صدر الدين شيخ تكية أردبيل المجاورة لتدريس، والذي يدعى للمنهجية الشيعي كثيرة من مرديسه إلى الأناضول لنشر مذهبه. ذهب أصدق مرديسه قرر بريق الخراصلي على رأس عشيرته إلى الأناضول واستوطن حول كهف (أنتفالية الحالية). وبعد أن استقر بعض الوقت هناك، سمع على أعلى هضبة بالقرب من "الملكي" واتصل هناك تكية. ثم قرر أدرك يتفقد تعليلاته سراً من شيخه حتى مات بعد عشرين عاماً أو أكثر. وبعد موته حل محله ابنه شاه قولى في إدارة التكية ورئاسة العشيرة.

بدأ شاه قولى يتفقد تعليلاته سراً من شيخه، وينذها بحافرها في هذه المناطق، وأخذ يوسع نطاق نفسه لمذهبه من يوم لآخر حتى كثر أتباعه. فتكون تشكيلات عسكرية مشردةً وكون حكومة، وتأثير الصدر في جمع الصداقة على التكية، وكان يتفقد تعليلاته، فكان بإمكان الشاه إسرايع الصورة، وكان من أخص أوعيه.

عندما تأكد شاه قولى من قهره بدأ يفرض مذهبه بالقوة والعنف على من لا يطيعونه في هذه النواحي. أعد الصدر الأعظم علي باشا الخادم هيئة للقضاء عليه، وتحاول معه عن كوك جامب "القرن" من يزغد. ودارت بينهما معركة حامية سقط فيها شاه قولى نبلاء، وخرج الصدر الأعظم جرحًا بالصدر من هلاك. (Muallim Fuad Gülcüyener: Yavuz Sultan Selim, cild s.81,82,90 1945):

183
في إحدى المعارك من أثر جرح أصيب به 1511م (917هـ)، كما قُتل شاه قولى.

كانت العدوانة سافرة بين العثمانيين والصفويين بسبب اختلف المذهب،

وبسبب سعي الفرس لنشر المذهب الشيعي والتزويج له في شرق الأناضول على الحدود مع العثمانيين وفي بعض المناطق التابعة للسلطان العثماني، وتقييض المصادر التركية في القول في هذا المجال، وتصور المذاهب التي قام بها إسماعيل الصفوي وأعوانه لأرغام الناس على اعتناق المذهب الشيعي بالقوة والقهر.

كان الأمير سليم عندما كان واقعاً على طرازون على عهد أبيه، يرصد تحركات الصفوي في شرق الأناضول عن قرب ويتابع مساعيه الدائبة لنشر المذهب الشيعي في المناطق التابعة للعثمانيين في المنطقة. وكان الصفويون ينشرون مذهبهم بالقوة في بعض الأحيان ويغورون على بعض المناطق العثمانية المجاورة لحدودهم وينهبونها.

أثرت هذه الأحداث المؤسفة في نفسية الفتى سليم، فأرسل يشكو ماراً للصدر الأعظم ولأعضاء الديوان، ثم لأبيه، عندما لم يجد استجابة من هؤلاء...

ولكن عبثاً (2)

(1) Dr. Ismail Hakki: Geçen Eser, cilt 2, s.229,254-255
(2) انظر الوثائق الناجية المحفوظة في أرشيف طوبخبو سراي باستنبول: 13.6.185-8 و E.6185-7
الفصل الرابع: فتوى القرن العشرين

وعندما تولى سليم العرش، وجد أمامه هذه المشكلة المثلجة. وبعد أن قضى على إخوته، تفرعت التصدي للقرناب، فأرسل أوامر لتسجيل أسماء الموجود منهم في الأناضول، وقد بلغ العدد أربعين ألفًا بين سن السابعة وسن السبعين، فأمر بقتل بعضهم وزج البعض الآخر في السجون، على حد قول الروايات المتواصلة. (1)

ومن الجدير بالذكر أن السلطان سليم استصدر فتوى من المفتى حمزة أفندي، بشرعية محاربة إسماعيل الصفوي، جاء فيها: "إن طائفة القبلاباش التي يرأسها إسماعيل بن أرديبل استفخضت بشرعية تبينا صلى الله عليه وسلم وسنته والدين الإسلامي وعلوم الدين والقرآن المبين. وأحلت ما حرمهم الله. وحققت من شأن ما استفخضت به كالقرآن الكريم وكتب الشرعية وحركتها. وأهانت العلماء والمصلحين، وهدمت المساجد وحركتها. المقتول على أيديهم من المسلمين شهد وسعيد، ومقره جنة العلا، والمقتول منهم حقيب وذيل، ومقوه جهنم وبنس القدر. ولأن هذه الطائفة كافرة وملحة ومن أهل الفساد، إذن ينبغي قتالها والقضاء عليها." (2)

تبادل سليم مع إسماعيل الصفوي عدة رسائل قبل قيام الحرب بينهما. ففي 19 مارس 1514 (22 المحرم 920 هـ) أرسل سليم للصفوي رسالة بالفارسية من أسدار مع من يدعى "قليجي" بعد أن تحرك قاصداً بلاد فارس. ثم أرسل له أخرى بالفارسية من إزميد في شهر صفر 920 هـ يدعو فيها إلى الإسلام الصحيح، ويئنه على رفع مظلته، ويخبره بأنه استصدر فتوى بقتل...
لا تحتاج إلى أي ملاحظات.

المراجع:

(1) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة 351.
(2) محمد جميل بهم: المرجع السابق، ص 112.
(3) يشير سليم بهذا إلى أن المذهب الشيعي قام على التصوف، والصفوي هذا ما هو إلا دروف صوفي.
(4) أحمد فريدون: نفس المرجع، ورقة 357.
(5) محمد جميل بهم: المرجع السابق، ص 115.
(6) يشير الصفوي بهذا إلى أن الوكال كاين، فقد كان بإنزاء الثاني يتعاطى الأفكار.
(7) مص 212.
(8) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة 359.
(9) محمد جميل بهم: نفس المرجع، ص 117.

تاريخ الدولة العثمانية: 186
رد الصفوي على هذه الرسالة، قائلاً: تريد أن تنمو الصداقة بيننا كما كانت أيام بايزيد الثاني وأيام ولايةك على طرابزون. نسنا ندري، لماذا قامت العداوة بيننا؟ تريد أن تعود الصداقة القديمة التي كانت بيننا وبين آل عثمان قديماً. لا تريد نكم نتيجة سيناء كالتى حدثت أيام تيمور؟".

رد سليم على هذه الرسالة برسالة تركية في جماد الثاني من نفس العام، ضمنها تهديده ووعيه: "استجننا للدعوة وقطعنا الطريق الطويلة بجنود آياتها النصر. ودخلنا ممالكك. ولكنا لم نجدك في الميدان، وإذا كانت عندك نخوة أو رجولة، فأتت في الميدان. لقد تركت أربعين ألفاً من جنودي فيما بين سبوس وقبحرية، لكي لا ترهب. وهكذا تكون المروية مع الخصم. ومع ذلك اختفيت منا وهربت. وإذا لم تظهر أمامنا، فلا يمكن أن تنصف بالرجولة أبداً".

وأثناء تبادل الطرفين للمراسلات، كان سليم يواصل سيرته من مكان لآخر في الأندوس قاصداً البلاد الشرقية. وعند بلدة "صو شهري" بدأ الجيش العثماني يدخل بلاد فارس. وقد كانت سياسة الصفوي هي "احراق الأراضي" لمنع العدو من الاستفادة من أي شيء.

وقبل أن يمر السلطان ببلاد دولقادار أرسل إلى علاء الدين رسالة يطلب منه الاشتراك معه في الحرب، فرفض، ولم يبد أي استعداد لإمداد الجيش العثماني بالمؤمن والذخائر. وقد كانت الإمدادات العثمانية التي أتت بالسفن إلى طرابزون ومنها نقلت بالدواب، تنفي حasleyة الجيش العثماني الزاحف. ظل الجيش العثماني

(1) أحمد فريدون: نفس المرجع، ورقة 366.
(2) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة 365.
إنه يتتحرك في أرض الفرس المخبرة ولا يوجد أمامه من يتضد به، فأثر ذلك عليه، وأراد بعض القواد أن يشيروا على السلطان بالعودة، إلا أن واحداً منهم لم يجرؤ على ذلك، إلا "هندم باشا" و"القرامن الذي كان يصدح الجيش. فقرر السلطان على الفور بناز رقيته في يوليو 1514م (جماد الأول 920هـ).
وهدأت الأحوال بين الجنود على الأثر لمدة من الوقت، ولكن تحرك الإخوانية في أراضي خربة وعند ثبات العدو أمامهم، أثار فيهم الغضب، فقرر المطالبة بالعودة. ولكن الخوف تمكّنهم من بطن السلطان، فوضعوا خطاباً في خيميته خفية ضمنه مطلبهم، ولكنه لم يبال. فذكروا خيمته باكر الصباح بالرخصاص. وبعد أن علم السلطان محضرهم أسرها في نفسه، وخطب فيهم محضاً إياهم ودافعاً لهم على استمرار في التقدم. ثم وردت الأخبار بأن الشاه ينتظر في صحراء جالديران بخري (1).

اصِل الجيش العثماني سيره حتى وصل إلى جالديران في 23 أوُغُسْتَس 1514م (2 رجب 920هـ) بعد أن قطع مسافة 250 كيلو مترًا. وفي اليوم التالي بدأت المعركة بين الطرفين. وقد فاز فيها الجيش العثماني بفضل الأسلحة النارية والطلائع التي تحمل البنادق الحديثة التي كان يستعملها لأول مرة. (2) وقد جرح الشاه في نزاعه، فولى مديراً ولم يعقب بعد أن أنجز هذه أحد الضباط ويُدَعى ميرزا سلطان عليٰ من الأسر. (3) وقد تم للعثمانيين الاستيلاء على عرش الشاه.

---

(1) مصطفى الدين: المرجع السابق، ص 295.
(3) مصطفى الدين: نفس المرجع، ص 270.

تاريخ الدولة العثمانية 188
والقبض على زوجته تاجلو خانم. وهرب الشاه شمالاً إلى درگوزين. ونجح الجيش العثماني في الاستيلاء على العاصمة تبريز بعد ذلك.(1)

قرر السلطان العودة إلى أن يقضي الشتاء ثم يعود مرة أخرى لكي يقضي على إسماعيل الصفوي. وقد ذكر ذلك في رسالة له بثت بها إلى قانصوه الغوري، حيث قال: "سماونا العزيمة في السنة الآتية إلى تسخير البلاد الشرقية ودفع بقية السيف من الرفضة الفزلياشية خذلهم الله ودورهم بعون الله الأزلي وتوفيقه الأيدي.(2)

وبعد أن عاد السلطان إلى استنبول جاءه رسول الصفوي بعرض الصلح، فأبى.

فتح بعض مناطق الأناضول:

بعد أن قضى سليم الشتاء في آسيا، وجد أن الجيش لا يقدر على محاورة الصفوي مرة أخرى، فقرر تأميم حدود الشرقية والجنوبية ضد الفزلياش، والاستيلاء على بعض المناطق في شرق الأناضول وجنوبها.

(1) الكماخ:

أرسل السلطان أمير آخوره محمد باشا البليقي في أبريل 1515 م (نهاية صفر 921 هـ) لفتح قلعة الكماخ التابعة للفرابش والتي كانت تشهد منطقة أرزنجان وباليورت. فاستولى عليها محمد باشا قبل وصول السلطان إليها.(3)

انظر مخططة ميدان معركة جالديرن، ضمن قسم الخرائط واللوائح رقم (6).

(2) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة 377, 1576.

(3) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة 377, 1576.

تاريخ هدفنا المشتركة 189
نفاذ في ألبستان ومروع من ممتلكات المماليك إمارة تركمانية صغيرة
سنة ١٣٣٩ م (٧٦٨ هـ) سميت باسم دولقادر.

اشترك المؤسس الحقيقي لهذه الإمارة ويدعى زين الدين قرامة بك ١٣٥٣ م (٧٥٤ هـ) مع الجيش المملوكي في إحدى معاركه ضد الأرمن بينما كان زعيمًا تغييرته، وأقبل في المعركة بلاءً حسنًا، استحوز على إعجاب قائد الجيش المملوكي. وفي سنة ١٣٣٩ م استولى علي ألبستان مين "أرته بك" واستطاع أن يجعل منها مركزاً لإمارة ثم ضم إليها مروع فيما بعد. وقد تمكّن ابنه وخلفيه خليل بك ١٣٨٦ م (٧٨٨ هـ) من ضم ملكية وخريروت وبهنسّى للإمارة.

ارتباطت هذه الأسرة بالعثمانين عن طريق المصارحة، فقد تزوج السلطان محمد قلبي إبنة أحد أمرائها ويدعي "سولي بك" ١٣٩٧ م (٨٠٠ هـ)، وأرسل السلطان مراد الثاني إلى أحد أمراء هذه الإمارة يسمى سليمان بك ١٤٥٤ م (٨٥٨ هـ) في طلب خمس بنات، زوج أجملهن وهي "سبتي مكرم خاتون" لأبنه محمد (الفاتح). وتزوج بايزيد الثاني عاشية خاتون أبنة علاء الدولة، فأنجبت له سليمان الأول.

ظلت إمارة دولقادر على علاقة حسنة بالمماليك والعثمانين أيام حكم سليمان بك. ولما توفي اعتلى العرش مكانه ابنه "ملك أرسلان بك". وفي عهده استولى أوزون حسن على خربوت، فطلب ملك أرسلان العون من مصر، وفي هذه الأثناء تمكن أخوه "شاه بوداق" من قتله، واعتلى العرش بعدة في سنة ١٤٦٥ م (٨٧٠ هـ). وبعد أن استبت الأمور له، تحالف مع المماليك. لكي

تاريخ الدولة العثمانية ١٩٠
السلطان محمد الفاتح تدخل في الأمر واستطاع أن يعين أخاه لشأن بوداق يدعى شهوار لتأكيده من ولائه للدولة العثمانية. وعندما قوتت شركة شهوار تصرد على العثمانيين رفضاً ولاه لهم، فأصبحت الفرصة مواتية أمام المماليك الذين جردوا عليه حملة تمكنت من أسره وشنقه على باب زويلة في أغسطس 1477م (877هـ—)، ونصب قايتباي مكانه شاه بوداق. إلا أن الفاتح لم يسكن على ما حدث، فقام بمساعدة علاء الدولة على اعتلاء العرش سنة 1479م (883هـ—) لأنه من صنائع العثمانيين.

عندما فرغ بايزيد الثاني من خطر أخيه جم واتفق مع رئيس الاستبرارية على أن يتحكّم به لديه، أراد أن ينتمي من المماليك لمساعدتهم أخيه وتحريضهم إياه على الحرب ضد علاء الدولة سنة 1482م وحُرِضَه على محاولة المماليك وأمره بالجنود اللازمة. أغار أمير دولقادر على مملكة شمسية على عبد الحومن، إلا أن القائد المملوكي تمّارز الشمسي رده عن هذه المدينة وأنزل به هزيمة منكرة سنة 1484م؛ وأسر الكثير من جنود آل عثمان.

وبعد ذلك أخذ قايتباي إلى عينتباب فرقة مكونة من 500 جندي جعل على رأسها القائد أوزبك لإرهاب علاء الدولة وتحريضه على ترك صداقة العثمانيين وإعلان ولائه للمماليك، ولكن علاء الدولة رفض المساعدة على صداقته للعثمانيين، وأصر على موقفه رغم تكرار دعوته إلى التفاوض عنها.1

لم يستمر علاء الدولة على عدائه للمماليك، فعندما أحس بقوتن وخطرهم رضخ لمطالبهم في الفترة التي حدثت فيها صدامات بينهم وبين العثمانيين

---

1) انظر التقرير الذي كتبه أحد رجال العثمانيين ويدعى مصطفى الصالحي، يُشوق إليه بِجايين علق مَنْ أرض العرب، وهو مفيد بِرُشْف طوِيْلِه وسُرَّابِي بِصُدْبِه، تحت رقم 12105106.
(1485-1492 م) و (1489-1490 م)، ومن ناحية أخرى كان يخفف بخش زوج ابنه بايزيد الثاني. ولما تأكد من أن المماليك يزدادون ضعفاً من يوم لآخر، تنازل بعض الهزائم بعلاوة الدولة.

وفي 13 أكتوبر 1507 م (7 جمادى الثانية 913هـ) استطاع الشاه إسماعيل الصفوي الذي كان يسعى إلى نشر المذهب الشيعي في الأناضول أن

وعندما سار سليم على رأس جيوشه سنة 1515 م (920هـ) لمحاربة

الصفوي، لم يستمع علاء الدولة عندما مر بأراضيه، بل هاجم طلائع قواته على حد قول المؤرخ التركي الكبير إسماعيل حقي أوزون جاريشلي. فأمر سليم

الصدر الأعظم سنان باشا بمحاربته والقضاء عليه، عند عودته من حربه مع

الفرس.

تحرك الامام الأعظم إلى إمارة ذوقدار في غرة جمادية الأولى 921هـ

على رأس جيش قوامه عشرة آلاف جندي، وهاجم علاء الدولة وهزمه وقطع

رأسه مع رؤوس أربعة من أولاده وثلاثين من أمرائه. وبعد أن استراح السلطان

من شر جده لأمه، منح حكم ذوقدار لعلي بن شهسوار الموالي للعثمانيين.

وبعد مقتل علاء الدولة لم يعد للمماليك نفوذ في إمارة ذوقدار، فقد

أصبحت تابعة للعثمانيين. وسكت العلامة وقررت الخطبة باسم السلطان

(1) Ismail Hakki: Anadolu Beylikleri, s. 169-174

(2) Ismail Hakki: Geçen Eser, cilt 2, s.271.

تاريخ الدولة العثمانية

192
العثماني. (1) وأرسل سليم رسالة للعوامي بهذا الخصوص مصحوبة برسالة علیه الدولة.

(3) دیار بکر:

كانت دیار بکر أهم المدن والحسون التابعة للصفویین في الأناضول عند حدودهم الغربية. كانت الكماخ وأرزنجان وباپورت تشكل حدود الدولة العثمانية الشمالية الشرقية مع الصفویین، وكان دیار بکر تشكل حدودهم الجنوبية الشرقیة معهم. وقد وفق العالم والمؤرخ إدريس البنتیسی الذي لجأ إلى العثمانيين في إدخال دیار بکر تحت طاعة العثمانيين دون إراقة للدماء. (1)

وبعدها علم الصفوی بذلك وتأكد من عودة سليم إلى دیاره، قرر محاقرة دیار بکر وإعادتها للنفوذ الصفوی. فأرسل جيشاً بقيادة قراخان الذي تولى حكم دیار بکر بعد موت أخيه محمد خان بن اوستاجلو في معركة چالیران. ولكن هذا الجيش لم يتمكن من التصدي للعثمانيين بقيادة محمد باشا البيقاتی. وفشل الصفویین في إرجاع دیار بکر تحت حكمهم.

(4) بعض مناطق شرق الأناضول:

وبفضل إدريس البنتیسی دخلت مناطق أخرى في شرق الأناضول تحت الحكم العثماني، مثل: عمادیة، بنتیس، سیرت، حصن كیفا (حصن كیف)، ومیافاقین (مفارقین) وغيرها. وأثناء فتح سليم للشام ومصر، وبعد فتحهما،

(1) صولاق زاده: صالاق زاده تاريخی، م 1017، ص 347.
(2) Dr. Ismail Hakkı Geçen Eser, cilt 2, s. 273.
انضمت للدولة العثمانية بعض البلاد الأخرى، مثل: ملطية وأورفه وبيهضينى وخبريوت وماردرين وغيرها.(1)

مكن الانصشار في شرق الأناضول وفي إيران، العثمانيين من التحكم في الطرق الرئيسية الاستراتيجية من الأناضول عبر القوقاز وسوريا وإيران، كما مكنتهم من تنظيم خطوط دفاعهم وهجومهم في هذه المناطق، والسعي على طرق التجارة العالمية التي تنقل الحرير من إيران وبعض المنتجات الأخرى من الشرق، من تبريب إلى حلب وبروصح، مما در عليهم دخلاً هاماً من المكوس المفروضة على هذه التجارة. وجعل هذا الانصشار أيضًا السلطان سليم يتحكم في تجارة الحرير الإيرانية المزدهرة مع أوروبا ويقطعها متي شاء. كما جعله يسيطر على المنايع الرئيسية التي يجلب منهما المماليك عبدهم من القوقاز. وبهذا استطاع أن يضغط عليهم من عدة اتجاهات.(2)

فتح الشام ومصر وضم الحجاز

أسباب فتح العثماني للشام ومصر:

لا شك أن فتح سليم للشام ومصر كانت وراءه دوافع وأسباب عديدة ومبررات قوية دعت إلى الاستيلاء على هذه المنطقة المشاغلة من العالم العربي. هذا الفتح الذي ضاعف أملاك الإمبراطورية العثمانية أكثر من مرة ونصدف. وقد امتزجت الدوافع والسببات وتفاعلت في عقلية سليم، وأصبحت حافزاً ومبرراً له للقضاء على دولة المماليك الأخرى في الضعف والانهيار. والأسباب

(1) Dr. Ismail Hakki: Geçen Eser, cilt 2, s.275,276.

تاريخ الدولة العثمانية 194
الفصل الرابع: فترة العصر الذهبي

التي دعت سليمًا لفتح الشام ومصر، بعضها كان من صنع المماليك والأخر ناتج عن سياسة السلطان العثماني وتفكيره.

على أن المنتفع للسياسة العثمانية والسياسة المملوكية قبل عصر سليم يجد أن هذه الفترة مهدت للصدام وهياح له، فقد ساءت العلاقات بين الطرفين، وحدثت بينهما صدامات محدودة على الحدود. عاصر سليم بعضها أيام أن كان وعلياً على طرابزون 1490م. ويبدو أن هذه الأحداث أثرت فيه نظرًا لأنها لم تكن في صالح العثمانيين في أغلب الأحيان. وقد أثارت له الظروف قبل اعتلاء العرش، أن يحكم في منطقة مجاورة للمناطق التي دارت فيها الاشتراكات التي سببها تأثير نشر المذهب الشيعي بالقوة. لكن تصرف الأمور لم يكن بيده، ولا كان مدعوته، في أواخر حكمه، بل كان الصدر الأعظم علي باشا الخادم يتولى شؤون السلطنة لمرض السلطان.

واعتقد أن فكرة اتجاه الفتح نحو شرق الأناضول وجنوبه، إذا احتمرت في عقل سليم أيام ولايته على طرابزون. فلما تولى الحكم 1512م، واطمأن على الأحوال في أوروبا، بدأ يستعد لمحاربة الصفويين الذين كان ضعفهم يستحيل في الأناضول. وبعد هزيمة إسماعيل الصفوي، بدأ يجهز لفتح الشام ومصر. (1) والأسباب الحقيقية التي دفعت إلى الفتح، هي:

(1) لا أوافق المؤرخ الإنجليزي توييبي فيما ذهب إليه بخصوص تعليل سبب الاستيلاء على الشام ومصر، بل أنه صراع مذهبي بين القولتين المصريتين: الدولة العثمانية الإسلامية والدولة الصفوية الشيعية. سعت له الدولة العثمانية لكي تدخل بالنظام بينها وبين الدولة الصفوية.


تاريخ الدولة العثمانية
إيواء المماليك لل أمراء العثمانيين الفارين:

حرصت بعض الدول المجاورة للدولة العثمانية كدولة المماليك ودولة الصفويين الأمراء العثمانيين على اللجوء إليها، أو أوت الفارين منهم، لما يحدثه ذلك من تهديد للعرش العثماني. وقد سبب هذا التصرف عدئاً شديداً بين العثمانيين وجيشهما خوف السلاطين من إمداد هذه الدول للأمراء، بيجوشت لمحاربتيهم خاصة إذا كانوا في أوائل عهدهم بالحكم. وقد هرب بعض الأمراء خوفاً على حياتهم إلى المماليك أو الصفويين، وأحسن هؤلاء وقادتهم وأكرموهم وأنزلوهم منازل خاصة، مما زاد من غيظ العثمانيين. وحاول بعض السلاطين العثمانيين جاهداً أن يحصل على هؤلاء الأمراء الهاربين، ولكن المماليك والصفويين لم يجيبوا، بل إنهما أمدا بعضهم بالجند والسلاح لمحاربة السلطان الجالس على العرش. فكلما حدث استضمار في الدولة العثمانية، خاصة في منطقة الأناضول، كما أفاد منه المماليك والصفويون، حيث يضعف ذلك من قوة الدولة الفتية التي تهدد كيان هاتين الدولتين، خاصة المماليك، وهم آخرون في الضعف والانهيار.

ويبعد أنه بعد أن سن الفاتح قانونه، وأورد فيه فكرة خاصة بوراثة العرش تجزى لم أن يغفو به قتل جميع إخوته الباقي حرصاً على مصلحة البلاد، خلف الأمراء، قام جم يطالب بالعرش ويستميت في الطلب، وهرب آخرون فزعرن خشية بنش السلطان الحاكم.

وعلى الرغم من إيواء المماليك والصفويين لل أمراء العثمانيين الهاربين من ديارهم، إلا أن كلاً منهما لم يحسن استغلال هذه الفرصة لصالحه. وقد شجعت مساعدة المماليك للأمير جم - رغم سياستها - على زحفه على
الاناضول وزيادة العداوة بين العثمانيين والمماليك. وحدثت بعض الصدامات على الحدود بين الدولتين.  

الصراع على الإمارات المجاورة:

تصارع المماليك والعثمانيون على النفوذ في مناطق الأناضول الجنوبية والشرقية والمناطق الواقعة شمال الشام. فكل منهما كان يسعى إلى تعيين أمير موال له في هذه المناطق، مما سبب توترًا شديدًا بينهما، كانت تزداد حدته كلما ازداد تدخل أي من الطرفين في شئون هذه الإمارات، التي كانت تتبع النفوذ المملوكي، الموجودة في جميع شببه جزيرة الأناضول. وخطرها شديد على العثمانيين. وكانت هذه الإمارات مهددة بالزوال في الفترة التي ازدادت فيها حدة الصراع بين هذين القوتين، فهي إمارات صغيرة وضعيفة، وكان ضعفها سببا في عدم استقرار الحكم فيها، وتشجعها لكلا الدولتين على التدخل في شئونها كثيرا. يعتبرها المماليك حصنهم الشمالي، ويعتبرها العثمانيون جسما غريبا داخلا في جميع أراضيهم. كما أنهم كانوا يخافون من انتشار المذهب الشيعي في هذه المناطق التي لا تطبعهم، والتي وجد فيها الشيعة أرضًا خصبة لانتشار مذهبهم ولو تحت تهديدسلاح، لأن المماليك هذه الإمارات تحت نفوذهم لم تكن قبضت على قوية، خاصة في أواخر أيام السلطنة المملوكية.

سبي إيواء المماليك لل أمراء العثمانيين الفارين وكذلك النزاع على النفوذ في إمارات الأناضول توتر في العلاقات بين المماليك والعثمانيين، كان من نتيجته قبل فتح الشام ومصر قيام عدة صدامات على الحدود لم تعد أن تكون

(1) لمزيد من التفصيل نظر : د. أحمد فؤاد متوالي: الفتح العثماني للشام ومصر ومقدمته من واقع الوثائق والمصادر التركية والشرقية المعاصرة له القاهرة 1972م

تاريخ الدولة العثمانية
الفصل الرابع: فترة العصر الذهبي

نتفيساً عن غيظ العثمانيين من إثارة المماليك لهم. فلم تكن صدامات على نطاق واسع لأن العثمانيين كانوا مشغولين بفتحاتهم في أوروبا من ناحية، ومن ناحية أخرى لا يستطيعون القيام بعمل حربي كبير مع المماليك لاتساع جبهتهم وطولها، والأناضول به إمارات لا تدين بالولاية لهم، ومن الخبر لهم ضمها أولًا لتأمين ظهورهم ثم التوجه للقضاء على المماليك. وقد كان إسماعيل الصفوي خطراً داهماً عليهم لأن نفوذه كان يسع في الأناضول، خاصة في الإمارات التركمانية. فقد كان يسعى على الدوام لنشر المذهب الشيعي خاصة في الدويلات المذكورة لضعفها وصغر حجمها.

(3) التحالف المملوكي الصفوي:

كان واجب الجهاد الديني أحد المحركات الرئيسية للفتوحات العثمانية في أوروبا "بلاد الكفر" التي ينبغي ضمها للعالم الإسلامي. وكانت الغيرة على الدين حافزاً قوياً للسلطان العثمانيين على فتح البلاد التي يعتبر فتحها "جهاداً في سبيل الله". كما كانت القومية الإسلامية هي الموجه الوحيد المتحكم في سياسة الدولة العثمانية، وذلك أن دولتهم اصطبغت من لدن قيمها بالصبغة الإسلامية للبحث. فقد كان سلطانها الأول ينتمون إلى أهل الفوائد، وكانوا يتلقون بلقب "الغازي". وقد بلغت القومية الإسلامية مداها عند السلطان سليم الأول، حتى أنه حاول أن يجعل اللغة الإسلامية الأولى وهي اللغة العربية لغة قومية للترك، ولم يمنعه من تحقيق هذا المشروع إلا المفتي. ولاشك أيضاً أن الإسلام الذي عاش من أجله العثمانيون هو الإسلام السنوي. وقد ازداد حديهم عليه زيادة كبيرة بعدد

للمزيد من التفاصيل اقرأ: د. أحمد فؤاد متناول: الفتح العثماني للشام ومصر ومعلوماته

تاريخ الدولة العثمانية

198
ظهور إسماعيل الصفوي، وإرغامه السنة في إيران على الدخول في المذهب الشيعي.  

كان تحالف المماليك مع الصفويين ضد العثمانيين مثيراً لغضب سليم من الغوري النبي الذي اتفق مع الصفوي الشيعي. ولكن، كان اتفاقاً حثيثاً بسبب التناقض بين الدولتين، وربما لم يساعد المماليك الصفويين ضد العثمانيين خشية أن ينتصر الصفويون فيكون ذلك وبالاً على المماليك على حد قول ابن إسحاق.  

ذلك أن الصفويين قاموا على قدم وساق لنشر مذهبهم الشيعي بجنتهما ورسالتهم، وهناك إشخاص آخر، وهو أن المماليك اتفقوا مع الفرس خشية أن يهاجمهم العثمانيون، فيذهب الصفويون لنجحتهم.

كان الوقت مناسبًا للقضاء على الخطر الصفوي الذي كان يستقبل مطلع الأيام. ولم يترك سليم الجبهة الغربية، ويتحرك إلى الجبهة الشرقية إلا لازداد الخطر الشيعي في الأناضول. وبعد أن أوقف سليم الخطر الصفوي، بدأ يغير على الإمارات التابعة للمماليك في الأناضول ويستولي على بعضها، وينصب للحكم في بعضها الآخر من يشاء مؤمنًا مؤخرته قبل البدء في الصدام الكبير مع المماليك. قتل سليم علاء الدولة أكبر أنصار المماليك عند حدودهم الشمالية، وبعد فشل ويراش خان حليف الشاه إسماعيل.

نصح سليم الغوري في رسالتته إليه في 14 جمادي الأولى سنة 921 هـ بمناسبة القضاء على علاء الدولة، بأن يلتفت إلى تضرعات الشيعة، قائلًا: "صمتنا العزيزة في السنة الآتية إلى تخير البلاد الشرقية، ودفع بقية..."  

د. أحمد سهيل سليمان: التراث القومي والديني في تركيا المعاصرة، ص 1716.  
 Ibn إيس: المرجع السابق، ج 5، ص 72.  

تاريخ الدولة العثمانية
الفصل الرابع: فترة العصر الذهبي

السويل من الرفقة القزليشية، خذلهم الله ودممهم بعون الله الأزلي وتوقيته
الأبدي. فالمرجو منكم ألا تلتزموا لتضرعاتكم ولا تنقيذوا بسفسطاتهم. (1) فلقد
برد سلطان المماليك على الرسالة لشدة غضبه وغيظه مما حدث لأحد الحكم
المواطنين له. فأرسل سليم للغوري رسالة في أوائل المحرم سنة 922 هـ يقول
فيها: "إن قيامنا بتنصيب القزليش الملاعين فيما مضى، كان لمجرد إظهار أئنوار
النواحي الإلهية والشرائع النبوية، وكشف حساب ظلم إمضاء الدين والدولة،
وعدل على نشر تور الشرائع النبوية على العالم." (2) علم الغوري في تلك
الأونة بأن الدولة العثمانية تعد العدة لفتح الشام ومصر، فأرسل إلى السلطان
سليم بهذا الخصوص. (3) فرد عليه السلطان العثماني مبيناً له عزمه على ممارسة
القزليش. (4) على الرغم من أنه تحرك فعلاً لمحاربة المماليك. ويعبر الغوري
في إحدى رسائله التي أرسلها إلى السلطان سليم فيما بعد الوساطة بينه وبين
القزليش حفناً للدماء، لأن أكثر الناس في هذه المناطق التي يزعم محاربتهما من
أهل السنة والجماعة. وأن إمضاء الصفوي قرأ عدم اللقاء مع سليم فـ أي
معركة، فهو يفضل الهروب دائماً خوفاً وفزعًا. ويكفي ما لحق به في معركة
جاجيران سنة 514 هـ (920 م). (5)

ومنها كان السلطان العثماني في طريقه لمحاربة الغوري أرسل إليه
رسالة تهديد، قال فيها: "اتضح لنا بعض تصرفاتك التي لا تليق والتي قصدت

(1) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة 572 م- 876 م.
(2) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة 992 م- 993 م.
(3) الوثيقة محفوظة في متحف طوبيفو سراي بستانيبول، تحت رقم 5.12282.
(4) جلال زادة قوي شاهاني مصطفى: مادل سليم خان، طاب طراز، مخطوط مكتبه طوبيفو سراي
بستانيبول، تحت رقم 1415 م، ورقة 67 م- 27 م.
(5) أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة 692 م- 876 م.

تاريخ الدولة العثمانية

200
بها تقوية ذلك الملحد المفسد ذي العادات السيئة الذي لا يدين بدين (إسماعيل الصفوي) فقسته إليه ذاتنا لأنك أسوا منه". 

(4) الأسباب الاقتصادية:

بدأت الكفوف الجغرافية تظهر في أوروبا في أواخر القرن الخامس عشر، فقد اكتشف فاسكو دا غاما سنة 1498 م طريق رأس الرجاء الصالح. وقد أحدث هذا الكشف تحولا خطيرا في البحرية الأوروبية أثر بطبيعة الحال على التجارة العالمية وغير مجراءها. كانت تجارة الشرق تمر بالبحر الأحمر ثم تصل إلى السويس ومنها إلى القاهرة فالإسكندرية أو تمر بالخليج العربي ثم تصل إلى ميناء البصرة فسوريا أو بورتو ثم تمر البحر الأبيض إلى أوروبا. وكان المماليك يحصلون مكوسا باهظة على هذه البضائع، كما كان الجنوبيون والبنادقة ينقلون هذه التجارة إلى أوروبا وبحصول مكوسا عليها أيضا. لكن البرتغاليين استطاعوا بكفوفهم أن يغيروا هذه الطرق التجارية العايدة من خلال الطرقات العربية، وجعلونها تمر عبر طريق رأس الرجاء الصالح، ثم بدأوا يغلقون البحار العربية كالبحر الأحمر والخليج العربي. فتوقفت التجارة عبر هذه البلاد، وأحدثت رد فعل سري على اقتصادات المنطقة.

حدثت صدامات عديدة بين المماليك في عهد الغوري وبيبي البرتغاليين لذلك الحصار المضروب حول المنطقة والذي يهدده بالاختراق. تحتضن الأسطول المصري سنة 1509 م في موقعة دو، فسمع الغوري يطلب الأخشاب من بازيدي الثاني لكي يبني أسطولا قويا يحكم به الحصار. وقد وقعت بين الطرفين معارك.


تاريخ الدولة العثمانية

٢٠١
عديدة في المحيط الهندي، إلا أن جهود المماليك لحل هذه المشكلة انتهت بانهيار دولتهم. وتم للبرتغاليين تطوير المنطقة العربية ومنع التجارة من المرور عبر مياهها أو أراضيها.

أراد سليم بفتحه للشام ومصر أن يؤمن التجارة العثمانية الأندية من الشرق عبر البلاد العربية، والتي أصبح الخطر البرتغالي يعوق مسيرتها. وأن يحصل على الأموال الطائلة من المروك المفروضة على البضائع، إن استطاع أن يعيد طريق التجارة كما كاف قبِل الحصار البرتغالي.

وتعتبر الدوافع الاقتصادية التي دفعت سليمًا لفتح الشام ومصر إحدى العوامل الرئيسية المحركة للسيطرة على هذه المناطق الشرقية. وكانت هذه الفترة مavigatorًا لفتح هذه البلاد بسبب العلاقات السيئة بين المماليك والعثمانيين التي خلفتها العهود السابقة على تولي سليم عرش العثمانيين.

العلاقة بين الغوري وسليم الأول:

بعد أن اعتلى سليم عرش العثمانيين لم يرسل إليه الغوري رسالة تهنئة بالجلوس على العرش، ولكنهما تبادلا الرسائل من بعد في مناسبات أخرى. وقد أنشأت المراسلات التي تبودت بين السلطانان بشيء من الود الظاهرة أحيانًا وبالشيك والحذر أحيانًا أخرى، ثم تطورت إلى توتر فعند وتهديد. لقد اختفت لهجتها عن لهجة المراسلات التي تبادلها الغوري مع بايزيد الثاني. ومع ذلك، كانت هناك مراسلات سرية بين السلطان سليم وبين خاير بك اتسمت بالصداقة.

تاريخ الدولة العثمانية 202
أرسل سليم رسالة إلى خاير بك - على أنها كانت في الخفاء - مصحوبة ببعض الهدايا لتوظيف أواصر الصداقة بينهما. وفي 22 من ذي الحجة سنة 918 هـ، أرسل خاير بك رداً على هذه الرسالة، متضمناً شكره لسليم على الهدية التي أرسلها إليه مع رسوله بهرام، ومذكرًا إياه بما جاء في رسالته من أن "المملكتين شينتاً واحداً" أدخل عليه الفرح والسرور، ومؤكداً له على "المملكتين مملكة واحدة"، وعلى أنه ينتظر ما يكلف به لكي يقوم به خير قيام. والرسالة من أولها إلى أخرى على لسان خاير بك. ومن المحتمل أن تكون قد أرسلت من قبله إلى السلطان سليم للتاكيد على الولاء التام له، حيث تقول: "والمملوك واقف على أثرى قدم لما يرد عليه من المراسم والخدم ليفوز بقضائهما وامتثالها بالسمع والطاعة".

وقد أحص سيباي نائب الشام بوجود مراسلات سرية بين خاير بك وسليم - على حد قول ابن زنبل - فاستلم إلى الغوري فيما بعد، يخبره بخبره خاير بك ومراسلاته المستمرة مع سليم، قائلاً: "والذي يعلم به حوالنا السلطان أن خير بك ملتمي علينا ومكتبيه لا تنقطع من عند ابن عثمان في كل حين".

تحرك السلطان سليم من أدرنة في يوم الثلاثاء 23 محرم 920 هـ قاصداً محاربة إسماعيل الصوفي. ولما علم الغوري بذلك خشي من العواقب الرخيمة المرتقبة على بلاده، إذ أن من ينتصر منها سوف يحاول القضاء على القوة المملوكية. فأمر بفترة جيشه بتحرك إلى حلب انتظارًا.

الوثيقة محفوظة في أرشيف طوباكو سراي باستنبول، تحت رقم 1-5805.
(1) ابن زنبل: "آركة الملكية وال一封信ة السلطان الغوري مع سليم الشمالي" (تحقيق عيسى المنعم مدرر)، ص 4، القاهرة 1962.

تاريخ الدولة العثمانية
لمجريات الأمور بعد انتهاء هذه الحرب، فهو يقول في سبب ذلك: "هذى نبرى ما يكون من أمر الصوفي وابن عثمان فإن كل من ينتصر منهما على غريمه لا بد أن يزحف على بلادنا". (1)

بينما سليم في طريقه لفتح بلاد الحجج علم بأن الآلهة إسماعيل أرسل قاصمه إلى الغوري يطلب مساعدته ضد السلطان العثماني إن هو فكر في غزو بلاده.

وقد أكد هذا الخبر لديه تحرك بعض فرق الجيش المملوكي إلى حلب.

أرسل الصدر الأعظم أحمد باشا رسالة مع قاصده محمد يستفسر عن صحة هذه الأخبار من خاير بك. بعد الأمير المملوكي الرسالة بدوره إلى الغوري في مصر، فورد من جانبه أقباي يكلف خاير بك بالرد على رسالة أحمد باشا ومنفي هذه الشائعات.

وفي 13 جمادي الأولى 920 هـ، وبينما جيوش السلطان العثماني في موقع سيبواس يسمى قلعة قوج متجهة إلى بلاد فارس، أرسل خاير بك رده إلى الصدر الأعظم مع "إينال باي" متبناً نعيم حضور قاصم من قبل الشاه الصفوي، لصدق المجاهبة بين سليم والغوري، ولأن المملكة الصليبية والمملكة الرومية (العثمانية) مملكة واحدة وبيت واحد. وقد أفضى خاير بك إلى أحمد باشا بأن أحد جواسيسه أتى من بلاد الشرق، وأخبر بأن الشاه يدعى قرقاق، وأن "حالتى ضعيف جداً"، ثم أكد له على الصداقة بين السلطانين المملوكي والعثماني والاتحاد بينهما ضد الصفوي. (2)

(1) ابن إسحاق: المرجع السابق، جـ 5، ص 327.
(2) الوثيقة محفوظة في أرشيف طوليفي سرابي بستانبول، تحت رقم 5552E.

تاريخ الدولة العثمانية 204
هذه الرسالة لا تشير إلى حدوث اتفاق بين المماليك والصفويين، فلما كان حدث اتفاق في ذلك الوقت بالذات، بين السلطان المملوكي والشاه إسماعيل لأقضية خاير بك بسره إلى الصدر الأعظم في هذه الرسالة، أو في رسالة سرية بينهما. وقد ذكر الأمير المملوكي في رسالته إلى أحمد باشا معلومات جمعها أحد جواسيسه عن الصفوي مما يدل على حسن العلاقة بينهما رغم تعويم السلطان الغوري من نتيجة هذه الحرب سواء كان المنتصر فيها سليم أم إسماعيل.

بعد أن انتصر سليم على إسماعيل الصفوي في جالديران في 23 أغسطس 1514م (2 رجب 1320هـ)، أرسل رسائل الفتوح السلطانية إلى كثير من الحكام والأمراء بشرًا بالنصر. وقد أرسل إلى الغوري رسالة مع قاصده خضر أغى، يخبره فيها بانتصاره على القزلباش، مما يدل على أن سليما اقتطع بنفي خاير بك وقواع اتفاق مع إسماعيل الصفوي رغم عدم وجود وثيقة تثبت ذلك.

كلف السلطان المملوكي الأمير خاير بك بالرد على الرسالة، فكتب يقول للسلطان سليم: "أن أباكم السلطان [الغوري] عز نصره فرح فرحًا عظيمًا بالنصر على الطائفة الباغية من الأوباش القزلباش الملاعين خذلهم الله تعالى. أجمعين، وأعلن البشار والافراح ثلاثة أيام، وأكرم رسولكم خضر أغى وأرسل معه مرسوما شريفا". (1)

ورغم رسالة التهيئة بالنصر في جالديران التي بعث بها خاير بك إلى سليم بناء على طلب الغوري، إلا أن ابن إيسا يذكر في دايتمه أن السلطان

الوثيقة محفوظة في أرشيف طوبكو سرايي باستنبول، تحت رقم E.9654.

(1) تاريخ الدولة العثمانية 205
المملوكي وأمراءه استبناوا من أخبار انتصار سليم الأول وخشوا من سلطانة الغوري.

وشهدت لبابة لما يحدث منه بعد ذلك إلى جهة بلاد السلطان (1)

وعلى الرغم من أن الغوري أكرم رسول السلطان سليم وأحلع عليه كما ورد في الوثيقة السابقة وكذلك سيجوي في كلام شاهد العيان ابن إيباس، إلا أنه لم يأمر بدع البشائير احتفالاً بالنصر الذي حقق على يد العثمانيين، مما أؤكد أن السلطان المملوكي قابل هذه الأخبار بقلق بالغ. يقول ابن إيباس (2): "قلما حضر قاصد سليم باشا بن عثمان بين يدي السلطان قرئ مكتابته بحضرة الأمراء أخلع على القاصد الذي حضر بأخبار هذه النصرة كاملاً مخمل أحمر كفوري بصوم عال من ملابسه ثم أنزل القاصد من القلعة ولم يرسم بدق الكوسام في القلعة ولم يناد في القاهرة بالزينية ولم يعلم ما سبب ذلك (1)." وعلى الرغم من ذلك قال خاير بك في رسالته السابقة إلى السلطان سليم: "فرح أبوكم الغوري عز نصره فرحًا عظيمًا، وأعلن البشائر والأفراح ثلاثة أيام." وربما قال أمير حلب ذلك لدعم علمه بالحقيقة، وتوقعه إعلان البشائر ما دام القاصد قد قوبل بترحاب شديد وأحلع عليه.

وبدو في ظني أن الغوري أمر بإرسال هذه الرسالة إلى سليم رغم عدم امتتاشه بنتيجة المعركة، لأن السلطان العثماني أرسل إليه رسالة تشجعه بإنتصاره على الصفوي، وعلى الغوري أن يرد عليها ليثير على نفسه حضب ابن عثمان، لأنه لو لم يفعل ذلك تأكد لسليم تحالفه مع الصفوي ضد العثمانيين.

(1) ابن إيباس: المصدر السابق، جـ٣، ص ٣٩٨.

(2) ابن إيباس: نفس المصدر، جـ٣، ص ٤٠٤.
بعد أن هزم سليم إسماعيل الصفوي في جالديان، وفتح آدم (دير بكر) وخرسيوت ثم فتح أثناء عودته الكمام ذو دبوقادر، وقتل حاكمها علاء الدولة حليف الغوري. أرسل رسالة إلى الغوري بهذه المناسبة مصوحوي برأس علاء الدولة، لكي تكون سببا في نشاطه وباعثاً على انسحابه عن حد قومه، ولكي يعلن "هذا الفتح المبين في الأقطار والأمصار من بلاد الموحدين كما هو داب الملك والسلطان"، على الرغم من أنه يعلم جيداً أن علاء الدولة كان من أقوى أنصار المماليك. ولشفية غضب الغوري على مقتل علاء الدولة لم يرد على هذه الرسالة.(1)

وفي أواخر رمضان سنة 962 هـ أرسل السلطان سليم قاصده حسن بك السلحدار إلى الغوري رسالة مصوحوي برأس وبراش خان الفراخاني حاكم ماردين وزوج أخت الشاه الصفوي، لكي يفرح بنصر الإسلام المبين.(2)

أرسل الغوري رده على هذه الرسالة، وفيها عبر عن مدى فرحته بالفتح، وأخبر سليمًا بأنه أعلن نقودًا لقادته "جمال الدين يوسف القيتنى". لكي يشرى بعض الأشخاص اللازمة لبعض المصالح المهمة في القاهرة مم العثمانيين، وطلب منه أن يرسل إليه بعض صناع الأخشاب أيضاً.(3)

لم يوضح الغوري ماذا يريد بالخبش وصناعة صرابة، ولكنّه اكتفى بالقول بأن شراء الخشب البعض مصالحنا الهامة في القاهرة. فهل أراد السلطان المملوكي أن يجهز المراكب للتصدي للعثمانيين في البحر الأبيض إنهم بدأوا بسوء؟ أم أنه كان يريد أن يستعد للك حصار البرتغالين الذي يهدد

(1) أحمد فريدون، المرجع السابق، ورقة 767 مـ.
(2) أحمد فريدون، المرجع السابق، ورقة 1587 مـ.
(3) أحمد فريدون، المرجع السابق، ورقة 1588 مـ.
موانئ المماليك ويزداد خطره بعد فشلهم في مواجهته من قبل الاحتمال الأول أقرب إلى الصواب في نظرية لأن الغوري لو كان يقصد التصدي للمماليك لقال ذلك في رسالته صراحة لكي يفرح سليم، حيث الخطر البرتغالي يزيد مع الأيام وتأثيره على العثمانيين قائم. ربما أيقن السلطان المملوكي أن الدائرة ستستمر عليه بعد هزيم سليم الشاه إسماعيل الصفوي وقضي على علاء الدولة حليف المماليك، فأراد أن يجهز المراكب لكي لا يفاجئ العثمانيون وهو لم يستعد بعد. لقد كان قتل حاكم ذولفادر أكبر أنصار المماليك عند حدودهم الشمالية منذ أربعة أشهر تقريباً. بمناسبة مؤشر وزعير بالخطر الذي ينتظر المماليك...

وعلى الرغم من أن الغوري في رسالته السابقة أخبر سليماً بأنّه فرح لمقلة وبراش خان وأقام الزينات في القاهرة، حيث قال: "ابتهجنا بهذه الزيارة كل الإبتهال وزيّنا الأسواق بأنواع الأقمشة والديباج"، إلا أنّي اعتقد أن سلطان المماليك كظلم غيظه وأسره في نفسه حيث لم يمض طويل وقت على مقتل علاء الدولة، والذي يعتبر قتله بثابة ضربة له لم يستطيع أن يرد عليها أو هو ألبزم نفسه بما جاء في مراسلات التالية مع سليم عندما أعرب له عن عدم اهتمامه بحاكم ذولفادر وترك حرية التصرف للسلطان العثماني لكي يختار الطريقة التي ينتقم بها منه.

بعد أن قضى سليم على وبراش خان نصير الشاه إسماعيل وحاكم ماردین "إعلان كلمة المماليك"، أرسل رسالة إلى الغوري يطلب منه الدعاء له ويرجّو أن يكلف الفقراء والصالحين من أهل الحرمين الشريفين "جرياً وراء العادة القديمة المأثورة عن أبيه" بالدعاء لنا أن يزيد الدين الإسلامي قوة ومنعه. ويذكر له العامل الذي ينبغي على الأمراء والسلطانين القيام به تجاه "القزمياش الملاحة المفسدين أرباب البدع والكفر والضلال". ويخبره بأنه...
لاستدعي، على ديارهم "ابتعاد مرضاة الله"، ويؤكد على المجاوء التي نشأت بينهما إرثًا واكتسابًا.(1)

الأستعداد للحرب:

أرسل سليم رسالة إلى الغوري في أوائل المحرم 942 هـ. وهذه الرسالة تعتبر ردًا على رسالة سابقة كان الغوري قد أرسلها إلى سليم، يسأله فيها عن سبب منعه للتجار والمغتربين بعد فتح البلاد الشرقية. يذكر السلطان العثماني في هذه الرسالة مسببات ذلك قائلًا أن قيامه بتأديب القزلباس لم يكن للطمع في ديارهم، ولكن كان لإظهار أذى الأنواع المشابهة والقرود المحمية، ولذلك اكتفى بتقديم شملهم على ألا يعودوا إلى ما كانوا عليه، ولكنهم عادوا إلى سلكهم القديم، فأغلق طريق التجارة الشرقية ليقطع عنهم الإمدادات، وقرر تقييدين القادمين من ديارهم ومنع العبادرين منهم. ويؤكد سليم على أنه لببس به طمع في أحد من سلاطين المسلمين أو في مملكته أو رغبة في إلحاق الضرر به.

يحدث سليم في أواخر رسالته من منطق القوة، فيقول للغوري: "إذا لم توافقنا على قيامنا بمسح أعداء الدين حسبما أوجب الشرع الشريف وأصبرتم على موقف الخلاف من هذا الأمر، فليظهر حينئذ ما خفي من التقدير الرباني والامر يومد الله".(2)

(1) أحمد فريدون: المرجع السلف، ورقة 1227، 128.
(2) أحمد فريدون: المرجع السلف، ورقة 1092، 923 هـ.
ورغم أن سليما طمان الغوري في رسالته السابقة، على أنه لن يحدث بين البلدين ما يذكر الصوف، وأنه لا يطمغ في الاستيلاء على بلد من بلاد المسلمين؛ إلا أن الغوري عزم مبكراً بتجهيزاته واستعداداته وتأكد لذلك نظره مسان الدكتوره التي كانت ترمي للاستيلاء على بلاده، وذلك قبل أن يبدأ السلطان العثماني في التحرك إلى مصر بشرين على الأقل، وقبل أن يتحرك صدره الأعظم بشهر واحد تقريباً. ومن المحتمل أن يكون هذا راجعاً إلى نشاط الجاسوسية الذي كان المماليك ميلون إلى الاعتماد عليه للتأكد من نوايا جيرانهم كما كان يفعل العثمانيون.

لم تتوفر أعضاء السلطان المملوكي بما جاء في تلك الرسالة، فقرر أن الأحوال تشير إلى أن سليما يريد مصر لا بلاد فارس، خاصة بعد أن قضى في جمادي الأول 921 هـ (1515م) على إمارة دولارمشمولة بحماية الممالك وأصبحت حдор دولته ملاحظة لحدود دولة المماليك. وذكر ابن إيس في هذا الصدد أن الغوري تحلف مع إسماعيل الصفوي لأنه أحس بخطر العثمانيين، وأرسل إليه عدة أقيال في الخفية في خسر سرح بينه وبين الصوفي.

بدأ الغوري يستعد لملاقاة ابن عثمان في حلب، فأخذ يجمع جندوه وعتاده. وفي تلك الأوقات العصيبة لم يتخلم المماليك عن عبثهم ولم يفدووا خطورة الموقف الذي أوصى أن يصف بهم جمعاً، فثار الجلبان في القاهرة لتأخير رواتبه؛ الأمر الذي أغضب السلطان الغوري، فترك القلعة واعتزل في المقياس وقال للأمراء "أنا ما بقيت أعمل سلطنتنا، ولوا عليكم من تختاروه غيري!". وقد

(1) ابن إيس: المرجع السابق، جـ5، صـ35.

تاريخ الدولة العثمانية

٢١٠
استغل المماليك الجلبيان هذه الفرصة وتمدوا في اللعب ونهبوا الدكاكين في القاهرة، واستمروا "يشوشون على الناس ويخطون العمام.. وحصول منهم الضر الشامل". وأخيراً استطاع كبار الأمراء أن يسترضوا السلطان الغوري، فأجاب المماليك قائلاً: "لا تشتموا العدو فينا، وإن عثمان متحرك علينا، ولا بـ من خروج تجريد له عن قريب".1

وفي فبراير ١٥١٦م (أول صفر ٩٢٢هـ) طلب الغوري مـن الخليفة العباسي أبو عبد الله الموتِكل على الله الثالث (تولي ١٥٠٩م، ١٠٧٦هـ) وقضاة المذهب السني الأربعة الاستعداد لمصاحبةه في سفره إلى حلب عندما صعدوا إلى القلعة لتهنئته بحلول أول الشهر الهجري مـغر.

يروي لنا حيـدر جـلبي كاتب الديوان المشهور، الذي عاصر سليماً وصحبه في فتح الشام ومصر، يوميات معارك السلطان العثماني مع المماليك، فيقول:

"عقد الديوان الهمايوني في أذении في ١٤ صفر سنة ٩٢٢هـ، وتقـدر فيه التوجه لمحاربة الديـار الشرقية (بلاد فارس). صـدرت الأوامر بـالاستعداد للحرب".2

وعلى الرغم من أن السلطان العثماني كان ينوي فتح الشام ومصر حقيقـة، إلا أنه أشاع أنه عازم على التوجه إلى بلاد فارس لمحاربة القرزابش، مما جعل حيـدر جـلبي نفسه يكتب ذلك في يومياته (روزنامه)، ولا يكتب الحقيقة. وكـان

---

1 ابن إيس: المرجع السابق، جـ، ص، ٤٨٤، جـ، ص، ٧.
2 د. سعيد عبد الفتاح عاطرو: العصر المماليكي في مصر والشام، ط، ١٨١، القاهرة ١٩٦٥.
3 انظر: حيـدر جـلبي: المرجع السابق، ورقة ١٣٥، ١٤١٢م.
هدف سليم من ذلك، أولاً: جعل اتفاق المماليك مع الفرس عديم الجدوى، وثانياً: تحقيق المباغتة لغريمه.

وبينما الغوري يقوم بالاستعداد للقاء العثمانيين، وصلت إليه وهو لا يزال في مصر رسالة من خاير بك نائب حلب، يذكر له فيها أن السلطان العثماني ينويع محاربة الفرس. ومن الجدير بالذكر أن خاير بك كان على اتصال بالعثمانيين سراً منذ وقت مبكر. ويريد من وراء رسلته إلى الغوري أن يثبط همته لكى يتمكن السلطان العثماني من مباغته والقضاء عليه. لم يركن الغوري إلى كلام نابه على حلب رغم أنه لم يشك في ولائه له. ولم يكف خاير بك بهذا، بل أورد إلى سبب نائب الشام لكي يقنع السلطان المملوكي بأن العثمانيين لن يفتروقوا في محاوربة المماليك. اتخذ سبب بكلم زميزه، وأرسل إلى الغوري رسالة بهذا المعنى، ضمنها شكاوى من الغلاء الموجود بالشام وقلة المون وعدم جدوى سفر السلطان المملوكي إلى الشام حيث قال: "إن كان العدو متحركًا فنحن له كفالة". وقد أشار سبب نائب الشام إلى خيانة خاير بك، قائلاً: "والذي يعلم به ولانا السلطان أن خاير بك ملؤي علينا" إلا أن الغوري لم يصدقه فيما قاله عن خيانة نائب حلب هذا.

وبينما كانت استعدادات الغوري للحرب تسير سيراً حثيثاً، أرسل إلى السلطان العثماني رسالة في أواخر شهر صفر 622هـ يبغي في توقف التجارة بعد فتح بلاد دولقادر. ويخبره بأنه تأكد من أن الدولة العثمانية تعد العدة لفتح الشام ومصر. ويسأله إذا كان لهذا الفعل سبب قوي يدعو لذلك لكي يقوم

(1) ابن إياس: المرجع السابق: جـ5، ص42
(2) ابن إياس: المرجع السابق: جـ5، ص4
(3) ابن إياس: المرجع السابق: جـ5، ص5

تاريخ الدولة العثمانية
712
بمنته، ويلتزم منه أن يرسل إليه رده على رسالته بسرعة إذا كان به طمع في بلاده حقيقة.

على أن سليماً قبل أن يشرع في التحرك لمحاربة المماليك، فكر في شرعة فتح مصر، لأن فتوح العثمانيين السابقة كانت جلها في ببلاد الكركر (أوروبا) أو في بلاد الملاحة القزبهش (بلاد فارس وما يتبعها في الأناضول)، ومصر دول إسلامية سنية.

عقد السلطان العثماني مجلساً خاصاً أوضح فيه خطوط السياسة التي تتبعها مصر وأحوالها الداخلية ومنوع الحكم فيها ومداهمان له. فقال الصدر الأعظم أحمد باشا ابن مرسك: "سلطاني العظيم، ينبغي عليك أن تؤدب سلطان مصر بشن حرب عليه. فعلاها أسرت في مصر، سمعت من كبار المسننولين الرسميين أنهم لا يذرون وسعاً في العمل على محو الإمبراطورية العثمانية كلية". عقب محمد جلبي ابن نشاجي خوجه على هذا الكلام قائلًا: "سلطاننا العظيم، إن ولاية الحرميين ومقام الخلافة سيؤلون إلى الأسرة العثمانية؟".

وبعد أن سمع "مفتي الأقام" شيخ الإسلام زنيللي علي أفندي = 1025 هـ (932 هـ) "كل هذا الكلام في المجلس الخاص، قال: "يعتبر ظهور العداء من جانب العدو داعياً للحرب، لهذا أفتى بشرعية التحرك على مصر وشن حرب.

الوثائق محفوظة في أرشيف طويق، مكتبة باستنبول، تحت رقم 12282 E.

1) كلمة (زنيللي) مكتوبة طبق أصلها التركي، وهي مكونة من الكلمة المجردة (زنبيل) وهو معروف في العربية، ثم اللاحقة التي تنبيه ياء النسبة في العربية أو تدل على العرفة، وهـ (إلى) والكلمة كلها يعني: حامل الزنبيل. هو علي جمال أفندي المشهور بين الناس بزنيللي علي أفندي (Dr. Ismail Hakkı: Geçen Eser, cilt, s. 666)

تاريخ الدولة العثمانية

213
.aliha, لأن أهلها قطاع طرق. وال الحرب والقتل معهم غزو وجهاد، فأتىهم غازي ومرابط، والمقتول على أيديهم شهداء ومجاهدون.  

وفي 25 ربيع الأول 922 هـ عبر الصدر الأعظم سكان باشا مين استانبول إلى إسكندر متجاهلاً نحو البلاد الشرقية على حد قول حيدر قلبي.  

وعندما وصل إلى قبضيرية، جاء الأمر من السلطان بالتركيز فيها لحين صدور أوامر أخرى.  

أمر الغوري عساكره بالخروج قبله إلى الريدانية. وأثناء تمركزه في العباسيه، جأته رسالة من خاير بك تتم عن الخدمة التي دبرها سليم العثماني وعمله خاير بك، فقد أوضح خاير بك أن قاصداً جاها من قبل السلطان العثماني للتفاوض في أمر الصلح، ومع رسالة خاير بك كتاب من السلطان سليم كله ألقاها رقيقة منقفة فيه يقول سليم الغوري: "أنت والدي وأسألك الدعاء، وإني ما زحت على بلاد علاء الدولة إلا بإذنك، وكان قتيه عين الصواب، وأما التجار الذين ينجلبون المملاليك الجراكسة فإني ما منعتهم وإنما هم تضرروا من معاملتي (المملالية) في الذهب والفضة، فامتنعوا عن جلب المملاليك إليكم، وأن البلاد التي أخذتها من علاء الدولة أعيدها لكم، وجميع ما ترونه يرده السلطان فعلاً.

---

(1) Muallim Fuad Gümüyener: Geçen Eser, cilt 1, s.128-130.

Abdülkadir Altunzu: Osmanlı, Şeyhüislamları, s. 14 Ankara 1972

(2) حيدر قلبي: المراجع السابق، ورقة 141-142.

(3) إبراهيم طرخان: مصر في عصر دولة المملاليك الجراكسة، ص 177 الخرطوم 1959 نقلاً عن: ايمان إيس: المراجع السابق، ج 2، ص 20.
تحرك السلطان الغوري من مصر إلى الشام في 18 مايو 1516م (ربيع الآخر 922هـ) وكان معه الخليفة والقضاء الأربعة، بعد أن أُلْتِحَ عنه أثناء غيابه الأمير طومان بأي، ثم وصل إلى حلب في 11 يوليو 10 جمادى الثانية، ولهذا اعتُبِد جيش المماليك على الأهلية بوجشية. وكان ذلك سبباً فيما بعد في قيام أهل حلب مع السلطان سليم على الجراكسة، لتشهد ما حل بهم من الضرور منهم.

تحرك السلطان العثماني من قصر طوبققو سرابي في يوم الخميس 5 يونيو 1516م (24 جمادى الأولى 922هـ) وقيل تتحرك يوم واحد. أرسل رسالة إلى الغوري رداً على الرسالة السابقة التي أكد فيها الغوري على ما يزعج السلطان العثماني القيام به من غزو لبلاده.

يقول سليم في رسالته التي حملها رسوله مع بعض التحف والهدايا التي كانت عبارة عن ألوان وأقمشة كثيرة: "إن الطائفة الطاغية والقسطة البائسة (القرطبش) التي اجتمعت في البلاد الشرقية، حصلت منها أذى للعباد وتخريب للبلاد وسفك الدماء المحصنة. فلا جرم تضاعفت الأجور في غزوهم وجهادهم. وتروم حسمهم واستنجالهم. ولقد لنا نزلنا في السنة الماضية على رأس رئيسهم (إسماعيل الصوفي)، لكنه نجا برأسه من حومة الوعي (في معركة جالديران)، وشبت بيد القرار. فلم تحمس في البلاد مادته شرهم ولم يأمن الناس من بقية شرهم، بل تدب عقاربهم إلى المسلمين. فلزم لهم أن تثبت قدم الإقدام وتهتم بأمر الانتكام. فهُجِزا بهذا المهم عسكراً جراً، يضمنون على الخصم عند اللقاء والهجوم. ويلتمس سليم من الغوري في نهاية رسالته إمداده.

الوثائق محفوظة في أرشيف طوبققو سرابي، باستقبال تحت رقم E11634. E.
الفصل الرابع: فترة العصر الذهبي

بصالح الدعوات، وإرسال الخبر إلى أهل الحرميين المعظمين المبجلين في أمر
السجال بالتصرغ والابتهاج، لإعلان كلمة الله العليا. (1)

كان سليم يريد الاستيلاء على السلطنة الملكية حقيقية، وما كان يريد أن
يحارب الفزاءش كما ذكر. وإنما قاله السلطان العثماني في رسالته السابقة
ليطمن به الغوري، كان لمجرد التمويه عليه، ولزيادة التمويه أرسل إليه تحفًا
وهايا مع الرسالة، كما التمس منه في نهايتها الدعوات الصالحة له، لذا يأخذ
جذره ويستعد الاستعداد الملائم لمعركة قد تكون فاصلة. وقد أثر سليم هذه
الطريقة، لأنه كان يخشى المماليك وقوتهم، ويحسب حساب ذلك. فلا تزال في
ذكرته انتصاراتهم المتكررة على العثمانيين أيام أبائه وأجداده، على الرغم من
تغيرة ميزان القوى في المنطقة لصالح العثمانيين بعد معركة جالديران وهزيمة
الصوفي وفراره.

وعلماً وصل السلطان العثماني إلى قونية أرسل إلى الغوري رده على
الرسالة التي كان قد أرسلها إليه مع جمال الدين بوسفة الفيتن في العام
الماضي 961هـ.

يخاطب سليم الأول الغوري في رده إليه الذي حمله الفيتن، قائلاً: حامي
الحرميين المكرمين المبجلين المعظمين نصير الإسلام والمسلمين ظهير أمير
المؤمنين أبوى سلطان غوري أمير الله تعالى أنصاره. صدرت أمورنا العالية
للخشب الباقية من السنة الماضية التي لم يسع حملها جفانكم أن يقبض كلها
في قيامكم. وأما بخصوص صناع الخشب، فلاحچب هذا المطلب لعذر قوي، وهو

(1) خلال زادة فوجه نشائي مصطفى: المرجع السابق، ورقة 126، 1719.
أن آرإعنا الصائبة اقتضت أن نعمر مائة مركب كبير لتخريب بيوت من قـالوا:
"اتخذ الله وليداً"، والمقام العالي ينبغي أولاً يحمل ذلك على التنصير والفاتور
وغيـر ماء الحب الموفور وخمود جمر الود المبرور(1).

رد الغوري على رسالة سليم، قـالاً: ورـدت رسالتك واطعنا على ما فيها من التحية والسلام، فوجدنا مضمونها منبئاً عن توجهكم العالي إلى البلاد الشرقية لدفع الملاحة القزيلباشية، فضاورنا أمراعنا في القاهرة فاتفقوا بالآراء الصائبة على أن نتوجه إلى تلك الحدود بالمسار والجنود لنصلح بينكم. فعزمنا بالمسير والرحلة نحو الحلب والشام. فالمرجو من خصائصكم الحميدة ألا تسارعوا إلى التوجه إلى تلك الولاية لأن أكثر أهلها أهل السنة والجماعة وأغلبهم خيار علماء هذه الأمة. وقد سمعنا من أكثر البارزين من هذه الديار إلى الحرمين الشريفين أن إسماعيل الصوفي المخوذ لما هرب عن محاربكم الشديدة قرر بنفسه اللثيمه ألا يتقالب معكم قـط. فإذن لا تظـهر الفائدة في توجهكم إلى دفع حيلة غير مضرة الرعايا.

والمناسب لنا أن نصلح بينكم لرفاهية الأئام، على أن نكم مهمات كثيرة غير هذه مثل فتح رودوس وأمثالها. وقد أرسلنا قدوة الأمجاد محمد ربيعا إلى سدكم السنة لتمهيد أسباب المصالحة(2).

يبدأ سليم الرسالة السابقة باستعراض لقوته وتسخيرها في سبيل الله ونصرة دينه على غير العادة في الرسائل التي سبقتها.

أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة 688، 1090 هـ.
أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة 692، 1592 آه.
فترة العصر الذهبي

وهذه الرسالة تعتبر رسالة تمويه وتضليل كذراع الرسالة السابقة عليها، فلهجتها
رقيقة يصف فيها السلطان العثماني الغوري بأنه لب له كالعادة. ويُخبره بأنه
سارع إلى قبول طالبه الخاص بالخشب على قدر ما قدر الله ويسر.

ويُعتبر له بعذر قوي - والطهر عند كرام الناس مقبول - عن إرسال
صناع الخشب إليه، لأنه بيني مراكب كبيرة لتخريب بيوت الكفاف.

أرسل سليم هذه الرسالة إلى الغوري من مدينة فوليه بعد أن تأكد له أن
السلطان المملوكي لن يشكي في نواياه نحوه، حيث أن السلطان العثماني مر بنفس
المكان وهو في طريقه إلى بلاد فارس منذ عشرين تقريباً لقتال إسماعيل
الصفوي، ولا يمكن أن يتعلم من هذا المكان بالانعكاس الذي يريد السلطات العثمانية
أن يسلكها، هل يريد التوجه إلى الغوري أم إلى الصفوي؟!

ومن المحتمل أن يكون تأخير سليم في رده على الغوري - حيث كان
خطاب الغوري إليه منذ ثماني أشهر - مقصوداً، لتأخير إرسال الأخشاب التي
طلبت لكي لا تبين بها سفن على عجل وتستعمال ضد العثمانيين إن هم ضُموا
على المماليك حرباً.

بعد أن تحرك سليم لمحاربة الفرس بوقت قصيرة، أرسل للشام إسماعيل
الصفوي أربع رسائل متواضعة، كانت كلها عبارات عن تهديد له ورعد بوم اللقاء.
وقد اختلطت هذه الرسائل كثيراً في لهجة التهديد التي أخذت تزداد حدتها كلما
اقتراب يوم الصدام بين الطرفين. وعلى هذا لم يُباغت الشام إسماعيل أو يُفاجأ أو
ينشئ في نوايا ابن عنبان.
وعندما أراد السلطان العثماني التوجه لمحاربة الغوري نشر الأخبار الكاذبة عن وجهته الحقيقية مدعياً أنه عازم على محاربة الفرس، كما أرسل إلى الغوري رسائل مليئة بالأخلاق المحسولة مصحوبة بالنحت والهدايا، للتمويه عليه وضمه. ولكن الغوري، على عزمه على التوجه إلى البلاد الشرقية لمحاربة القز使い، رد الغوري على رسالة سليم برسالة تدل على مكر شديد وعدم اتخاذ التمويه الذي قام به السلطان العثماني. فذكر له أنه شارك أثناء ديوانه في القاهرة بخصوص ما جاء في رسالة سليم الأولى، علماً بأنه كان في ذلك الوقت بالشام وليس في مصر بعد العدة ويرتب الصفوف لقاء مرتفع مع جيوش العثمانيين. أخبر السلطان المملوكي سلطان العثمانيين بأن آراء الأمراء اقتضت التوجه بالعساكر إلى الشام واللبن، فليصل بين العثمانيين والصقوريين لرفاهية الأذين، ولا شك أن الغوري قصد من هذا أن يميه هو أيضاً على سليم، ولا يخبره بنواياه الدفاعية عن بلاده واستعداداته لاحتمال نشوب الحرب بينهما، فما لزوم العساكر إذا كان قصد الغوري العمل على عدم صلح بين سليم والصقوري؟! أوهيم السلطان المملوكي سلطان العثمانيين في رده بأنه صدق ما جاء في رسالته إليه من أنه ينوي محاربة الفرس لا المماليك.

وفي 10 جمادى الثانية 922 هـ - وصل الغوري إلى حلب.

وفي 26 جمادى الثانية (27 يوليو) بدأ سليم يدخل الأراضي التابعة للمماليك، فوصل إلى "عين سلطان" من توابع بلاد العرّب. وأصبح بهذا لا يستطيع التمويه على الغوري مرة أخرى، فقد أصبحت وجهته واضحة ومعروفة، ولم يعد هناك مجال للشك فيها. ويمكن الاستدلال على عزم السلطان العثماني الحقيقي على محاربة المماليك، بعد أن ترك قونية وسلك طريقاً آخرًا.
إلى الشمال الشرقي غير الطريق الذي سار فيه بعد أن وصل إلى قونية في
المرة السابقة عندما أراد أن يحارب إسماعيل الصفوي.

سار سليم إلى الشمال الشرقي هذه المرة لكي يتجنب عبر جبال طوروس
الشاهدية، ثم اتجه إلى الجنوب عندما بلغ طرفها الشمالي، ووصل إلى ألبستان.(1)

ويبدو أن السلطان العثماني أحس من رد الغوري على رسالته السابقة
ومن المعلومات الواردة إليه من جواسيسه عن تجمعات للفتنة المملوكية في
حلف بأن السلطان المملوكي بعلم بكل تحركاته ونواياه، فكأن أن هدده فسي
الرسالة التالية صراحة وأعلنه بالحرب.

أرسل سليم رسالة التهديد هذه وهو عند وادي توجان في أواسط رجب
922 هـ. وفيها يلوم الغوري على أفعاله، ويظهر له عدم خروفه منه مهما فعل.
وينذر له أنه كان متوجهاً أصلاً إلى الديار الشرقية، ولكنه عدل عن ذلك وتوجه
إلى الديار المملوكية نظراً لما علم به من تحالف الغوري مع إسماعيل الصفوي.
ثم يتحدث سليم الغوري، ويقول له إننا استولينا على بعض ديارك وهي مملكة
ولارنده وديوركي وشامكوي وجميع توابيعها، وألتفتنا الآن إليك. وبخاطبه
باستفزاز وتحذير اللهجة فيه استعراض للقوة وتعبير عن الغيظ، حيث يقول
له: "إن كنت لديك مرة من الحمية وقدر من الرجولة ونصب من الفتوة وفي
قلبك جرأة وشجاعة خاصة، فلا تتوعد في زاوية الخوف والرحب. واستعد أنت
ومع جميع أعوانك وأتصارع، ولا تهرب من جرح السيف والطير". ويلبج التحدي
والاستفزاز مداه حين يقول: "إذا ظهر أمامك أي موقف سهل عليك اتخاذه، فلا

(1)
عندما تحرك سليم لمحاربة الفرس 920 هـ، مر بسكيك وتم إزميل فنلندية، واتجه بعد ذلك نحو الشمال الشرقي فمر بسوسا وأورناتشتا فأوميض وطرابلس...
تتأخر في السعي إليه، وإذا كانت لديك ذرة من الحمية، فعليك أن تعين الأسلاوب الذي تريده والقصد الذي تبغيه، وأن تحدد المكان الذي تقصد إليه، لكي تلاقى جنودي الذين يعودوا على النصر. (1)

معركتا مرج دابق والريانية:

الجيش الملوك وعثمان في ضحى يوم الأحد 24 أغسطس 1516م (25 رجب 922هـ) في مرج دابق، ودارت بينهما معركة طاحنة، لعبت فيها خيام خائر بك دورها، حتى هزم المماليك وسقط سلطانهم الغوري ميتاً. ولاحظ شائر النصر العثماني في عصر اليوم نفسه بعد ثمانية ساعات من بدأ القتال تقريباً. (2)

قبل أعيان حلب ومشاري قبائلها السلطان سليم وعرضوا عليه الطاعة والولاء وسلموه مفتاح القلعة. (3) دخل السلطان المدينة في يوم الجمعة غرة شعبان (29 أغسطس)، وأقام صلاة الجمعة في جامع الملك الظاهر.

قررت الخطبة باسم السلطان العثماني، وقد وصفه الخطيب بـ "مالك الحرمين الشريفين"، فنهض سليم من مكانه واقداً، وقال: "من أنا حتى أكون مالكاً للحرمين، إنني أختار بأن أكون خادم الحرميين لا مالكهما". (4)

لحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة 93, بـ 594-595، ب. (1)

لمزيد من التفاصيل انظر: أحمد فؤاد متولي: الفتح العثماني للشام ومصر، ومقدمته. (2)

جلال زادة: فوجه تشكيك مصطفى: المرجع السابق، ورقة 132، 1936. (3)

لحمد راسم: المرجع السابق، حلقة 31, 197, 297. (4)

تاريخ الدولة العثمانية

271
بعد ذلك أخذت بلاد الشام تتساقط الواحدة ثو الأخرى في أيدي السلطان العثماني دون مقاومة حتى وصل إلى دمشق. وفي 15 شوال (10 نوفمبر) أرسل سليم وهو في دمشق رسالة إلى سلطان المماليك الجديد طومان باي، يطلب منه أن يجيء هو ومن معه إلى عتبته السنة ليعرضوا الطاعة والولاء، ويطمته على مستقبله، وذكر له في نهاية الرسالة أنه أرسل إلى جان بـردٍ الغزالي في غزة بنفس الخصوص، لكي يقدِّم ومن معه الطاعة والولاء.

لم يجد سليم مغراً من إكمال مهمته بعد رفض طومان باي لملاليته الخاصة بإعلان الطاعة والولاء حقناً للدماء، وذكر ابن زنبل أن السلطان سليماً لم يكن ينوي فتح مصر، فبعد أن أستولى على دمشق، فكر في العودة إلى بلاده، لولا تحريض خاير بك.

وفي 26 ديسمبر (7 ذي الحجة) تلاقي القائد العثماني سنان باشا مع جان بردي الغزالي في جاجوليا بالقرب من غزة، ودارت بينهما معركة حامية انتهت بهزيمة جان بردي وفراره.

تذكر المصادر التركية المعاصرة للفترة أن الغزالي هرب بعد هزيمته في غزة، وتذكر المصادر العربية التي عاصرت الفترة نفسها أن الغزالي أسـر ولكنه تمكَّن من الفرار فيما بعد أو بالأحرى سهل له الفرار على ما يبدو، نظرًاً

(1) جلال زاده: فوجه نشاطي مصطفى: المرجع السابق، ورقة 133، ص 135.
(2) ابن زنبل: المرجع السابق، ص 42.
(3) مترجحي نصوص: فتح نامة ديار عربي، مخطوط وحيد في مكتبة تور غلابية في استنبول، رقم 87، ورقة 264.
(4) حيدر بركي: المرجع السابق، ورقة 143، ص 160.
لثبت تواطئه مع العثمانيين، وقد أطلع الغزالي خاير بك على خطة طومان باي العسكرية وعلى الطرق التي يجب على السلطان سليم اتباعها لقهر المماليك، وذلك قبل المعركة الحاسمة في الريذانية.1

يقول السلطان سليم في رسالة الفتح التي أرسلها إلى ابنه الأمير سليمان في معرض حديثه عن معركة غزة: "أبدى جان بردي المذكور بعض المظهر الإخلاص في هذه النواحي (غزة)، ثم تراجع وهرب إلى مصر، والتقى بطومان باي".2

يبدو من كلام سليم أن الغزالي ساعد على انتصار العثمانيين في غزة، ثم تراجع بعد أن تحقق النصر للعساكر العثمانية وهرب إلى مصر. وربما رجع إلى مصر ليعمل من وراء خطوط المماليك لصالح الجيش العثماني. ولم تحدث من الغزالي خيانة لما كرمه السلطان العثماني وأخلع عليه عندما ذهب إليه يعرض الطاعة والولاء بعد دخوله القاهرة، ولم أعطه بعض الأمراء هدايا ثمينة بعد انتصار سليم على طومان باي في المعارك التي دارت في الريذانية في داخل مدينة القاهرة.3

---

1 ابن إسحاق: المرجع السابق، ج5، ص118، 149، 149، 149، 149، 149، 149، 149. 
2 ابن طولون: إعلام الورى (تحقيق عبد العظيم خطاب) ص 21، القاهرة 1973. 
3 أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة 94، ص 94، 94.
في يوم الخميس 27 يناير 1517 هـ (29 ذي الحجة 927 هـ) تلاقي الجيشان المملوكي والعثماني في الربضانية. ودارت بينهما معركة حامية، انتهت بهزيمة المماليك وفرار سلطانهم. ولكنه عاد ودخل القاهرة مع جنوده، ودارت بينه وبين العثمانيين عدة معارك داخل المدينة. نجح سلطان المماليك ناجحاً مؤقتاً في قتاله، ولم يستطع أن يستمر في القتال رغم ما أحرزه نظراً لأنفضاض الجراكسة من حوله، فولى هارباً مرة أخرى. ثم عاود الكراة، وبدعا ولياً لله، ولجأ إلى حسن بن مرعي في مدينة سخا بالعربية. وقد بلغ ابن مرعي السultan سليم عنه، وتم القبض عليه، وشنق على باب زويلة في 13 أبريل 1517 م (21 ربيع الأول 927 هـ).

انضمام الحجاز إلى الإمبراطورية العثمانية، وتسليم الآثار النبوية الشريفة:

أمر السلطان سليم بكتابة رسائل للتثبيث بالفتح ومنح الأمان مصحوبة بفرمانات إ إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة ودولة وينبع، في يوم الجمعة 13 فبراير 1517 هـ (21 المحرم 927 هـ) قبل دخول القاهرة بيومين. بعد قيام جنوده بتطهيرها. وبعد أن استنبط الأمير لسليم في القاهرة، أرسل شريف مكة زين الدين بركات (حكم 1497 - 1525 م) ابنه أبا الحسن ومعه مشايخ طواتف وصل الأسطول العثماني إلى شواطئ الإسكندرية بعد دخول السلطان سليم مصر، وقد حمل هذا الأسطول العثماني إلى جنوب الساحل، الذي يشمل شواطئ فلسطين والمغرب، وتم التدخل في المعركة، وتمت الاستعدادات للخليفة العثماني المدعو "العثمان" (Stanford Show: Op. Cit., P. 85)

(1) حيدر جابري: المراجع السابق، ورقة 150.

تاريخ الدولة العثمانية 274
الأعراب للتهنئة بالفتح وعرض الطاعة والولاء، فأخذ السلطان عليهم وأحسن إليهم جميعًا.

بعد أن قبِل السلطان سليم طاعة شريف مكة زين العبادين بركات التي قدمها ابنه، أرسل إليه الشريف ابنه الأكبر محمد أبا نمي يطلب خلعته وإبقاءه في حكم بلاده. وعندما علم سليم بقدوم محمد أبا نمي إلى القاهرة في يوم الجمعة 3 يوليو (3 مجمدى الثانية)، أمر بإرسال الأغراض لاستقباله. وفي اليوم الاثنين استقبل السلطان ابن الشريف مكة استقبالاً حافلاً. وبعد ستة أيام قدم محمد أبا نمي الطاعة والولاء وبعض الهدايا للسلطان سليم. ثم سلمه مفاتيح الأمان المقدسة والآثار النبوية الشريفة الموجودة في مكة المكرمة والمدينة المنورة. وهكذا

أحمد فريدون: المرجع السابق، ورقة 94-95쪽. (1)
جمال عجمي: المرجع السابق، ورقة 143-146ص. (2)
مرقجي: المرجع السابق، ورقة 176، ب. (3)

بعض الآثار النبوية الشريفة التي حملها ابن الشريف مكة وسلمها إلى السلطان سليم في القاهرة:

- البردة النبوية الشريفة
- مقبرة النبي صلى الله عليه وسلم
- مسجد الن비 صلى الله عليه وسلم
- مقبرة السعداء الفرعونية ومقطورة
- نصب رواج على الإسلام وطاعته فاضي لمقامه
- نصب رواج على السلام
- نصب رواج على السلام
- نصب رواج على السلام
- نصب رواج على السلام
- نصب رواج على السلام
- نصب رواج على السلام
- نصب رواج على السلام

تاريخ الدولة العثمانية
النسرة: فترة النصر الذهبي

صفح جامع الطيار رضي الله عنه
صفح شرحبيل بن حصن رضي الله عنه
صفح أواس القراني رضي الله عنه
مقبض السيف السنة الخاصة بالعمرة الموسوم بالجنة
قيعة مكة المكرمة

(دعاء رفع: المرجع السابق، حاشية ص 219 - 221)

لائرزلا بعض هذه الآثار النبوية الشريفة التي جاء بها السلطان سليم والتي أتى بها آخرون من
سلطانين العثمانيين من بعد، محفوظة حتى اليوم في جناح الأمام المقدسة (أملت مقتضية دارسة
سي) يحتفظ طريقهم سراً بአستأبول، وهي: سيف النبي صلى الله عليه وسلم وقصماً، وسبيف
المحلولة رضوان الله عليهم.

السبيعية الشريف: يعتبر البريق الشريف من أهم الأملاك المقدسة، ويطالع عليه العثمانيون (سندق
شريف). كان السلاطين العثمانيون وقادتهم يحملون هذا البريق عندما كانوا يخرجون على رأس
جيوشهم للحرب.

رسالة محمد صلى الله عليه وسلم التي بعث بها إلى المقربين تقدير القبل في مصر (عثر الرفاسي
بارلماني على هذه الرسالة التي كتبها سنة 737 م بين صفحتين إنجيل في أحد الأدبية
في مصر سنة 1580، ومنذ ذل ذلك حديثه منها إلى السلطان عبد المجيد)
أثر قدم النبي صلى الله عليه وسلم على المرمر: (عثر أحد قواد الجيش المغربي ويدعي أحمد بيك
على هذا الأثر في طرابلس المغرب، وقدمه إلى السلطان عبد المجيد في مسائأب 1847، فكماً
السلطان بعده وآرية عشر فرسًا).

سنة النبي صلى الله عليه وسلم: (عبارة عن جزء من إحدى أسال النبي كسرت أثناء معركة أحد).

شعلة من نعي محمد صلى الله عليه وسلم.

البردة النبوية الشريفة: (أخضره السلطان سليم الأول يبدأ أن فتح مصر) وهي ألمع هذه الأثر
ويحتفظ بها الأثر كحالة في صندوق من الذهب الخالي خلف القبضان في الجناح المذكور.
خطم محمد صلى الله عليه وسلم
نزب أن محمد صلى الله عليه وسلم
معظم الجهر الأسود من الذهب، وأخرى من البضعة (لا يعرف أي السلاطين العثمانيين أمر يصنعهما
ولا أيهم أتى بهما إلى استقبال)

مصاعب بن نبيتي: (أخضره السلطان مولد الثالث إلى استقبال سنة 1592) بعد أن وضع آخر

مكمله: نسبة من القرآن الكريم بخط عثمان بن عفان: (كمتوبية على رقى غلال عليها قطراً من التم مسند
أنثر طمس السيف التي تلفها عثمان عندما كان يقرأ فيها، وهذه النسخة أهداء السلطان وقدمه
المولوي إلى السلطان مولد الثاني في 20 ذي الحجة سنة 848هـ).

том 166 تاريخ الدولة العثمانية
أصبحت الحجاز تابعة للإمبراطورية العثمانية.

أقر سليم حكم الحرمين الشريفين على ما هو عليه، وبعث مع محمد أبي نمي رسالة بالعربية إلى أبيه، تتضمن الموافقة على أن يكون حكم مكة في الشريف بركات وابنه الأكبر محمد من بعده.

السلطان سليم يفكر في جعل الدين الإسلامي دينًا للإمبراطورية العربية لغة لها:

بدأ السلطان رحلة العودة إلى استانبول في يوم الخميس 19 سبتمبر 1517 (23 شعبان 923 هـ) بعد أن قضى سبعه أشهر وثلاثة وعشرين يومًا بالحساب الهجري. ووصل إلى استانبول في يوم الأحد 25 يوليو 1518 (17 رجب 924 هـ).

وبعد عودة السلطان سليم من فتح الشام ومصر، ارتأى له أن يجعل جميع المسلمين في الإمبراطورية العثمانية يهتدونبالإسلام بالقوة أو عـن طريق الإقناع، وقد ذهب إلى أبعد من ذلك، حيث فكر في أن يتخذ من العربية لغة للإمبراطورية كافة.

ثلاثة مزاويب: (أحدها من الفضية أمر بصنعه سليمان القانوني، وأخر من الذهب أمر بعمله أحمد الثالث، والثالث من الفضية صنع في عهد مراد الرابع، ولا يعرف من أين بدأ إلى استانبول بعد أن أهديت إلى الحجاز.)

Kemal Çığ: Topkapı Müzesi Mukaddes Emanetler Resimli Rehberi, s. 3-45. İstanbul 1950

(1) انظر خريطة "الإمبراطورية العثمانية" في عهد السلطان سليم الأول ضمن قسم الخرائط والتوهاج رقم(16).

(2) جل زاده فوجيه تشنجي مصطفى: المرجع السابق، ورقة 441، 1444.
ولكن شيخ الإسلام على جمال أفندي (المشهور بين الناس باسم زينبلي على أفندي) ت 1025 هـ = 1622 م) اعترض على ذلك، قائلًا: إن خطوة كبيرة كهذه لا يمكن أن تتخذ دون صدور قرر بشأنها. إن حرية الوجود والعقيدة التي منحت من قبل السلطان محمد الفاتح، لا يمكن أن تلغى. وبعد نقاش طويل وحاد تضمن سرداً للقصص المروية التي توارت في هذا الموضوع، ارتقب السلطان سليم في صحة هذه الحروب. فجاء جمال أفندي في حضرة السلطان بثلاثة من الانتشارية الذين خدموا كجنود في عهد الفاتح، وأصبح عمر الواحد منهم يفوق القرن من الزمان، ثم سألهم تجربة، كي يدقوا بشهادتهم، فأقرروا جميعًاً بأن هذه الحقوق منحت في ذلك العهد. وعند ذلك تخلى السلطان سليم عن رغبته ومنيته في توحيد عقدة الإمبراطورية العثمانية بالقوة.

التغيرات الاتجاهات في عهد السلطان سليم الأول:

كانت فتوحات الدولة العثمانية قبل عهد سليم الأول تتجه نحو البلقان وأوروبا (بلاد الكفر)، ثم بدأت في عهد سليم تتحول جدياً نحو الشرق والجنوب الأول مرة في تاريخها. لقد كان شاغل "الأمير سليم" أيام أن كان والياً على طرابزون على عهد أبيه، هو الخطر الصفوي الزاحف تجاه وسط الأناضول في صحن أملاك الدولة العثمانية؛ لهذا بذل كل ما في وسعه بعد أن اعتلى العرش.

---


كان علي جمال أفندي يعارض السلطان سليم أحيانًا، رغم عند الآخر وإقامته على البطش والقتل بسرعة. وواجهه في بعض المواقف بأحكام الشرع الشريف، ويتوقعه برلميه في كثير من الأوقات. وكان يتحمل غضب السلطان والغالب الشديد بحجة وأوروبية.

Dr. Ismail Hakki: Geçen Eser, cilt. I, s. 666-667

انظر: (868)

تاريخ الدولة العثمانية

228
خلفًا لأبيه، لكي يوقف هذا الزحف الذي كان خطراً بهد الدولة العثمانية من جهة الشرق.

أدت دعوة الصفويين إلى المذهب الشيعي في شرق الأناضول إلى نمو روح الحرص بين الناس في تلك المناطق وانتشار المذاهب والمشارب المختلفة بينهم. وهكذا المذهب الشيعي الأسرة العثمانية نفسها، فقد وقع تحت تأثير الدعاء لهذا المذهب الأميران شهنشاه ومراد ابن الأمير أحمد أخي السلطان سليم. وهذا معناه تهديد الدولة العثمانية من الداخل فضلاً عن تهديدها من الخارج، هو تهديد سياسي لها من داخلها فضلاً عن أنه تهديد ديني لها من خارجها.

كان الوضع إذن يستوجب من سليم أن يتخذه خطوة حاسمة لردع الصفويين الذين استشري خطرهم.

وأول شيء قام به السلطان سليم هو إحكام الحصار حول القزليش في الأناضول، ثم أعمل فيهم القتل بعد أن استصدر فتوى من المفتى بوجوب قتل القزليش لأنهم ملاحة خارجون على الدين الإسلامي.

توجه السلطان العثماني لقتال الصفويين في بلاد فارس، وقد تمكن من دحرهم في موقعه الجالديران، ثم تقدم بعدها حتى استولى على عاصمة ملكهم تبريز. وبعدها، اضطر إلى الرجوع إلى بلاده بسبب تمرد الانكشارية عليه عدة مرات لتمسكه بتبني الشاه إسماعيل الذي لم يثبت أمامهم وهرب بعيدًا في الجبال.
وفي المناطق الوهرة. وهناك سبب آخر يسهوه "أحمد أسرار" عن سبب انسحاب
سلم من بلاد فارس وهو خوفه من هجوم مماليكي مرتب. (1)

وهكذا لم يضع النصر في جالدين نهاية للأسرة الصفوية، ولكنه أضعفها
وأوقع عليها الجزاء، وأوقف الخطر الشيعي في الأناضول وجعله بنحر عـ.
هـ هذه المنطقة ويعود إلى موطنه الأصلي بلاد فارس.

لم يقبل سلهم عقد صلح مع الشاه إسماعيل الصفوي بعد معركة جالدين،
لأنه كان يريد أن يعود إلى الحرب معه مرة أخرى بعد فتح مصر على حد قول
إسماعيل حقي أوزون جارشيلي. عندما وصل السلطان العثماني إلى دمشق أثناء
عودته من فتح الشام ومصر، جاءت رسالة من الشاه مصحوبة ببعض الخـدايا،
مؤدواها: "ملكت كثيراً من البلاد والثـبـعة. استوليت على مصر خاصة، وأصبحت
خادم الحرمين الشريفين"، والآن أرضك أرض الإسكندر. لقد زال ما كان بيننا،
ولن يعود مرة أخرى. عد إلى مملكتك، وأعود إلى مملكتي. فلنـصـنـدماء
المسلمين سوياً. إنني سأحقق رغبتكم ومنبتها آيًا كانت."

لكن السلطان العثماني لم يطمئن إلى هذه الرسالة المعوسلة، ولأن جنوده
تعقبوا لطول معركتهم مع الجراكسة فإنه لم يتوجه بهم إلى بلاد فارس، وأكتفى
وهو عند مرج دابق أثناء عودته بإرسال الصدر الأعظم يبرى محمد باشا على
رأس ألفي جندي إلى ديار بكر لمراقبة تحركات الشاه عن قرب. وصل الصـدر
الأعظم إلى الغزوات الأعلى، واطمئن على استقرار الأحوال هناك عند الحدود مع
الصفويين، ثم عاد واحق بالسلطان سليم في الأناضول. (2)

(1) Ahmet Astar: Osmanlı Devletinin Dini Siyaseti ve İslam Alemi, s. 25 Istanbul 1972
(2) Dr. Ismail Bakki: Geçen Eser, cilt 2, s. 285,296.
وإذا كان سليم قد حارب إسماعيل الصفوي المسلم، فإن العثمانيين يعتبرون الشيعة ملاحقة ينبغي قتلهم ودميرهم.

والسؤال الذي يدور في الأذهان هو: لماذا اتهم سليم ولأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية لفتح دولة إسلامية سنية كدولة المماليك؟

لقد كانت دواعي الفتح كثيرة ذكرتها تحت عنوان أسباب الفتح. ويعتبر فتح الشام ومصر أطول معركة حربية خاضتها الدولة العثمانية، فقد استغرقت أكثر من عامين. وضمت بلاد الشام ومصر والسودان حتى كمسيلة. وقد بلغت مساحة الإمبراطورية العثمانية في عهد سليم قرابة ثلاثة أمتار مساحتها في عهد أبيه (1) حيث تصل سليم كل هذا الفتح خلال أربعة أعوام فقط من حكمه تمتد من 1514 - 1518 م. (2)

أما أرطيريا وزنزبار واليمن فقد دخلت ضمن التبعية الأسمية وكذلك الحال بالنسبة للجزائر التي تبعت الدولة العثمانية بفضل بربروسا.

ويروي البعض أن الفتح العثماني أدى إلى التوتر العربي من توغلف النفوذ البرتغالي في المياه العربية بعد أن فشل المماليك في إبعاد خطره عن المنطقة. فيعد فتح مصر ركز العثمانيون اهتمامهم على بناء قاعدة بحرية في السويس

(1) Yılmaz Öztuna: Geçen Eser, cilt 5, s. 67.
(2) Yılmaz Öztuna: Ayni Eser, Ayni Yer

كتبت مساحتها في عهد أبيه تبلغ 437500 كم²، ولقبت في عهده 5877000 كم² من شرق 275000 كم² منها 1770000 كم² في أوروبا، 100000 كم² في آسيا، 29000 كم² في أفريقيا. وقد كانت مساحة ولاية مصر وحدها سنة 1526 بلغ 150000 كم² من جانب آخر لم تدخل ضمن هذه المساحة البلاد التي تبعت الإمبراطورية العثمانية.

تبعة اسمية.
على أنقاض القاعدة المملوكية، تكون مرتكزاً لهم لضرب البرتغاليين في المياه العربية الجنوبية والمحيط الهندي.

وبعد أن سقطت الشام ومصر في يد العثمانيين وضمت الحجاز وتقوست دولة المماليك، شرعوا في السيطرة على بقية البلاد العربية.

بلغت الدولة العثمانية أقصى مدى بلغته في القوة في عهد عاصر سلاطين آل عثمان سليمان القانوني (1) (تولى 1520 – 1566 م = 926 – 974 هـ).

وقد اتفقت القيمة في هذا العهد إلى الاستيلاء على بعض مناطق أوروبا وشمال أفريقيا وبعض المناطق العربية الأخرى كالهند وعند والعراق والصيدلي للشيعة ودخول عاصمتهم مرة أخرى ومواجهة النمسا وفتح روما. كما ازدادت فتح هذا العهد القوة البحرية في البحر الأبيض المتوسط خاصة. وتصدى العثمانيون للبرتغاليين في مياه الهند وفي المياه العربية الجنوبية.

وازدهرت الحياة في الدولة العثمانية في عهد سليمان الأول، فصدرت القوانين المنظمة للولايات التابعة للدولة العثمانية في عهده، ولهذا أطلق عليه القانوني تميزًا له عن غيره من سلاطين آل عثمان. وقد روعى في هذه القوانين التي صدرت الظروف المحلية لكل إقليم صدرت بشأنه، فجاءت مختلفة بعض الشيء عن بعضها البعض.

(1) يطلق ستانغورد شو على عهد سليمان القانوني "ثورة العظمى العثمانية".
الثورة الأولى للشام ومصر ضد الحكم العثماني

ظهرت في أعقاب الفتح العثماني للبلاد العربية، وخلال ثلاث سنوات منه، سلسلة من الثورات قامت بها قرى مملوكية، عملت على إعادة السلطنة المملوكية، أو قوى عثمانية ناشئة على الإدارة في استانبول، أو قوى بدوية، و مجلة حاولت الحفاظ على نفوذها. (1)

(1) جان برمي الغزالي واللي شام:

بعد أن عاد سليم إلى بلاده، قام الغزالي (تولي 1517 - 1520م)، بالقضاء على مشايخ الأعراب المناوئة للحكم العثماني في الشام، أظهر أعداء الدولة للعثمانيين لكي يموه على تحركاته في المناطق المحيطة التي كان القصد منها التحالف مع البلاد المجاورة للمساعدة في طرد العثمانيين.

استيقظت في نفس جان برمي أحلام دولة مستقلة تحت قيادته بعيدة عن السيادة العثمانية. فقام بعدة محاولات للاستقلال بالشام عن الحكم العثماني في أواخر عهد السلطان سليم، وأوائل عهد ابنه سليمان. وقد قوست هذه المحاولات في السنة التي مات فيها سليم (1520م). ومن الجدير بالذكر أن الشاه إسماعيل الصفوي كان على أتم الاستعداد لأن يمد هذه المحاولات بالجنود، لكي يرى اليوم الذي يطرد فيه العثمانيون من الشام ومصر، فيشفي غلبيه. (2)

(1) الدكتور عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون، ص 83.
(2) الوثيقة تمضى في أرشيف طوبقيو سراي باستانبول/ تحت رقم 2-469546.

تاريخ الدولة العثمانية 2233
ويبدو من استقراء الأحداث التي وردت في بعض الوثائق، أن والي مصر خاير بك كان على علم بتطور الأحداث في الشام منذ أن بدأت، وكان يود لو أن الحكم العثماني انحرس عن الشام ومصر. وقد اتفق سراً مع الغزالي شريكه في الخيانة السابقة. ويظهر أن الخوف من انتكاس ثورة جان بردي قد ثبط عزمه خاير بك، فهو يخشى أن تدوار الدائرة عليه لفشل الغزالي في مساعيه.

وبموت السلطان سليم أقامت المماليك الجراكسة صدورها" على حد قول ابن إياس. ووجد جان بردي الفرصة سانحة أمامه لكي ينفذ ما يصب إليه: استولى على دمشق وطرد نائبه العثماني، واستولى على حماة أيضاً. ولم يبق أمامه من الحصون القوية إلا حلب، فحاصرها، ولكنه لم يتمكن من فتحها، فعاد إلى دمشق. وفي يوم الجمعة 22 صفر 926 هـ، خطب بالجامع الأموي له وهو حاضر بقصورته بأنه: "سلطان الحرمين الشريفين"، ولقب بالأشرف، وتخرج من الجامع في موكب حافل.

وفي 26 صفر خرج السلطان جان بردي الغزالي لملاقاة العساقر العثمانية. عندما علم بقدومها إلى دمشق تحت قيادة فرهاد باشا. تلاقى الفريقان في ضواحي دمشق، ودارت بينهما معركة قصيرة، هزم فيها الغزالي وقطع رأسه وأرسلت إلى العتبة السنية.

(1) ابن إياس: المراجع السابق، جـ، ص. 317.
(2) ابن طولون: المراجع السابق، ص. 216، 217.
(2) أحمد باشا العثمانى والي مصر:

وفي أواخر عام 1523 م تار أحمد باشا العثمانى الملقب فيما بعد بالخانن في كتاب التاريخ على الدولة العثمانية بقصد الاستقلال بحكم مصر. وكان لأحمد باشا هذا دور كبير في فتحات الدولة العثمانية في البلقان وطبع في أن يكافحه السلطان سليمان القانونى بالصدارة العظمى. ولكن إبراهيم باشا صهر السلطان نجح في الفوز بهذا المنصب، وفي إبعاد زميله إلى مصر وعليتها، ولم يكد أحمد باشا يصل إلى مقر حكمه حتى وطى العزم على الثورة ضد الحكم العثمانى. فقريب إليه المماليك حيث أنه جركسي الأصل من الكرج، وقَام في 7 فبراير 1524 باحتلال القلعة، ثم أعلن نفسه سلطاناً باسم "الملك المنصور" السلطان أحمد" وقررته الخطبة وسكت العملة باسمه.

وأخذ أحمد باشا يجمع حوله الأنصار من المماليك ومن البدو، ولكن البدو الذين عهد إليه بسد الطريق أمام الجيوش العثمانية التي قد ترد لمحاربته نفوذه، كما أن إشاعة راجت عنه مؤداها أنه اعتنق المذهب الشيعي عجلت بهُيه. فقد جعلت أنتصاره بنفوسهم من حوله، كما جعلت الأتراك يتنامون الخلاص منه.

وقد شجع هذا الانكشافية على التصدي له، فقد ضيقوا عليه الخناق وحاصروا في القلعة وقبضوا عليه في 6 مارس 1524 م (930 هـ) ثم قطعوا رأسه وأرسلوها للعتبة السنبلية.(1)

مخطوطة مجموعة المؤلف: نجاة الأولياء بين ملك مصر من الملوك والنبوب، ورقة 6 من مخطوطة بمكتبة متحف طوابع سراي باستانبول تحت رقم 5550.8.

تاريخ الدولة العثمانية

236
فتح جزيرة رودس

كان أول عمل عسكري قام به السلطان سليمان القانوني بعد فتح بلغراد 927 هـ (1521م) هو فتح جزيرة رودس التي كانت نية أبيه مبيتة لفتحها وضمها للممالك العثمانية، لولا أن عاجلته المندية. ويدرك المؤرخ التركي الشهير إسماعيل حقي أوزون جارشيلي دون صد تاريخي أن هذه الجزيرة ساعدت المماليك أثناء معركة الريدانية، ولا يذكر كيف تم ذلك، كما يشير إلى أنها ساعدت الغزالي عندما أعلن العصيان على الدولة العثمانية بالشام، ولا يوضح كيف حقق ذلك.

لما كانت رودس جزيرة القراصنة المسيحيين الذين يتعرضون للتجارة الإسلامية من أن يبقي، أصبحت الضرورة ملحّةً في تحاولها بعد فتح الشام ومصر وضم الحجاز لقربها من سواحل الأناضول، ووجود خط ملاحي جديد مع الشام ومصر ينبغي تأمين مساره.

بدأ السلطان، فأرسل ورسوله إلى رئيس فرسان القدس يوجن بروناس Villiers de L’Isle Adam الفرنسي الأصل الذي يدعى فيزر دي ليل آدم يدعوه لتسليم الجزيرة دون قيد أو شرط وانسحاب من يؤثر الهجرة منها مقابل عدم التعرض لأحد، فلم يقبل هذا العرض. عندنا أمر السلطان بيري باشا والوزير الثاني أحمد باشا بقيادة الأسطول المتحرك على الجزيرة في بونية 1522 (928هـ)، وقام بنفسه بقيادة الجيش البري الذي يركز عند مشارف خليج مرمورة المقابل للجزيرة في بحر أيجة. ضرب الأسطول حصـاراً قوياً حول الجزيرة، ثم بدأت القوات تنزل مدافعها أثناء الليل على الشواطئ وتمطر.

(1) Dr. Ismail Hakki: Geçen Eser, cilt2, s.313.
الهجوم المكثف. ولما وجد رئيس الفرسان أنه لا قلب له بالجيش العثماني على الرغم من وصول مدد له من نابولي، أثر التسليم في ديسمبر من نفس العام، مشترطاً على العثمانيين: ترك حرية العبادة للمسيحيين الذين يبقون بالجزيرة. وإعفاء سكان الجزيرة من الجزية لمدة خمس سنوات. وإمهال الذين يبقون بها لمدة ثلاث سنوات حتى يرحلوا إن أرادوا، والموافقة على إخلاء الجزيرة. من أهلها الذين يرغبون الرحيل عنها خلال اثني عشر يوماً، ثم تسليمهما. وقد وافق السلطان على هذه الشروط، كما وافق على رجاء رئيس الفرسان بنقلهم إلى جزيرة مالطة التابعة لفرنسا. (1)

الحرب مع المجر ومعركة مهاج

بدأت العدوانة بين المجر والدولة العثمانية، منذ أن وطأت أقدام العثمانيين البلقان. فقد دأبت المجر إما على مساعدة خصوم العثمانيين في المنطقة، أو على التصدي للدولة العثمانية، طوال ما يزيد على قرن ونصف القرن من الزمان. (2)

قتل ملك المجر مندوب السلطان لدفع الجزية المقررة، فكان هذا بمثابة إعلان الحرب. تحرر السلطان العثماني على رأس الجيش العثماني في 8 أغسطس 1520م (927هـ) لفتح مدينة بلغراد الحصينة، وقد سبقه إليها الصدر الأعظم بيرى محمد باشا والوزير الثالث أحمد باشا. وتمكنت الجيوش العثمانية بعد قتال مرير من فتح المدينة.

(1) Dr. Ismail Hakkı: Geçen Eser, cilt2, s.323.
(2) Dr. Ismail Hakkı: Geçen Eser, cilt2, s. 323.
فترة العصر الذهبي

وقد دخل السلطان وأدى صلاة الجمعة في إحدى كنائسها التي بحوزته إلى مسجد على الفور. وأكسبت هذه المدينة لقب "دار الجهاد" لأنها أصبحت قاعدة

العثمانيين المتقدمة للزحف على قلب أوروبا.

وهكذا حققت أولى محاولات سليمان في أوروبا وهي التخلص من المناطق المسيحية على جنوب نهر ينوى والدانوب في الصرب والبوسنة، لفتح الطريق أمام الجيش العثماني للتحرك شمالاً. ويعتبر فتح بلغراد أهم الخطوات في هذا السبيل، حيث كسر خط الدفاع الأوروبي على الدانوب وأكمل السيطرة على الصرب.

ولم يكمل السلطان سليمان فتوحه في بلاد جارته الشمالية المجهر، بل توقف عند هذا الحد مؤقتاً، وتوجه لتحقيق حلم راؤود أباه، ولكن المندية عاجلتـه، ألا وهو فتح جزيرة رودس الذي تحدثنا عنه. وبعد ذلك عاد السلطان إلى المجر ليكمل ما بدأه.

عاد السلطان إلى المجر ثانية في 23 أبريل 1526 (11 رجب 932 هـ)، وقد سبقه إليها الصدر الأعظم في 17 شوال، ثم تحرك بمحاذة النهر وأخذ يستولي على القلاع والمدن الكثيرة التي صادفته.

أحس ملك المجر لويس (3) بالخطر العثماني الشديد على بلده، فأخذ يستعد للحرب ويطلب العون من أوروبا. وعندها أحس سليمان بتحرك البابا لجمع القوات الأوروبية ضد العثمانيين، سارع بإعطاء البندقية وراجزة بعض

(1) Dr. Ismail Hakki: Geçen Eser, cilt2, s. 312.

(3) لا يوجد في الكتب التركية.
الامتيازات التجارية مرة أخرى لمنع اشتباك أساطيلهما في التحالف الذي يهدف إلى اليابا ولكن هذا التحالف لم يتم لشدة العداء بين الهيسبروج وفرنسا.1

كان لويس يعتمد اعتماداً كبيراً على فرسانه الذين اشتهروا بخوض غمار الحروب. فتكون منهم قوة كبيرة استعد بها للتصدي للعثمانيين الزاحفين نحو صحراء مهاج.2 وكان من حسن حظ العثمانيين أن بالي بابا ابن يحيى باشا أمير سمندري أطلع السلطان على سلالة الفرسان المجريين وشُهرهم في الحروب، فغير السلطان العثماني تنظيم الجيش في مواجهة هذه القوات العنيفة، ورسم لها خطة لتطويق الفرسان المدنعمة عن طريق التقهقر أمامها حتى تبلغ المدافع العثمانية، ثم يجري حصدها ساعة تطويقها بالقوات من الخلف.

تقدم السلطان على رأس الجيش في 29 أغسطس 1526 (29 ذي القعدة 932 هـ) والتقى بالفرسان المجري في مهاج على الضفة اليمنى للدنوب جنوب بودا، ولم تكن هذه القوات تدري بالخطة الجديدة، فوضعت خطتها على أساس التقليد المتبع لدى العثمانيين.3

وديرت معركة حامية بين الطرفين قتلا فيها ملك المجر وتشتتت قواته وهزمت.4 وهكذا مكن النصر في مهاج العثمانيين من التحكم في غرب البلقان وأسفل الدانوب.5

(2) Mohacs
(3) انظر "خريطة ميدان مهاج" ضمن قسم الخرائط واللوحتات رقم (17).
(4) لاطفي: تاريخ لطفي، ص 211، استنبول 1290.

تاريخ الدولة العثمانية
239
وبعد هذه المعركة الحاسمة تقدم الجيش العثماني نحو العاصمة بودا (بوتين). ودخلها السلطان في 20 سبتمبر (13 ذي الحجة)، فصلمه يوسف بن سلاون رئيسي طائفة اليهود بالمدينة مفتاح العاصمة. ثم جرى تهجير (سرغون) عدد كبير من أهالي بودا إلى أجزاء مختلفة من المدن العثمانية، كما جرت عادة العثمانيين، واستولى أيضاً على بست. وفتح الجيش العثماني معظم البلاد عدا المناطق الشمالية والغربية التي لا تزال في أيدي الهوبسبورج. وقد اضطر السلطان إلى العودة إلى الأناضول لمواجهة بعض الفلاج، ورضي من زابوليا بالخصوم ودفع الجزية في 24 سبتمبر 1566م، وأحتفظ بأجزاء البوسنة التي تحت السيطرة الهنغارية.

انتخب بعض أمراء المجر زابوليا(3) خلفاً للويس الذي قتل في معركة مهاج. وبعد أن أطمأن الجيش العثماني على الأحوال في المجر عاد إلى بلاده. وبعد فترة وجيزة أعلن بقية أمراء المجر عدم رضاه على انتخاب الملك الجديد. وقرروا ترشيح فرديناند أخي شارلز إمبراطور ألمانيا- من أسرة هابسبورج وملك بوهميا ودوق النمسا في هذا المنصب. وقد كان فرديناند زوجاً لأخت الملك الراحل، كما كان الملك الراحل زوج أخت فرديناند. وهذه الطريقة وجد للصبر ملكان، أحدهما تشارلز الدولة العثمانية وهو زابوليا، والآخر يحمله إمبراطور ألمانيا وهو فرديناند. وقد سبب هذا التصرف عداء طويل الأمد بين الدولة العثمانية وبين ألمانيا.

(1) وبよい: تاريخ يبيوي، م، ص 97-99.
(3) يغوص في الكتب التركية.
(4) Dr. Ismail Hakki: Geçen Eser, Cilt2, s. 328.
قامت فرديناند بالاستيلاء على العاصمة بودا وطرد زابوليا منها، فاستنجد الأخير بالسلطان العثماني، لبي السلطان العثماني نداء الاستغاثة، فتحرك على رأس جيشه قاصداً بلاد المجر، ومعه سرداره الصدر الأعظم إبراهيم باشا في مايو 1529 (2 رجب 935 هـ). ثم دخل السلطان مهاج، ومنها تحرك قاصداً بودا فدخلها وأفر زابوليا على عرشها بشرط دفع الجزية.

الحرب مع النمسا وحصار فينا لأول مرة:

هرب فرديناند إلى فينا عاصمة النمسا، فتبعه السلطان سليمان في 26 سبتمبر 1529 م. ومن الجدير بالذكر أن فرنسا كانت علاقتها بألمانيا سليمة في هذه الفترة، فبارك ملكها فرانسا هجوم العثمانيين على فينا. حصن فرديناند المدينة وأقام الاستحكامات الحصينة في قلعتها، ثم أسرع يستنجد بألمانيا، فأجاعته قوة كبيرة منها استعان بها على تلك الحصار عن المدينة.

أدرك سليمان القانوني أن الموسم غير مناسب للاستمرار في حصار المدينة حيث أقبل الشتاء ببرودة القارس ولثلجة الغزير (سبتمبر 1529)، كما أن المدافع العثمانية الضخمة لم تكن موجودة في الحصار وإحضارها عن طريق نهر الطونة يعرضها للقصف النمساوي الذي يؤدي إلى غرقها. وفضلًا عن ذلك فإن الاستيلاء على فينا يعتبر تغلباً في الأعرق بياثر مشاعر أوروبا الدينية(1) ويحرك النزعة القومية الألمانية. وقد وجد ملك فرنسا نفسه في حرج أمام هذه المشاعر، ففضل أن يتبع سياسة ذات وجهين إرضاء للطرفين(2).

(2) Dr. Ismail : Eser. cilt 2, s.329,330
شدد السردار الصدر الأعظم إبراهيم باشا هجومه على أسوار المدينة المنيدة وأحدث بها عدة تلف، ولكن دون جدوى، فقرر العثمانيون العودة بعد أن استمر الحصار واحداً وعشرين يوماً.

لقد وصلت الإمبراطورية العثمانية أقصى مدى لها في الغرب عند الدانوب الأوسط. ويبدو أن سليمان ومساعدوه فهموا بطريقتهم أن المشكلة تكمن في إيجاد القوة البشرية التي تدير البلاد التي فتحت حديثاً، فهي هائلة جدّاً دون الخوض حتى أواستان أوربا(1).

العودة إلى المجر:
أرسل فرديناند للسلطان العثماني يطلب منه السماح له بحكم المجبر نظير تقديم الجزية المقررة، فرفض السلطان. عند ذلك قرر فرديناند الاستيلاء على بعض القلاع والحصون التي سبق أن استولى عليها العثمانيون، ثم تحرك قاصداً بودا، وحاصرها لمدة شهرين تقريباً، إلا أن القوات العثمانية وقوات زابوليا ردته عنها.

الحرب مع ألمانيا:
وصل السلطان إلى المجر في 25 أبريل 1532م (19 رمضان 938هـ) لمساعدة زابوليا وإقرار الأمن في المجر. وبدلاً من أن تتجه الجيوش العثمانية إلى العاصمة بدأ تحولت إلى الشمال الغربي منها، وأعلن السلطان إمبراطور

ألمانيا شارلكان بالحرب، ولكن شارلكان لم يظهر أمام العثمانيين، فقد كان مشغولاً بتحصين فيينا خشية هجوم عثماني مرتفع عليها. ولما علم بخبر وجود العثمانيين في ديابور، خشي من العواقب الوخيمة التي تحدث له أمام الفرنسيين إن هزمه العثمانيون ففضل البقاء بعيداً، رغم استياء الجيوش العثمانية على كثير من قلاع بلاده. وعاد السلطان إلى استانبول في نوفمبر 1532 م (26 ربيع الآخر 539 هـ).

باعت مساعي فرديناند لحكم المجر بالفشل، فأثر الصلح مع العثمانيين. قبل السلطان سليمان عقد الصلح مع فرديناند، لأنه أحس بالخطر الصفوي يعود مرة أخرى إلى شرق الأناضول في عهد أرتاخ طهماسب (تولى 1524 م). وكان من شروط الصلح أن يمتلك فرديناند عن الاعتداء على أراضي زابوليا، وأن يقوم بدفع الجزية عن المناطق المجرية التي يحتفظ بها، وألا يساعد شارلكان إذا هاجمه الدولة العثمانية لعدم دخوله في صلح معها (1).

تجدد الحروب مع المجر:

توقفت زابوليا في الكتب التركية (1540 م، 947 هـ)، فسارعت زوجته إيزابيلا وأرسلت وداؤها إلى استانبول، لاستثناان السلطان في أن يتولى ابنها الوضع، سجسمند مكان أبيه، فوعدا سليمان بتحقيق رغبتها. ومن جهة أخرى لم يكن فرديناند وشارلكان يعلمان بخبر موت زابوليا، حتى سارعا إلى محاصرة بودين. ولما علم السلطان بذلك أرسل بعض قواته على وجه السرعة سنة 1541 م لإنقاذ المدينة المحاصرة، وسارع هو على رأس جيشه متوجهًا إلى

---

(1) Dr. Ismail Hakki: Adigeçen Eser, cilt 2, s.336
الفصل الرابع: فترة العصر الذهبي

ميدان المعركة. وقد تمكنت القوات التي سبقت السلطان - بقيادة أمير أمراء الرومالي والوزير محمد باشا صقولي - من فك حصار العاصمة بودين وأسر قائد القوات المعادية روكاندروف وقتله.

وجد السلطان بعد أن وصل إلى بودين أن الملك الصغير لا يقدر على حماية المجر من أي عدوان فقرر ضم المجر إلى الدولة العثمانية، وارسل سجسوند إلى باكونية أردل (ترانسلافيانا). وبهذا تجزأت المجر بين الدولة العثمانية وفريدباند وسجسوند.

لم يكد الجيش العثماني يعود إلى استانبول، حتى قام فريدباند بمحاصرة بودين ويشت، فقرر السلطان سليمان التحرك بنفسه إلى المجر في 23 أبريل سنة 1543م (18 المحرم 950هـ). ولمما علم فريدباند بقرب وصول الجيش العثماني فترك الحصار عن المدينة، وفر فتعقبه العثمانيون واستولوا على بعض المواقع الهامة من الأراضي التي تحت نفوذها في المجر. ثم عاد الجيش العثماني إلى استانبول. وتكررت مناوئات فريدباند. ولم ينس من الوصول إلى مرساي، ووجد أنه يخسر أجزاء من أراضيه في كل مرة، فضل الدخول مع الدولة العثمانية في صلح، يضمن له الاحتفاظ بالأراضي التي تحت يديه ظهير دفع الجزية. وقد وقع الصلح في 19 يونيو سنة 1547م (ريع الآخر 954هـ) لمدة خمس سنوات.

ولكن هذا الصلح لم يزد على أن يكون مجرد هدنة لانتظار الأنفاس، فقد هاجم فريدباند أردل (ترانسلافيانا) التي تتمتع ملكتها إيزابيلا بحماية العثمانيين، وذلك بمزاحب من أحد أعوان الملكة الموالية له. فأثارته الدولة العثمانية، ولكنها لم ينخدع بالإذاعة، لاتشغال العثمانيين بالحرب ضد الفرس. أرسم السلطان

تاريخ الدولة العثمانية
الوزير محمد باشا صقولي للتصدي لفرديناند، فتمكن من رده عن أردل، ثم قفل راجعاً إلى بلغراد لبرودة الجو.

وقد انتهى جيش النمسا الفرصة واستولى على ترانسلفانيا، فوقع على خضر بك ابن ميخائيل أمير سنجق سكدين مهمته تخليص ترانسلفانيا لانتشغال الجيش العثماني في بلاد الفرس. استعان خضر بك بعلي باشا الخادم وحاكم بودين لمواجهة جيش النمسا الذي حاصر سنجقين. انسحب علي باشا على جيش النمسا فجأة، وتمكن من إزالة هزيمة سابقة به. وتبسر للجيش العثماني بقيادة قره أحمد باشا الاستيلاء على تمشوار فيما بعد، وهي واحدة من أهم قلاع المجر.

وبعد كل هذه المحاولات اليائسة من فرديناند، وقع معاهدة مسجّل الدولة العثمانية سنة 1562 م (970 هـ) لمدة ثمان سنوات مع دفع الجزية المقررة.

وتولى ماكسنليان حكم بلاد المجر بعد وفاة أبيه فرديناند، أي بعد عنامين من المعاهدة التي أبرمها أبوه مع العثمانيين، فقام على الفور بالاعتداء على أراضي أمير أردل (ترانسلفانيا) المشمول بالحماية العثمانية. ولم ير أي أمير بودين العثماني أرسلان باشا ابن يحيى ذلك، هب لمساعدة أمير أردل لصمود أمام العدوان.

ورغم كبر سن السلطان الذي كان يبلغ من العمر الثالثة والسبعين واشتداد مرض التقرس عليه، قرر في 9 أبريل سنة 1566 م (9 شوال سنة 973 هـ) أن يتحرك بنفسه لملتاقاة ماكسنليان الذي جمع جيشاً كبيراً قوامه فوق من جنود البلاد المجاورة. ومن الجدير بالذكر أن السلطان لم يخرج بنفسه لقيادة أي

تاريخ الدولة العثمانية
معركة منذ ثلاثة عشر عاماً للاستفادة العرض عليه(1) وقد اشترك معه في هذه المعركة الصدر الأعظم الجديد محمد باشا صقولي والوزير الثاني برتو باشا.

أخذ الجيش العثماني يتقدم في بلاد المجر حتى وصل إلى مدينة سكدرار، فاستمر في حصارها قرابة شهر ونصف الشهر حتى سقطت في يده، بعد أن قتل حاكمها الكونت ززيني (زنسكي موكش في الكتب العثمانية) في 7 سبتمبر 1566 م (11 صفر 974 هـ). ولم يعثر السلطان ليرى هذه الفرصة، فقد قضى نحبه قبل يوم واحد من دخول جيشه المدينة. وكانت هذة هي الحروب الثالثة عشرة التي خاضها السلطان بنفسه (بلغ عدد روس 1521، وروس 1522، مونج 1526، فيينا 1529، ألمانيا 1532، العراقيين 1533، كورفو (1)، 1536، البغدان 1538، بودين 1541، كيرون (استرغم) 1543، تبريز 1548، ناخبوان 1553، سكدرار 1566) (2)

حرب البغدان:

دخل والي البغدان في طاعة الدولة العثمانية بعد أن فقد قلعتي كيلسي وأق كرمان، وأخذ يدفع الجزيرة أحيانًا ويباطل أحيانًا أخرى بسبب اشتغال الدولة العثمانية بحربها مع إيران ومصر وال مجر. وعندما مر الجيش العثماني متوجهًا إلى فيينا، أبدى محافظ البغدان ترحيبه وعبر عن سروره بهذه الخطوة، وسُرٌع

(1) Dr. Ismail Hekki: Adigeçen Esr. clt 2, s.409
(2) Dr. Ismail : Eser. clt 2, s.409,410
في دفع الجزية المفروضة عليه. وبعد فترة بدأ والي البغدان بطور رارش (تولي 1627 - 1638م) في التحالف سرا مع فرديناند.

صمم السلطان العثماني على أن يقود الجيش لمحاربة البغدان، فتحرك في يوليو 1638م (صفر 946 هـ)، ولما علم رارش بتحرك السلطان، سارع في إرسال رسول إليه ليوكل على أواصر الصداقة ومراعاة العهود، ولكن السلطان لم يستجب لدعواته، ودخل أراضي البغدان، فقرر وليها إلى تراستفانيا، واستولت الجيوش العثمانية على البغدان، وعين محافظ آخر عليها سنة 1538م عن طريق الانتخاب.

عصيان العلوبيين وحرب إيران

(1) عصيان العلوبيين:

ظهر درويش بكتاشي في شرق الأناضول سنة 1527م (932 هـ) يدعى قندر جلبي بن إسكندر، جمع حوله عشرين أو ثلاثين ألفا من العلوبيين، وكان شاه إيران يظهره ويساءله على عصيان الدولة العثمانية. تجأ قندر على العلوبيين وأعلن استقلاله ببعض المناطق وضمها لنفوذه، فأرسل السلطان الصدر الأعظم إبراهيم باشا على الفور لإخماد هذه الفتنة.

وقبل أن يصل إبراهيم باشا إلى حيث يتحرك قندر بن إسکندر، كان هذا العليم قد أرسل هزيمة فادحة بالقوات التي هبت لمواجهةه، وقتل قائدها محمود باشا وإلي القرامان وأعوانه. أمام هذه القوة المتنامية، قرر إبراهيم باشا أن يغري أعوان قندر من سباهية ذو لقادر بالمال والضياع، لكي ينضموا من حوله.
فضعف قوته. وبعد أن تحقق له ذلك، تمكن من اقتناص فرصة الليل للهجوم على العاصي قندر، فهزمه وقبض عليه وقتله.

(2) الحرب مع الفرس:

توفي الشاه إسماعيل الصفوي سنة 1024م، فتبعه ابنه طهماسب على العرش. وقد اتبع نفس السياسة التي كان يتبعها أبوه وهي العداء مع الدولة العثمانية. فلم يكتول العرش حتى سارع في التحالف مع شارلكان وفرديناند ضد الدولة العثمانية، على الرغم من أن حالة الحرب لم تكن معلنة بين الدولتين العثمانية والصوفية. وفضلًا عن ذلك قام الشاه طهماسب بتحريض شريف خان حاكم بدلس الكردي التابع للدولة العثمانية على التحالف مع الفرس. ومن ناحية أخرى حاصر الشاه مدينة بغداد، وتمكن من القبض على وليها ذي الفقار خان الذي يتمتع بالحماية العثمانية وقته. ثم دخل بغداد واستولى عليها. وكانت الدولة العثمانية مشغولة بالحرب في أوروبا في ذلك الوقت، ولا تعرف بلاد الفرس التفتيتاً.

لا أن الأحداث الخطيرة توالت، مما دعا السلطان إلى التفكير في مواجهة الفرس، فأرسل الصدر الأعظم إبراهيم باشا على رأس الجيش إلى تبريز.

لم يكد الشاه يسمع بتحرك إبراهيم باشا حتى ترك عاصمته تبريز وتوجه إلى خراسان، فدخل الصدر الأعظم في 13 يوليو، سنة 1034م (المحرم 1941هـ) دون قتال. وبعد ذلك وصل السلطان إلى تبريز وأخذ ينظم أحوالها بمجرد وصوله إليها، ثم قرر التحرك إلى بغداد للاستيلاء عليها.

تقدم إبراهيم باشا نحو بغداد قبل قدمه السلطان، ولما علم ولياً بغداد تكهّن بتحرك الجيش العثماني فرحراً. وقد تمكن العثمانيون من القبض عليه وقتله في ديسمبر سنة 1034م (24 جمادي الأول 1941هـ) ودخل بغداد.
بسهولة. ثم وصل السلطان إلى بغداد فيما بعد وفوجدها قد فتحت، فأخذ ينظم أحوالها. ولما علم بعدو الشاه إلى تبريز توجه إليها على الفور، ففر طهماسب ثانية إلى الشمال في يوليو 1535م. وبعد أن استتب الأمور في تبريز عاد السلطان إلى استانبول في 1536م (4 رجب 942هـ). وبعد أن فتح العثمانيون بغداد، دخلت البصرة والقطيف والبحرين في طاعة العثمانيين (1). عاود الشاه المناوشات مرة أخرى، فتحرك السلطان إليه في إبريل 1548م (صفر 955هـ)، وفتح بلاد الكرد (2) وقلاة وإن الشهيرة في أغسطس من نفس العام، قبل أن يدخل تبريز للمرة الثالثة، ثم قتل راجعا إلى حاضرة بلاده.

ورغم هروب طهماسب وعدم وقوفه في وجه العثمانيين، إلا أنه كان يعاود المناوشات كما سمع برجع الجيش العثماني إلى دياره. واما وجد أن مناوشاته هذه غير مجدية، فضل الصلح مع العثمانيين في 29 مايو سنة 1555م (8 رجب 962هـ)، ولهذا احتفظت الدولة العثمانية بآذربيجان ومراكزها تبريز، كما احتفظت بشرق الأناضول والعراق. وقد ظلت هذه المعاهدة سارية المفعول إلى أن توفي طهماسب 1576م بعد أن استمرت الحروب بين الدولتين.

(1) عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين – 4، ص 44
(2) توماس شهزور أو كروستان
النشاط البحري للدولة العثمانية
في عهد السلطان سليمان القانوني

(1) في البحر الأبيض:
(أ) عروج الريس وخضر الريس:

ينتمي البحاران عروج(1) الريس(2) وخضر الريس إلى أصل رومي ممن تكبدوا الجزيرة مدلاً. كان أبوهما يعوق(3) قد أخذ سنة 1426م من يد عائلة جنوبية تسكن هذه الجزيرة أيام السلطان محمد الفاتح، ثم عين ضمن فرق السياحية في

(1) عروج: المحمود السليطي في كتابه "الفرس والبربر".
(2) عروج: "القلم".
(3) يصمد: بلغ ذلك على ريبة السفن الشراعية وقد تغير القلم إلى قبطنية بعد القرن السابع عشر.
(Mehmet Zeki Pakalin: Adigeçen Eser, cilt 3, s.24)
(4) كان ليعوق أربعة أبناء هم: بائقم وعروج وخضر والإلياس.

تاريخ الدولة العثمانية

250
قصبة "كيكيه وإردار" الواقعة بين سلانيك ومناستر. ركز عروج الريس نشاطه البحري على سواحل الأناضول وسوريا ومصر، أما خضر الريس فقد كان نشاطه يتركز في سواحل بحر إيجه وسلانيك. وبينما كان عروج عساناً من ساحل طرابلس الشام، إذ تأكد فرسان رودس يتحم معه في معركة بحرية يقتل فيها أخوه إلياس، أما هو فيبحر ويسير ويوضع في قلعة بودرم، لكن أخيه خضر الريس تمكن من إطلاق سراحه بعد فترة من الزمن.

دخل عروج في خدمة الدولة المملوكية بعد ذلك، وأصبح رئيساً لحديدة السفن القديمة "قايرغره". وقد تلقى مساعدات من الأمير قورقد والي أنتاليا، عندما كان يمارس نشاطه في البحر بجد ونشاط.

وقد ظل فرسان رودس يبحثون عن هذا الذي ألقي الرعب في قلوبهم في البحر الأبيض، حتى صادفوه في أحد السواحل يستريح، فهاجموه، إلا أنه تمكن من الخروج إلى الساحل والنجاة بنفسه، وسقطت سفينته في يد أعدائه. ولم يجد عروج أمامه إلا أن يعتمد على الأمير قورقد الذي انتقل إلى ولاية مغنيسيا، فقد قام الأمير بصنع سفينة له، مارس بها نشاطه البحري على سواحل إيطاليا هذه المرة كتوصية الأمير له.

أخذ عروج يتردد على جزيرة مدلي بسفن من سواحل إيطاليا أو بسفن الأعداد التي تمكن من الاستيلاء عليها. ولم يكن يعلم بسفر الأمير قورقد إلى مصر غاضباً من أبيه الذي وعد أخاه أحمد بالسلطنة، حتى ترك مدلي وتوجه إلى سواحل مصر وقصي على الشتاء هناك. اتحد عروج مع أخيه خضر في العمل بعد ذلك، وجاء سوياً إلى جزيرة جزيرة التي تقع بين طرابلس الغرب وتونس، وبدأ يتخذ من هذا المكان مركزاً لهما سنة 1316م (1916هـ). وبينما كان خضر يمارس نشاطه البحري فيما بين الجزر وسواحل الروملي، قام السلطان...
الفصل الرابع: فترة قصر الذبيح

الجديد سليم الأول بمنع دخول السفن إلى كل السواحل وخروجها منها لمد عهض أخوته قورقود من السلطنة. ولم يجد خضر أماته مفرًا إلا أن يمارس نشاطه فيما بين طرابلس المغرب وبروزه، ثم وصل إلى جزيرة جربة فيما بعد.

تردد الأخوان على "ابن عبد الله محمد الخامس" سلطان تونس من العائلة الحفصية، وقدما له هدية، ثم طلبا منه أن يمنحهما حق الإقامة في الميناء التونسي خليج الوادي. وقد أذن سلطان تونس للأخوين بالتوطن في الميناء التونسي، شريطة دفع خمس النجات التي يستولون عليها.

نجح الأخوان في أول حرب بخوضها سويا سنة 1513م، كما تولى أثناء انتصاراتهما. وبهذه الصورة ملأت شهرة الأخوين قلوب الفريسة في البحر الأبيض رعبًا وفزعًا. وقد التحق بهما القبائل الأطراف السبعة المشاهير بسفنهم، ومنهم: مصلح الدين بن كرد وكمال وابن أخيه محبي الدين.

ولم يهم الأخوان إرسال هدية إلى السلطان سليم الأول، لاستغلالهما الإيجابية من مساعدة. وقد قدمت الهدية إلى السلطان عن طريق محبي الدين الرئيسي سنة 1515م (921هـ)، وقام السلطان بدوره بمنحهما سفينتين مجهزتين رداً على الهدية.

كان من الطبيعي أن يصطدم الأخوان بأسبانيا التي استولت على بعض السواحل الإفريقية المواجهة لها، نظراً لضعف الحكومات الإسلامية في هذه المناطق، وهي: بنو حفص في تونس، وبنو زيان في الجزائر، وبنو مرین في مراكش. وقد حانت الفرصة عندما ورد فرقة إسبانية إلى الأخوين في حلقة الوادي الذي يتخذانه مقراً لهما، وطلب منها طرد الأسبان الذين استولوا على...
بجابة، ولما لم يتمكن الأخوان من ردع الأسبان، استوليا على شرشال، ثم على مدينة الجزائر التي طلبت منها العون البري سنة 1516م (1).

(2) فتح الجزائر وحكم الأخوين لها:
كان استيلاء عروج وخضرا على مدينة الجزائر خطأً هامًا، فقد سارع الأسبان الموجودون فيها إلى الاتجاه إلى جزيرة بنون المواجهة للمدينة، وطلبوا العون والمساعدة من شارلكان في الحال، وعلى الرغم من أن شارلكان ملك أسبانيا أرسل أسطولاً إلى الجزائر، إلا أنه لم يتمكن من إخراج عروج منها، وأعلن عروج على الفور نفسه حاكماً على الجزائر، وبدأ يوضع نفوذه في المناطق الداخلية. وقد تمكّن الأسبان من الاستيلاء على تلمسان وميناءها وهران، وانضموا حاكم تلمسان وهو واحد من بني زينان تحت نفوذهم.
ولما لم يتمكن الأسبان من الاستيلاء على الجزائر بالحرب، أمروا أمير تلمسان بالاستيلاء عليها عن طريق البر، إلا أن عروج علم بالخبر في حينه فاستولى بسرعة على تلمسان. ظل عروج الرئاس في تلمسان يدافع عنها، إلا أن الأسبان شدوا حولها الحصار، فاضطر إلى العودة إلى الجزائر بعد أن دافع عن تلمسان لمدة سبع لشهر بالمساعدة الأهلية، وقد لاحظه الأسبان وحاصروه في الجزائر، وعند خروجه أصيب بإصابتين شديدين، فقطع على إثرهما قتيلاً (2) سنة 1518م (964هـ)، وهو في الرابعة والأربعين من العمر (3). فتولى أخوته

(1) Barbaros Hayreddin Paşa'nm Hatıraları (Tarih Mecmuasiinde bir makale), sayi 6, Temmuz, 1965, s.49
(2) Dr. Ismail: Eser cilt 2, s.363-367
(3) هناك عبارات مدونة على برج قلعة شرشال كتب أثناء وفاة عروج توضح أنه كان حاكماً على الجزائر في سنة 1518م (964هـ)، كما تظهر لقيه أثناء تغذية الحكم، وهو: "الحكم بعلمه الله المجاهد في سبيل الله أوروج بن يعقوب." 
Dr. Ismail: Ayyl Eser cilt 2, s.367

تاريخ الدولة العثمانية
253
الفصل الرابع: فترة العصر الذهبي

خضير الرأس الحكم من بعد، وهو الذي يطلق عليه الأوروبيون لقب بريروس أو بربروسا Barbarossa

قامت الإمارة الأسبانية "هوجو دو مونكادا" Hego do Monkada بمحاصرة الجزائر برأ وبحرًا. ورغم أن القوات الأسبانية كانت كثيرة العدد، إلا أنها لم تتوافق في حصارها، وأرتكبت عن المدينة. أما أمير تلمسان "أبو حامى الثالث" الذي كان يشارك الأسبان في الحصار برأ، فقد فر هاربًا.

اتصل بربروسا بالعثمانيين:

ورغم ذلك كان وضع بربروسا حرجًا لأن إمكانياته كانت ضئيلة، فحفنة من التورك كانت معه لا يمكنها أن تتصدى لحارسلاً أو للأهلاني. وللهذا وجد أنه من الأفضل أن يتصدى بالدولة العثمانية لطلب العون والساعدة منها. وقد بادر بإرسال أربع سفن وآخرين من الأسرى على سبيل الهدية إلى استانبول سنة 1519 م (925 هـ). ثم أعلن أن الجزائر ولاية عثمانية تابعة للسلطان سنة 1520 م (925 هـ).

امتن السلطان العثماني باتصال بربروسا به، وأرسل إليه بعض المعونات العسكرية وبعض السفن الحربية. فضلًا عن ذلك أرسل إليه براءة الإمارة وألفين أو ثلاثة آلاف من العساكر، كما صدر فرمان سلطاني يقضي بإرسال الجنود.

(1) Dr. Ismail : Eser. clt 2, s.368

توجد كتابات على الجامع القديم بالجزائر الذي يسمى جامع خير الدين، بما تحمل تاريخ جميل الأولي سنة 912 م وقعت فيها: "أمر بناء هذا المسجد المبارك السلطان المجاهد في سبيل الله ربو العظماء مولانا خير الدين باشا ابن الأمير المجاهد أبي يوسف بعقوب التركي.

(2) Dr. Ismail : Ayni Eser. clt 2, s.368,372


تاريخ الدولة العثمانية
النارمة إليه من الأناضول، وأعطيت للذين يذهبون إلى الجزائر كمتطوعين،
امتيازات الانتكشارية (1).
لم يوفق شاراكان في الاستيلاء على الجزائر، رغم أنه هاجمهـا بعنف،
وتحطم أسطوله، وخُلِص مساع، ومن ناحية أخرى ألقى دخول بربروسا تحت
النفوذ العثماني، حاكم تلمسان وتونس، فقـام يحرون أهالي الجزائر على
العصيان.
كان لحاكم تلمسان أخوان أخدهما يدعى مسعود والآخر عبد الله، تزاواـ
مع أخيهما على الحكم واضطررا في النهاية إلى الهرب إلى المغرب. وقد قام
مسعود بمساعدة بربروسا عندما كان حاكما على تلمسان كما وقع معه معاهدات
الصداقـة في الوقت الذي نقضها مع الأسبان، وعندما تولى عبد الله الحكم، أدخل
تلمسان تحت نفوذ بربروسا. فقام الأخير بإرسال مائة وخمسين جندياً تركياً إلى
"ابن محمد عبد الله الثاني" لتمكينه من الدفاع عن بلاده.
ترك خير الدين بربروسا للجزائر وعودته إليها:
ثم هزم ابن القاضي الذي ثار بتحريرض من حاكم تونس، وعلى الرغم من
أن العاصـة حاصرها قصر بربروسا، إلا أنهم لم يوفقوا في النيل منهـه. لكن
التحشادات التي نشأت بين المواطنين والترك والعرب جعلت القـالع التابعة
لالجزائر تنثأ بسـطة حيث قـلت منابعها. وهذا ما أجبر خير الدين على ترك
الجزائر، والانسحاب سنة 954 هـ (1548 م) إلى شرشال، لكـي بدأ حربهـه
البحرية.

(1) Dr. Ismail Hakki: Adığöcen Eser, cilt 2, s. 368.
وبعد عدة سنوات توجه إلى الجزائر بإصرار وتصميم، وهزم ابن القاضي، ثم جمع خصومه وتمكن بعد ثلاث سنوات من تولي حكم الجزائر. وفي الوقت الذي لم يخرج فيه خبر الدين الريس للحرب نظراً لتو ليه حكم الجزائر، أمر أحد أعيانه من القبطانة ويعت "أيدي الريس" بالنزول إلى البحر على رأس أسطول مجهز لمواجهة الأسبان. وقد قام سلطان الجزائر بإرسال جزء من الغنائم التي كسبها أيديين من الأسبان إلى استانبول.

أول نزاع بين خير الدين وأندريه دوريا:

تمكن بربروسا في 27 مايو سنة 1529م (936هـ) من الاستيلاء على قلعة بنون أو "أده قلعة" كما يسميها الترك، والتي أنشأها الأسبان على جزيرة صغيرة تبعد عن مدينة الجزائر 3 كيلومترات. وقد نتج عن ضم الأسبان الجزيرة بكون من أيدي الأسبان، أن كلفوا الأمير جنوي أندريه دوريا الذي يعمل لحسابهم، بعد أمره بحري في البحر الأبيض المتوسط بالهجوم على جزيرة شرشال، لكنه فشل. وعقب ذلك خرج بربروسا إلى البحر على رأس خمس وثلاثين سفينة ونصف موانئ الأسبان، ثم عاد غامماً إلى الجزائر. اقتتص بربروسا الفرسان وحصل على معلومات هامة عن استعدادات الأسبان من الأسرى الذين قبض عليهم هذه المرة، وزاد استعداداته نتيجة لذلك، فقام باستدعاء سكان الرييس الموجود في جزيرة جربة لمساعدته. وقد بلغ عدد قطع الأسطول المشترك

(1) Dr. Ismail Hakki Adılıçıklar: Eser, cilt 2, s.369
(2) Samih Aziz Iler: Simalı Afrikada Türkler, 89

د. عبد الرحمن جاويش: المسأله التونسية والسياسة العثمانية 1881-1912، ترجمة الدكتور。
عبدالجليل العميمي، ص 26

تاريخ الدولة العثمانية
بينهما ثمان وأربعين سفينة. أما أسطول أندريه دوريا فقد بلغ عده ستين سفينة بعد أن أمده ملك فرنسا بعشرين منها.

هاجم الأمير الجنوبي جزيرة جربه بهذا الأسطول، إلا أنه ووجه دفاع شديد، وانسحب فور سماعه بوصول بربوسا.

(و) دعوة بربوسا للدخول في خدمة الدولة العثمانية:

هاجم أندريه دوريا سواحل المورة، عندما كان الجيش العثماني مشغولاً بحربه في الأناضول، واعتقد على قلعة كورون، وتمكن من الاستيلاء على المورة في أغسطس سنة 1562م، ثم استولى على باباسوس وليبيانت (إنه بختي)، إلا أن محمد باي ابن يحيي أمير سنجق سندره استعاد قلعة كورون فيما بعد.

كان الجيش العثماني في البر على قدر كبير من النجاح، وما كان قد وصل إلى هذه الدرجة في البحر. وقد أرتأى للدولة العثمانية أن تكون على قدر كبير من النجاح في البحر نظراً لامتلاك سواحلها ووقوع ملك أسبانيا وإمبراطور ألمانيا شاركان ضدها في هذه الفترة. كان من الضروري لـه أن تبحث عن بحار يمكنه التصدي لحول البحر أندريه دوريا، فوجدته في شخص أمير الجزائر خير الدين بربوسا. وقد أرسل السلطان سليمان القانوني فرماناً إلى بربوسا، يأمره فيه بالقدوم إلى استنبول بعد أن يعين مكانه واحداً من أهله إن وجد من هو أهل لذلك، وإلا أخبر السلطان كتابة بعدم وجود من يثق فيه.

وبعد أن اتخاذ بربوسا الترتيبات اللازمة في الجزائر، ترك مكانه لحسن أغا الخادم الذي يتمتع ببنوته نانباً عنه، كما ترك معه رضمان جلبي أو
الحاج مستشارًا، واستقل أسطولاً مكوناً من عشرة سفن في أواسط أغسطس سنة 1532 هـ (المحرم 1699 هـ). وبينما هو في طريقه إلى البحر صادف لليوسف، يقود ست عشرة سفينة، فضمه إليه، ومرأه سوياً من مرفأ بونيفيجو الذي يقع بين جزيرتي سردينيا وكورسيكا. واستولى على ثمان عشرة سفينة كانت تحمل قمحاً لجزيرة صقلية. وبعد أن أخذها ما بها، أطلقها عليها النيران. وقد قُتل في المعركة دنيا يوسف، وعُرِف من الأسرى الذين قُبض عليهم أن أندريه دوريا ذهب إلى كورون ومعه خمسون سفينة. فتحرك بربوسا مسرعاً إلى نيزو، ولم يُصل إليها، كان أندريه دوريا قد انتقل إلى إيطاليا منذ سنة أيلام.

ترك بربوسا نيزو ومعه أربع وأربعون سفينة، أرسل منها خمساً وعشرين إلى الجزائر، وتوجه بالباقي إلى قلعة كورون. فقابل هنالك القبطان أحمد بك كمانكره الذي أصطحبه إلى استانبول، وأنزله ضيفاً في قصره في ميدان آت سنة 1533 هـ.

استقبل السلطان سليمان بربوسا وثمانية عشر شخصًا من رفاقه، وطرح عليه عدة أسئلة عن أندريه دوريا وما أثاره في البحر الأبيض المتوسط. وقدم أثارت إجاباته الجريئة في نفس السلطان الاهتمام، فأعلم عليه برتبة أمير الأمراء (خمار بك) ورتبة الأمير الذي يشرف على جميع الترسانات البحرية. ثم أرسله إلى الصدر الأعظم إبراهيم باشا الذي كان يقضي بعض الوقت في حلب، وهو في الطريق إلى إيران لفتحها، واستقبل الصدر الأعظم خير الدين باشا في حلب، ومحمه ريبة قبطان غاليبولي وأمير أمراء الجزائر، وألبسه الخلعاء، ثم أرسله إلى استانبول.

---

1 Dr. Ismail Hakki: Adigeçen Eser, silt 2, s.370-372
2 وانظر: ذم لمحمد كوران: المرجع السابق، ص142
3 وانظر أيضًا: عبد الرحمن جاويش: المرجع السابق، ص.47
ويقال إن السلطان سليمان هو الذي أطلق عليه اسم خير الدين، فقد قـال له: "أنت خير لهذا الدين، فليكن اسمك خير الدين". وقد شوهد هذا الاسم مكتوباً على الجامع الذي يحمل اسمه بتاريخ 926 هـ.(1)

(2) حروب بربروسا البحرية خدمة للعثمانيين:
(1) الاستيلاء على تونس والتراجع عنها: عندما استتب الأمر للأطراف في مدينة الجزائر، تحول اهتمامهم بالضرورة إلى تونس للاستيلاء عليها، حتى يضمنوا حرية التنقل بين حوضي البحر الأبيض المتوسط.

قام خير الدين بربروسا بحملته الأولى على تونس سنة 1534 م (ذي القعدة 940 هـ)، حيث كان يقوم على أمرها، مولاي الحسن—from سلالة الحفصيين. وقد استقبل الأمير خير الدين من طرف الشعب أحسن استقبال، واستولى بسهولة على مدينة تونس في 18 إبريل سنة 1534 م، ونادي بسقوط الحفصيين.

إن تمركز الحكم العثماني بتونس، قد دفع مولاي الحسن وبعض الأمراء الإيطاليين والبابا أن يستجدوا بشارلخاس (شارل كاين) الذي قام باحتلال مدينة تونس في 21 يوليو سنة 1540 م، مرجعًا مولاي الحسن على العرش. وقد أصبح هذا الأخير خاضعاً لتيبيعة شارل الخامس، وسلم إليه قلعة حاق الوادي.(2)

(1) Dr. Ismail Hakkı: Adigeçen Eseri, cilt 2, s.372
Samih Aziz Ilter: Adigeçen Eseri, s.102

(2) تاريخ بحري: م 1493 ، ص 493
D. عبد الرحمن خليفي: المرجع السابق: ص 27
D. أحمد بن كوران: المرجع السابق: ص 12
(2) الحرب مع البندقية وحلفائها: كانت جمهورية البندقية تتبع سياسة مزدوجة باستمرار. فضلًا عن ذلك كانت على عداء دائم مع العثمانيين. وكان البابا يول الثالث أحد الأسباب التي تدفع البندقية إلى الاعتداء على العثمانيين، رغم معاهمات الصداقة التي كانت توقع بين الطرفين أحيانًا. وقد تمكن البابا من الجمع بين شارلكان وفرانسا الأول ملك فرنسا، ودفعهما لتحقيق معاهدة صداقة بينهما تستمر لمدة عشر سنوات، كما تمكن من ضم البندقية إليها، وأخذ بحرصهم ضد الترك سنة 537 هـ.

وفي هذه الأنظمة استولى أمير البوسنة “الغازي خسرو باشا” على بعض القلاع التابعة للبندقية، وفي نفس العام نقل الوزير الثاني لطفي باشا جنوده البرية بالمراكب، واشترك مع الأسطول الذي كان يرأسه بربوسا في التوجه إلى البحر الأدرياتيكي في مايو سنة 943 هـ (أول ذي الحجة 537 هـ).

وبعد أسبوع واحد تحرك السلطان بنفسه من استانبول متجها إلى سواحل أولونيا وألقت عليه ذلك مساعدة جنوده الذين ذهبوا إلى الأدرياتيك Avlonya من ناحية، والقضاء على العصيان الذي اتسع في دالغته نتيجة لتحرير البندقية من ناحية أخرى. وكان من نتيجة هذه الحركة المفاجئة أن أنتهى العصيان وانتهت معه الفقائل في تلك النواحي.

وفي هذه الأنظمة صدرت الأوامر لأسطول مكون من مائة وخمس وثلاثين قطعة بحرية، مضافةً إليها مائتان وثمانون، بصف السواحل الشرقية لإيطاليا. وبينما الأسطول في طريقه إلى هذه المناطق، تمكانت أندريه دوريا من الاستيلاء على اثني عشر سفينة كان بقودها علي كتخدا وكيل ترسانة غاليبولي الذي كان في طريقه للالتحاق بالأسطول وأغرقها عن أخرها. ولما سمع السلطان بهذا الخبر السئ وهو في أولونيا، أمر لطفي باشا بمحاصرة جزيرة كورفو. ولدلى تاريكون دينالية.
سماع أنطريه دوريا بتحرك الأسطول العثماني إلى كورفو، انسحب إلى مسـينا. Mesina نتيجة، فقرر السلطان رفع الحصار لحلول الشتاء. وقد تمكن بربروسا في هذه الفترة من الاستيلاء على بعض الجزر التابعة للبندقية مثل شيريا وياتموس ونامسوس وغيرها.

(3) حروب بروزه والتحكـم في البحر الأبيض المتوسط: تكـور

تجمع قواد أساطيل الدول المتحالفة وهي إمبراطورية شوارككان والبندقية والبابـا والبرتغال في جزيرة كورفو، بينما الأسطول العثماني يوالي الاستبلاّء على الجزء الواحدة ثلـ الأخرى. وقد دارت المباحثات فيما بينهم حول تكليـف شوارككان بالاستيلاء على الجزائر، وتكييف جمهورية البندقية باسترجاع الجزر التي استولى عليها الترك.

giene البنادقة إلى كورفو أولاً ثم تبعتهم أساطيل البابا، ولم يعرف شيء عن تحرك أسطول شوارككان. وفي نفس الوقت قام أميرال الأسطول البابوي كريماني بالهجوم على قلعة بروزه الواقعة جنوبية إلىها، ثم حاصرها، ولم لم يوفق بعد حصاره لها، عاد إلى كورفو فور علـه بوصول الأسطول العثماني. وبعد ذلك وصل أنطريه دوريا في 22 سبتمبر إلى كورفو ومعه شع وأربعون سفينة. تقدم بربروسا بسرعة نحو بروزه بعد أن قصف كمالندا، وذلك لعـه بتجمع سفن المتحالفين فيها. ولم لم يتمكن أنطريه دوريا من الصعود أمام نيران السفن العثمانية الكثيفة، فقرر التراجع بما مـه من سفن المتحالفين. وانتهت المعركة في 28 سبتمبر سنة 1539م (جمادي الأول 945هـ).

وكان من نتيجة معركة بروزه الشهيرة في تاريخ البحرية العالمية أن فقد أنطريه دوريا سمعته كبحار لا منافس له، واحتل منافـسه وهو خير الدين

تاريخ الدولة العثمانية
بربروسا موقعها، واكتسب رؤساء الأسطول أمثال طورغود الريس ومراد الريس صالح الريس وكوزلجه الريس شهرة كبيرة بفضل الانتصارات في معركة بربروسا.

لم تجنل البندقية فائدة من وراء تحالفها مع القوات التي ذكرت سابقاً، فقرر عقد الصلح مع العثمانيين. وبموجب الصلح تركت البندقية القلاع الواقعة على سواحل المورة ودلماسيا والجزر التي استولى عليها بربروسا للعثمانيين، مع دفع الجزية لهم.

(4) النزاع العثماني الأسباني: جعل خير الدين بربروسا باشاً للترك حكامًا للبحر الأبيض بعد موقعهما بربروسا الشهيرة.

تحركت في نفس الإمبراطور شارلكان أعمال الاستيلاء على الجزائر، وطرد العثمانيين منها. فقد جيشاً كبيراً حمله على السفن ومعه أندريه دوريالا وفرسان اللباب وفرسان مالطه سفينتهم في خريف 1541 م.

نزلت العسكري إلى البر بمجرد وصولها إلى الجزائر، فإنها جنود القلاع بعنف، كما دافع عن قلعة الجزائر حسن أغا الخادم وكيل بربروسا. واستمر الهجوم والدفاع ما يقرب من أربعة أشهر، خسرت قوات التحالف فيها بعض أفرادها كما دمرت العواصف ببعض من سفينتها، وعاد شارلكان بقواته المتبقية إلى دياره في ديسمبر 1541 م.

---

(1) Barbaros Hayreddin Paşa'nn Hatiraları (Tarih Mecmuası), sayi 9, Ekim 1965.57,58. مضى.

تاريخ الدولة العثمانية 262
(5) المساعدات التي قدمها الأسطول العثماني للفرنسيين: لـم تنته الحروب بعد بين فرنسوا الأول وشارلدا. وعلى الرغم من أن فرنسوا كان يطلب المساعدة باستمرار من السلطان العثماني، إلا أنه كان يمارس سياسة ذات وجهين نظراً للتعصب الديني المتبع في أوروبا. وقد كان السلطان سليمان ينتمي له العذر دائماً ويجب لمساعدته كلما طلب ذلك.

توقف شارلدا عن نشاطه البحري بعد فشله في الاستيلاء على الجزائر. وكانت فرنسا في وضع لا يمكنها من التغلب على شارلدا في البحر، فكانت مطالبها من العثمانيين تقتصر على المساعدات البحرية. تحالف فرنسوا الأول مع الترك، كما تحالف شارلدا مع إنجلترا، ومع أن السلطان العثماني كان يولد ضد البناء للحلف التركي الفرنسي، إلا أنه نجح في تحديهم دون ضمهم. وكان هدفه من وراء ذلك أن يمنع أي تحالف بين البناء والمبراطور شارلدا.

قاد خير الدين باشا أسطولاً مكوناً من 14 سفينة في ربيع سنة 1543م (950 هـ) وتقدم به في البحر الأبيض، مصطفياً معه السفير الفرنسي بولن دو لاشاد. وعندما وصل الأسطول إلى ريجيو المجاورة لتابولي التحق به أسطول جزائر مكون من 41 سفينة. وبعد أن استولى ببروسا على ريجيو وبعض المناطق الأخرى، تقدم إلى ميناء أوستيا، ثم وصل السير بعدة الساحل حتى وصل إلى مرسيليا في 24 يونيو سنة 1543م.

قابل قائد الأسطول الفرنسي فرنسوا دو باربون (دوق دنكليان) الأسطول العثماني بمراسم الاحتفال. وكان هذا القائد في الثالثة والعشرين من العمر، وعندما قابله ببروسا سأله عن خطة الحرب، وقد دفعت أيضاً دهشة عندما وجد أن الفرنسيين الذين استجذوا بالعثمانيين ليست لديهم خطة عسكرية، وتقرر الاستيلاء على نيس من يد دوق سافوا خليف شارلدا.
سلمت نيس في 20 أغسطس سنة 1543م نتيجة للحصار الشديد. ومما
الحاجز بالذكر أن ذخيرة الجيش الفرنسي قد نفت أثناء حصار قلعتها الداخليّة،
فلطلبوا من ببروسا المزيد، فأخذته الدهشة من ذلك، ووجه كلامه إلى قائد
اسطولهم فرنسوا، قائلاً: "ما أحسن هؤلاء المحاربين! مكوا سقينهم بزجاجات
الشراب، ولم ينسوا شيئاً سوى البارود". ثم سأل السفير معاً بشدة: "هل كنت
تكتسب عندما قلت لي في استانبول أن الدولة على أتم الاستعداد؟".

وصل الأسطول العثماني إلى ميناء طولون للراحة، وقد تمكن ببروسا
في هذه الفترة من تخليص طورغود الريس من أسر ابن أخي أندريه دوريا
ويسمي جانتينو دوريا.

ترك ببروسا الأسطول العثماني في غرب البحر الأبيض، وقيل عودته
أمر الأسطول بضرب سواحل إسبانيا وسربينيا، ومساعدة الفرنسيين ضد
أعدائهم، ثم عاد سنة 1544م إلى استانبول ومعه 400 من البحارة العثمانيين
 الذين كانوا يساعدون الفرنسيين.

(3) وفاة ببروسا:
لم يخرج ببروسا إلى الحرب مرة أخرى بعد مساعدته للفرنسيين، فقد
كان كبير السن يبلغ من العمر الثمانين تقريباً. وبعد عودته من غرب البحر
الأبيض بعامين، توفي ودفن في بشكتاش في 16 يوليو سنة 1546م(1)
(3جمادي الأولى سنة 953هـ). وقد أطلق اسمه على المرفأ الذي يقع على

ويقال إنه توفي في 4 يوليو 1546م، عن عمر يناهز الرابعة والسبعين.
Barbaros Hayreddin Paşa'nın Hatıraları (Tarih Mecmuası), sayı 10, Ekim 1965 s.65

تاريخ الدولة العثمانية

٧٠٤
الصفحة الرابعة: فترة الصر العثماني

السفور في مواجهة قبره(1). وبعد وفاته تمكّن الأسطول العثماني من المحافظة على قدرته ونشاطه لمدة من الزمن.

2- في المحيط الهندي والخليج والبحر الأحمر:

ازداد نشاط البرتغاليين في المحيط الهندي والخليج والبحر الأحمر في عهد السلطان سليمان القانوني، فأطلقوا على مدخل البحر الأحمر والخليج وعلى ديو 1538 م الواقعة على شواطئ الهند، كما وضعوا أنفسهم ركائز على الشواطئ خاصة في الخليج.

وقد احتدم الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين على هذه المياه في عهد السلطان سليمان القانوني، فالعثمانيون يريدون منع البرتغاليين من التسلل على مداخل المياه العربية الجنوبية وعلى بعض الشواطئ وطردهم من هذه المواقع الهامة. وكان البرتغاليون من جانبهم يهدفون إلى السيطرة على بعض المناطق الحساسة في المياه العربية، وإزالة جميع العوائق التي تتعرض تجارة الهند(2).

واصل السلطان سليمان القانوني سياسته الرامية إلى تأمين مداخل المياه العربية في الجنوب، فأرسل القبطان المشهور سليمان الريس للاستيلاء على اليمن. وقد تمكن سليمان وأخوه من فتح جزيرة كمران اليمنية الواقعة على البحر الأحمر من يد البرتغاليين. ثم تحركا إلى اليمن واستطاعوا الاستيلاء على بعض...

(1) Dr. Ismail Hakkı Adigeçen Eser, cit 2, s.372-383

(2) D. أحمد فؤاد متولي: البحرية العثمانية والبرتغالية في القرن العشرين الهجري (المستندات الشعر الميلادي)، على ضوء الوثائق التركية، في ندوة كليّة العلوم الاجتماعية بالرياض، العدد الرابع، سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).

تاريخ الدولة العثمانية

٢٦٥
محاولة فتح جزيرة مالطة

انضم أسطول عثماني مكون من 90 سفينة في ربيع 1551 م إلى الأسطول الذي كان يقوده طورغود في جزيرة أغريبوز، ثم تحرك القلعة البحرية إلى جزيرة مالطة مركز القراصنة في البحر الأبيض. وقد قام سنان باشا بقيادة المراكب البحرية وتحول بها إلى طرابلس الغرب التي كان فرسان

(1) قطب الدين النهراوي: البرق البدائي في النزاع العثماني، ص 29، الرياض 1387هـ (1967م)

(2) مصطفى سالم، النزاع العثماني الأول للبيزنطي، القاهرة 1339هـ (1919م)

للتوضيح: أن جموع فريد منذ: البحرية العثمانية والبرتغالية في القرن العشرين الهجري (السباس عشر الميلادي) على ضوء الوثائق التركية...
الله التوفيق يوفحنا الأورشليمي قد تسلاموها من الأسبان وتعهدوا بالدفاع عنها والمحافظة عليها، ثم حاصرها حصاراً شديداً حتى سقطت في 14 أغسطس ١٥٥١م (٩٥٨هـ).

ومنذ أن أقام فرسان القديس في مالطة بعد أن استولى العثمانيون على جزيرة رودس ١٥٢٢م، وهم يقيمون الاستحكانات فيها، ويجوزن الأساطيل القوية، وكلما لاحت فرصة اقتصوها واعتدوا على السفن التجارية العثمانية وهاجموا البحارة العثمانيين أو انضموا لأي دولة تحارب العثمانيين وأمدوها بالمساعدة الفعلية، وفضلًا عن ذلك فإن جزيرة مالطة تعد طريقاً هاماً بين مصر وطرابلس والجزائر التي تقع في حوزة العثمانيين، ودرواق الأمن تقتضي فتحها(١).

تحرك الأسطول العثماني قاصداً مالطة في أبريل ١٥٦٥م (٩٧٢هـ).

وحاصر الجزيرة، ثم تمكن من الاستيلاء على قلعة سانتلان، إلا أنه لم يتمكن من فتح الجزيرة التي هب الأسبان والترنسيون والبابا لنجدتها(٢).

الامتيازات الأجنبية

لم يجد السلطان سليمان القانوني أي ضير من منح بعض الدول الأوروبية خاصة فرنسا بعض الامتيازات، فيمقدوره متي شاء أن يلغيها أو يخفف من بنودها أو يقلل من مزاياها. لم ينظر السلطان إلى المستقبل البعيد، ولم يخطر بباله أن الدولة العثمانية قد تشريها الضعف واضملها، فتصبح غير قادرة على إلغاء هذه الامتيازات أو التخفيف من شروطها والالتزاماتها، خاصة وأن هذه

(1) انظر خريطة "الإمبراطورية العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني ضمن قسم الخرائط واللوحات رقم (١٦٨).

(2) Dr. Ismail Hakki: Adigeçen Eser, cilt 2, s.388-390

انظر تاريخ الدولة العثمانية
الدول التي مُنحت الامتيازات، ستعتبرها بمرور الزمن من صميم حقوقها التي لا يمكن التفرط فيها، كما أن هذه الدول ستساهم بمرور الأيام المطالبة بالمزيد من الامتيازات، أو توسيع مجال الامتيازات القديمة. وهذا ما حدث بالفعل...

كانت الدول الأوروبية الكبرى لا تنفك عن التدخل في شئون الدولة العثمانية بطرق وأساليب مختلفة، وذلك استناداً إلى الامتيازات الأجنبية. إن الامتيازات المذكورة كانت قد نشأت ممّا الفراعين التي أصدرها والمعاهدات التي أبرمها سلاطين آل عثمان في تواريخ مختلفة في شتى الظروف والمناسبات.

لقد أخذت شكل نظام تعهدية لم تعد الدولة العثمانية تملك حق إلغائها أورتعديلها من تلقاء نفسها، ولا سيما بعد أن وصلت إلى ما وصلت إليه من الضعف والانحطاط. فصارت الدولة المذكورة تعتبر تلك الامتيازات بمثابة حقوق مكتسبة لها ولرعاياها، وحتى لكل من تشملهم بنعمه حمايتها من تبعية الدولة العثمانية نفسها. وللإسباب لعبت الامتيازات المذكورة دوراً هاماً في تاريخ الدولة العثمانية، خلال عهدها الأخير. لقد عُرقلت كثيراً جهود التنظيم والتقدم في عهد التنظيمات، وصارت موضوعاً لشتي المسامير في عهد المشروطية، وانتهت إلى نتائج خطيرة قبل نشوب الحرب العالمية الأولى.

وهذه هي الامتيازات التي منحها السلطان سليمان القانوني لرعايا فرنسا بالمانك المحروسة في فبراير ١٥٣٦م (١٤٤٢ هـ).

(البند الأول): تعهد التعاقدان بالموافقة عن جلالة الخلافة الأعظم وملك فرنسا على السلم الأكيد والوفاق الصادق مدة حياته، وفي جميع المماليك.

---

(1) المصدر: الأغصان العربي والدولة العثمانية، ط ٢، ص ١٤٣، ١٤٤، بروت، ١٩٩٠.
(2) نقلت عن: محمد فريد: المرجع السابق، ص ٩٠-٩١.
والولايات والحمص والعمل والمحال والمدينة والبنايات والبحار والجزر جومل الأساليب المملوكة لها الآن أو التي تدخل في حوزتها فيما بعد. بحيث يجوز لرعاياهم تابعهم السفر بحراً برماكن مسلحة أو غير مسلحة وتجول في بلاد الطرف الآخر والمضي إليها وإقامة بهما أو الوقع إلى الثغور والمدن أو غيرها بقصد الاتجار على حسب رغبتهم بكمال الحرية بدون أن يحصل لهم أدنى تعدد عليهم أو على متاجرهم.

(البن عد الثاني): يجوز لرعايا تابعي الطرفين البيع والشراء والتبادل في كافة السلع الغير ممنوع الاتجار فيها ونقلها براً أو بحراً من مملكة إلى أخرى مع دفع العوائد والضرائب المعتادة قديماً، بحيث يدفع الفرنسيون في البلاد العثمانية ما يدفعه الأتراك، ويدفع الأتراك في البلاد الفرنساوية ما يدفعه الفرنسيون بدون أن يدفع أي الطرفين عوائد أو ضرائب أو مكوساً أخرى.

(البن تان الثالث): عندما يعين ملك فرنسا قنصلًا في مدينة القسنطينية أو في بيرا أو غيرهما من مدن المملكة العثمانية كالقنصل المعين الآن بمدينة الإسكندرية، يصير قبوله بكيفية لائقة، وكبكون له أن يسمع ويعحكم ويقطع مقتضى قانونه وذمه في جميع ما يقع في دائرته من القضايا المدنية أو الجنائية بين رعايا ملك فرنسا بدون أن يمنعه من ذلك حاكم أو قاضي شرعي أو صوفاشي أو أي موظف آخر. ولكن لو أمكن أحد رعايا الملك عن إبطاعة أوامر أو أحكام القنصل، فله أن يستعين بموظفين حلالة السلطان على تنفيذه وعليهم مساعدته ومعاونته. وعلى أي حال ليس للقاضي الشرعي أو أي موظف آخر أن يحكم في المنازعات التي تقع بين التجار الفرنسيين وباقى رعايا فرنسا حتى لو طلبا منه الحكم بينهم وإن أصدر حكماً في مثل هذه الأحوال يكون حكمه لاغياً لا يعمل به مطلقاً.
الفصل الرابع: فترة الحصر الذهبي

(البنود الرابع): لا يجوز سماع الدعاوى المدنية التي يقيمها الأتراك أو جباه الخراج أو غيرهم من رعايا جلالة السلطان ضد التجار أو غيرهم من رعايا فرنسا أو الحكم عليهم فيها، ما لم يكن مع المدعين سندات بخط المدعى عليهم أو حجة رسمية صادرة من القاضي الشرعي أو القنصل الفرنسي، وفي حالة وجود سندات أو حجة لا تسمع الدعوى أو شهادة مقدمتها إلا بحضورترجمان القنصل.

(البنود الخامس): لا يجوز للقضاة الشرعيين أو غيرهم من مأموري الحكومة العثمانية سماع أي دعوى جنائية أو الحكم ضد تجار ورعايا فرنسا بناء على شكوى من الأتراك أو جباه الخراج أو غيرهم من رعايا الدولة العلية، بل على القاضي أو المأمور الذي يرفع إليه الشكوى أن يدعو المتهمين بالحضور بالباب العالي محل إقامة الصدر الأعظم الرسمي.

وفي حالة عدم وجود الباب المشرب إليه (أي إذا حصلت الواقعة في محل غير الآستانة) يدعوهم أمام أكبر مأموري الحكومة السلطانية وهناك يجوز قبول شهادة جابي الخراج والشخص الفرنسي، ضرب بعضهما.

(البنود السادس): لا يجوز محاكمة التجار الفرنسيين ومستخدميهم وخدامهم فيما يختص بالمسائل الدينية أمام القاضي أو السنعك أو الصوباشي أو غيرهم من المأمورين بل تكون محاكمتهم أمام الباب العالي ومن جهة أخرى يكون مصدر لهم باعتبار شعائر دينهم ولا يمكن جبرهم على الإسلام أو اعتبارهم مسلمين ما لم يقروا بذلك غير مكرهين.

(البنود السابع): لتعادل واحد أو أكثر من رعايا فرنسا مع أحد العثمانيين أو اشترى منه بضائع أو استدان منه نقودًا ثم خرج من الممالك العثمانية قبل أن

تاريخ الدولة العثمانية 270
يقوم بما تعهد به فلا يسأل القنصل أو أقارب الغائب أو أي شهيد فرنسي-Apraxi آخر عن ذلك مطلقاً، وكذلك لا يكون ملك فرنسا ملزمًا بأي شيء بعده عليه أن يوفي طلب المدعى من شخص المدعى عليه أو أملاكه أو وجدهت بأراضي الدولة الفرنساوية أو كان له أملاك بها.

(البنك الثامن): لا يجوز استخدام التجار الفرنسيون أو مستخدمهم أو خدامهم أو سفينهم أو قولاتهم أو ما يوجد بها من اللوازمات أو المدافع أو الدخائر أو التجارة جلهاً عنهم في خدمة جلالة السلطان الأعظم أو غيره في البحر والبحر ما لم يكن ذلك بطبعهم واختيارهم.

(البنك التاسع): يكون لتجار فرنسا ورعاياها الحق في التصرف في كافة متعلقاتهم بالوصية بعد موتيهم وتعين وفاة أحد منهم وفاة طبيعية أو قهرية عن وصية فتوزع أموراه وباقي ممتلكاته على حسب ما جاء بها ولو توفي ولم يوص فتسلم تركته إلى وارثه أو الوكيل عنه بمعرفة القنصل لو كان في محل وفاته القنصل، وإذا فتحظ الناقة بمرض قالته القنصل أنه عمل بها قائمة جرد على يد شهود. أما لو كانت الوفاة في جهة بها قنصل فلا يكون للقنصلي أو مأمور بيت المال أو غيرهما حق في ضبط الناقة ولو سبق ضبطها بمعرفة أحد منهم بصير تسليمه إلى القنصل أو من ينوي عنه لو طلبها قبض الوكيل أو ركبه وعلى القنصل توصيلها وتسليمها إلى صاحب الحق فيها.

(البنك العاشر): بمجرد اعتماد جلالة السلطان وملك فرنسا لهذه المعاهدة فجميع رعاياها الموجودين عندهما أو عند تابعينهم أو على مراقبهم أو سفنيهم أو في أي محل أو إقليم تابع لسلطتهما في حالة الرق سواء كان ذلك بسواهم أو بأسرهم وقت الحرب بصير إخراجهم فوراً من حالة الاسترقاق إلى حبحة الحرية بمجرد طلب وتقدير السفير أو القنصل أو أي شخص آخر معين.

تاريخ الدولة الفرنسية 371
الخصوص ولو كان أحدهم قد دير دينه وعونه فلا يكون ذلك مانعا لإطالة سراحه.

ومن الآن فصاعداً لا يجوز لجلالة السلطان أو ملك فرنسا ولا لقوماداته البحر والبحر والحرب أو أي شخص آخر تابع لأحدهما أو لم يسترائهم لذلك سواء في البحر والبحر وأخذ أو شراء أو بيع أو حجز أسراء الحرب بصفة أرقلة ولو تجاوز قر ضمن أو غزوه من رعايا إحدى الدولتين المتعاقدتين على أخذ أحد رعايا الطرف الآخر أو اغتصاب أملاكه أو أمواله يصير إخبار حاكم الجهه عليه ضبط الفاعل ومعاقته على مخالفة شروط الصلح عبرة لغيره ورد مما يوجد عدده من الأشياء المغتصبة إلى من أخذت منه وإذا لم يضبط الفاعل فيمنع هو وجميع شركاته من الدخول في البلاد وضبط ممتلكاته لجانب الحكومة التابع إليها وصار التوقيع على ما حصل له من الضرب مما يصدر من أملاك الجاني وهذا لا يمنع من مجازاته لو صار ضبطه فيما بعد وللمجني عليه أن يستعين على الحصول على ذلك بضمانه هذا الصلح وهم السرعة عز جانب السلطاني وأكبر القضاء عن ملك فرنسا.

(البند الحادي عشر): لو تقابلت دوناتات إحدى الدولتين المتعاقدتين ببعض مراكب رعايا الدولة الأخرى فعلى هذه المراكب تنزل قلوعها ورفع أعلام دولتها حتى إذا علمت حققة لا تحجز أو تقاضيها السفن الحربيه أو أي تابع آخر للدولة صاحبة الدوناتاته. وإذا حصل ضرب لأحدهما فعلى الملوك صاحب الدوناتاته تعويض هذا الضرب فوراً. وإذا تقابلت سفن رعايا الدولتين فعليهما رفع العلم وإبداء السلام ببطلة مدفع والمجاورة بالصديق لو سئل ربانها عن الدولة التابع إليها ولما تعلم حقيقة لا يجوز لإحدها أن تفتى ناً أخرى بالقوة أو تسبب لها أي عائق كان.
(البند الثاني عشر): إذا وصلت إحدى المراكب الفرنساوية سواء بطريق الصدفة أو غيرها إلى إحدى موانئ أو سفن الدولة العالية تعطي ما يلزمها من المأكولات وغيرًا من الأشياء مقابل دفع الثمن المناسب بدون إزامها تقريغ ما بها من البضائع لدفع الأثمان ثم يباح لها الذهبات أيضاً في كل. وإذا وصلت إلى الآستانة وأرادت السفر منها بعد الاستحضار على جواز الخروج من أمين الجمرك ودفع الرسم اللازم وتقييدها بعمرة الأمين المشارك إليه فلا يجوز ولا يمكن تقييدها في أي مكان آخر إلا عند الحصول المتقن بمكان بوغاز جاليبولي (الدردنيل) بدون دفع شيء مطلقًا لا عند هذا البوغاز ولا في أي مكان آخر عند خروجها خلاف ما صار دفعه سواء كان الطلب باسم جلالة السلطان أو أحد ماموريه.

(البند الثالث عشر): أو كسرت أو أغرقت مراكب إحدى الدولتين بالصدفة أو غيرها عند البلاد المنيرة للطرف الآخر فمن ينجو من هذا الخطير يبقى متمتعاً بحريةه لا يمنع في أخذ ما يكون له من الأمتعة وغيرها. أما لو غرق جميع من بها فما يكن تخلصه من البضائع على القنصل أو نائبه تسليمها لأرابها بدون أن يأخذ القبودواي أو السننج بك أو الصوباشي أو القاضي أو غيرهم من ماموري الدولة أو رعاياها شيئاً منها ولا يفعل في ضرطب بذلك الأعمال وعلى هؤلاء الماموريين أن يساعدوا ممن يخصصون لاستلام الأشياء المذكورة.

(البند الرابع عشر): لو هرب أحد الأرقاء المملوكين لأحد العثمانيين واحتمى في بيت أو مركب أحد الفرنساويين فلا يجب الفرنساوي إلا على البحث عنه في بيت lui أو مركبه أو وجد عند له يعاقب الفرنساوي بعرفة منصله ويرد
الرقيق ليس به. وإذا لم يوجد الرقيق بدار أو مركب الفرنسي، فلا يسأل عن ذلك مطلقاً.

(البند الخامس عشر): كل تابع لملك فرنسا إذا لم يكن أقام بأراضي الدولة العلياء مدة عشر سنوات كاملة بدون انقطاع لم يلزم بدفع الخراج أو أي ضريبة أياً كان اسمها ولا يلزم بحراسة الأراضي المجاورة أو مخازن جلالية السلطان ولا بالشغال في الترسانة أو أي عمل آخر وكذلك تكون معاملة رعايا الدولة في بلاد فرنسا.

وقد اشترط ملك فرنسا أن يكون للبابا وملك إنجلترا أخيه وحليفه الأبدي وملك إيطاليا الحق في الانتزاع بمنح هذه المعاهدة لو أرادوا بشرط أنهم يبلغوا تصديقهم عليها إلى جلالة السلطان ويطلب منه اعتماد ذلك في ظرف ثمانية شهور تمضي من هذا اليوم.

(البند السادس عشر): يرسل كل من جلالة السلطان وملك فرنسا تصديقه للآخر على هذه المعاهدة في ظرف ستة شهور تمضي من تاريخ إمضائها مع الوعد من كلاهما بالمحافظة عليها وتنفيذها على جميع العملا والقضاء والمأمورين وجميع الرعايا بمراعة كاملة لكل نصوصها بكل دقة ولكني لا يدعي أحد الجهل بهذه المعاهدة يصير نشر صورتها في الأستانة وسكندرية ومصر ومرسيليا وباريسا وفي جميع الأماكن الأخرى الشهيرة في البر والبحر التابعة لكل من الطرفين. انتهت المعاهدة.

وبذلك صارت فرنسا الدولة الأوروبية الوحيدة الحائزة على استيارات لرعاياها، ولكن هذا الاتفاق كان سبباً في تدخل فرنسا وبالنسبة دول أوروبا في شؤون الدولة العثمانية الداخلية.

تاريخ الدولة العثمانية

٢٧٤
القوانين التي وضعها سليمان القانوني

اشتهر السلطان سليمان بالقانوني، نظرا لما وضعه من قوانين منظمة تحكم بموجبها الإمبراطورية العثمانية.

وقد راعى السلطان في هذه القوانين أن تكون مختلفة إلى حد ما من منطقة إلى أخرى في أرجاء الإمبراطورية، مراعاة للظروف الخاصة لكل منطقة.(1)

ومما يسترعي الانتباه مثلا أن السلطان سليمان أرسل الصدر الأعظم إبراهيم باشا إلى مصر، للدراسة أسباب وقوع العصيان بها عدة مرات. ووجد أن ذلك مرده القوانين العثمانية الجديدة التي تغالي في فرض الضرائب (وهي التي وضعت للشام ومصر في عهد سليم الأول). ووجد إبراهيم باشا العربان والأهالي ينادون بتخفيف الضرائب وإلغاء القوانين العثمانية التي لا تتفق مع ظروف الديار المصرية، وإعادة القوانين المملوكية. فما كان منه إلا أن طلب مجموعة من القوانين التي وضعت في عهد قايتباي المملوكي، ثم تفرض على دراستها، وأخذ يبحث موادها، والطريقة التي تبعها فانصوه الغوري وخير بك في تطبيقها. ثم أصدر "قانونناهم" مراعيا فيه مصلحة الرعايا والخزينة، وأجري تعديلا على القوانين العسكرية والقضائية.(1)

(1) Dr. Omer Barkan: xv ve xvi Asırlarda Osmanl: Imparatorlukunda Zirai, Ekonomi, Hukuki ve Mali Esasları: 1 Kanunlar İstabul 1954

لمزيد من التفصيل انظر: "قانونناهم" مصر. "الذي أصدره السلطان القانوني لحكم مصر" ترجمة رقم له وعلق عليه الدكتور أحمد فؤاد منتوه.

تاريخ الدولة العثمانية

٢٧٥
وفاة السلطان سليمان القانوني:

وعند وفاة السلطان سليمان القانوني 1566 م (974هـ) كانت الإمبراطورية العثمانية قد بلغت أكثر من ضعف اتساعها خلال فترة حكمه التي امتدت 46 عاماً، بالمقارنة بما كانت عليه ساعة وفاة أبيه سليم الأول. أي أنّها بلغت 1869230 كم² إمّا 1998000 كم² في أوروبا، 169000 كم² في آسيا، 872600 كم² في أفريقيا (1).

استمرار فترة العصر الذهبی بعد موت سليمان القانونی:

توفي سليمان القانوني ليلة السبت 20 صفر 974 هـ (6-7 سبتمبر 1565 م)، فخلفه على العرش ابنه سليم الثاني (1566-1574 م= 976-982 هـ). والذين يرون بأن الدولة العثمانية انتهى عصرها الذهبى بموت سليمان القانوني، إنما يقارنون هذا السلطان العظيم بمن يتعاه وهم: ابنه سليم الثاني، وحفيده مراد الثالث (أي حفيد سليمان القانوني)، والوضاع في ظني يختلف كلية، فسليمان القانوني يعتبر أحد عمالقة العثمانيين، أو آخر العمالقة.

(1) Yılmaz Öztuna: Adigeçen Eser, cilt 2, s.239

(2) يمكن مقارنة المساحة التي بلغها الدولة العثمانية في كل عهد من عهود السلاطين: أورخان، مراد الأول، محمد الفاتح، بايزيد الثاني، سليم الأول، سليمان القانوني (راجع صفحات 239, 461, 468).
العثمانيين على حد قول الأوروبيين، أما هذين السلطانين وأقصى سليم الثاني ومراد الثالث، فيمكننا على قدر سلفهما من الأهمية والشهرة. إلا أن الإمبراطورية العثمانية ظلت مرهوبة الجانب إلى أواخر عهد مراد الثالث، كما استمرت فتوحاتها. ولم يفتح عهد الاضطرابات والأزمات، إلا في أواخر عهد السلطان مراد الثالث، ابتداء من سنة 1590 م (998 هـ). لهذا ينبغي علينا أن ندرج هذين السلطانين حتى هذا التسمية ضمن مرحلة العصر الذهبي للإمبراطورية العثمانية. ولا ينبغي علينا المقارنة بين سليمان العظيم، كما يسمي الأوربيون، من ناحية، وبين ابنه سليم الثاني وحفيده مراد الثالث من ناحية أخرى، فالفرق شاسع وكبير يدوعنا في خطأ اعتبار هذه الفترة الأخيرة ضمن عصر الانهضاط والاضمحلال والضعف.

والإمبراطورية العثمانية -والحق يقال- تمكنت بالكامل في عهد سليم الثاني ومراد الثالث من الاحتقان في تفتوحاتها السابقة وأمجادها العريقة حتى عام 1590 م (998 هـ) في عهد مراد الثالث، وكانت الفتوحات الجديدة في عهد هذين السلطانين ضئيلة، إلا أنهما حافظتا على أملاك الدولة العثمانية وأضافتا إليها، خاصة في عهد سليم الثاني الذي لعب فيه الصدر الأعظم محمد باشا صقولي دوراً كبيراً كسياسي قدير وكمحارب فذ (1).

ومن الجدير بالذكر أن الإمبراطورية العثمانية بلغت أقصى مدى وصلت إليه في السعة في عهد حفيد القانوني مراد الثالث (تولى 1574 - 1590 م)، فقد

ولد محمد باشا صقولي في بلدة صوقول بالبوسنة سنة 1111 هـ. وتولى منصب الصدارة العظمى في أواخر عهد سليمان القانوني وطول عهد سليم الثاني ولعدة خمس سنوات في عهد مراد الثالث، إلا أنه كان من المعضوب عليهم في عهد الأخير فقتله.
فتح بلاد فققاسيا الواسعة، وضم إمبراطورية المغرب، ومملكة بولونيا (لیستان) تحت حمايته(1).

ويُعتبر المؤرخ التركي الدكتور خليل إينالجق الإمبراطورية العثمانية إحدى القوى العالمية في الفترة من 1526-1596م، أي خلال عهود سليمان القانوني وسليم الثاني ومراد الثالث(2).

فتح جزيرة ساقز:

استولى العثمانيون على الجزيرة الهامة في البحر الأبيض، بعد أن نَمَت قوتهم البحرية. إلا أنهم لم يستولوا على جزيرة ساقز المشتركة على ساحل الأناضول، واتخذوا الجزيرة من البايادقة الذين سيطرن عليها، كما قنعوا بالمعاهدات التجارية التي أبرموها معها. ومرور الأيام توقفت الجزيرة عن دفع الجزية السنوية، كما أن أمراءها ساعدوا الفرسان أثناء حصار العثمانيين لجزيرة مالطة.

كلف السلطان العثماني سليمان القانوني بياله باشا بالاستيلاء على جزيرة ساقز، أثناء قيامه بالحرب في سكتنار، إلا أن المنية لم تمهل سليمان حتى يرى نتيجة جهود أمير الجزائر وقبطان البحر بياله باشا. تحرك القبطان في إبريل سنة 1566م (5 رمضان 973 هـ)، قاصداً الجزيرة، واستولى عليها بعد وفاة السultan سليمان، ثم عين مظفر بك أمير سنجق قبر شهر حاكماً عليها(3).

---

(1) Yılmaz Öztuna: Adigeçen Eser, cit 6, s.240
(2) Dr. Halil İnalcık: Op. Cilt, p.35
(3) Dr. Ismail Hakki: Adigeçen Eser, cit 3, s.6-8

انظر:

تاريخ الدولة العثمانية 278
الفصل الرابع: فترة الحصين الذبي

الصلح مع النمسا:

عقدت معاهدة للصلح بين الدولة العثمانية والنمسا لمدة ثمان سنوات في 17 فبراير 1568 م (رمضان 975 هـ). وكانت شروطها تتضمن في احتفاظ النمسا بأملاكها في بلاد المجر، ودفعها الجزية السنوية المقررة بالعهد السابق، وإعترافها بتبعية أمراء ترانسيلفانيا والفلاخ والبغدان إلى الدولة العلوية.

فتح جزيرة قبرص:

استولى المسلمون على جزيرة قبرص لأول مرة سنة 270 هـ (1489 م). بينما كانت تحت النفوذ البيزنطي، وانتقل منها بدفع الجزية. ثم توقفت الجزية بعد مدة من الزمن للخليفة العباسي هارون الرشيد بالاستيلاء عليها. إلا أن الإمبراطور البيزنطي نيكفور فوكس تمكن من استردادها سنة 1260 م. وأثناء الحرب الصليبية استولى ريتشارد قلب الأسدي ملك إنجلترا على الجزيرة، وطرد البيزنطيين منها، وعين عليها جوسي دي لويسجان 1192 م، وقبعت الجزيرة منذ هذا التاريخ تحت حكم من قبل سلالة هذا الوالي. ثم وقعت الجزيرة في أيديのように في سنة 1269 م، وسُلمت إلى البابية سنة 1489 م.

وفي سنة 1422 م (928 هـ) استولى برسباي على قبرص، وأسر ملكها جاك، وفرض عليها الجزية، لأن سفنه كانت تهدد الشواطئ المملوكة.

كان تهديد الجزيرة للشواطئ التابعة للدولة العثمانية كشواطئ الأناضول والشام، يزداد من يوم لآخر، وقد دفع هذا بالسلطان سليم الثاني، أن يفكر جدياً في فتحها، للقضاء على الخطر الدائم على شواطئ الدولة العثمانية. ولمها أحس

(1) محمد فريد: المراجع السابق. من 109

تاريخ الدولة العثمانية

279
البنادقة أصحاب السيادة على الجزيرة بنية العثمانيين، استهضوا همالة البابا لتحريض أوربا على محاصرة العثمانيين.

وعلى الرغم من أن البنادقة نجحوا في عمل حلف مقدس مكون من: فليب الثاني ملك أسبانيا والبابا وفرسان مالطة، إلا أن الأسطول العثماني تحرك في مايو سنة 1570م (ذي الحجة 977هـ) متوجهًا إلى جزيرة قبرص.

كان من الطبيعي أن يفكر العثمانيون في الاستيلاء على قبرص، فقد استولوا على شرق البحر الأبيض، ولم يعد خارجاً عن نفوذهم في المنطقة سوى جزيرة قبرص، القريبة من سواحل طرابلس الشام والإسكندرية ومرسين وليجل. فضلًا عن أن قراصنة مالطة والبندقية كانوا يعتمدون على السفن التحتيم من الشام ومصر إلى أستانبول والعكس. كما أن القبارصة كانوا يصدرون بضائع التجار الذين تنجز سفنهم على شواطئ الجزيرة بسبب العواصف.

تحرك الأسطول العثماني من أستانبول في مايو سنة 1570م (ذي الحجة 977هـ) بقيادة قبطان البحر موسى زادة على باشا، ثم عين السردار لالا مصطفى باشا على رأس القوات المتحركة إلى الجزيرة، كما شارك الوزير ييال باشا وهو صهر السلطان في قيادة القوات البحرية. وقد تمكنت لالا مصطفى باشا من الاستيلاء على العاصمة لفقوشها في 9 سبتمبر 1570م (8 ربيع الآخر 978هـ) بعد حصار دام واحداً وخمسين يوماً. وبعد سقوط العاصمة استسلمت المدن الأخرى الواحدة تلو الأخرى، فيما عدا ماغوس (فماكوسميثة)، التي استمر حصارها عاماً كاملاً، حتى سقطت في أيدي العثمانيين في 4 أغسطس 1571.

وقد اعتبرت قبرص إالة بعد ضم طروس وعلاقية وإيجل إليها، حسب نظم الإدارة العثمانية (1)، وعين مظفر باشا أمير سنجد أولونياً وليلاً عليها.

(1) نظر المهمة، رقم 16، من 1446، بتاريخ جمادى الآخرة 1379هـ.
وجري تهجير بعض العثمانيين إليها من مدن الأناضول، مثل: قونية وقرامان ونيكده وقيصرية.(1)

معركة ليبانت البحرية (أينه بختي):

طلبت البندقية من البابا أن ينادي بهم حلف مقدس لإنقاذ قبرص من يده العثمانيين. ظل البابا عاماً كاملاً، إلى أن تجمع حوله أسبانيا ومالطة بالإضافة إلى البندقية بالطبع. ويعتبر هذا التحالف الثاني عشر الذي يقوم به الأوروبيون ضد العثمانيين.(2)

قاد دون جوان النمساوي ابن شارلكان وهو ابن أخت فيليب الثاني ملك أسبانيا أسطول التحالف وترأس مʊزون زاده على باشا أسطول العثمانيين، وتحرك به إلى ميناء ليبانتو Lepanto وتحرك به إلى ميناء ليبانتو Lepanto حيث تجمع سفن الحلف. وقد استقر رأي القواد العثمانيين بعد مشاركات طويلة على مباغتة أسطول المتحالفين في الميناء المذكور. بدأت المعركة في صباح 7 أكتوبر 1571م (17 جمادي الأول 979 هـ)؛ وانتهت عند المساء بهزيمة الأسطول العثماني هزيمة ساحقة، أعاقت بسببها 190 سفينة تركية أو أسرت من مجموع 224 سفينة، واصطاد قائد الأسطول موزن زاده ومجموعة من رفاقه.

ومن الجدير بالذكر أن حسن باشا ابن خير الدين بربريس كان يشارك في هذه المعركة البحرية.

وقد أطلق العثمانيون على هذه المعركة "أينه بختي" أي الحظ العائر.

---
(1) Dr. Ismail Hakki Adigeçen Eser, cilt 3, s.6-17
(2) ذكر المهمة، رقم 11، ص 246، بتاريخ 1779 هـ، وذكر المهمة، رقم 19، ص 246، بتاريخ 1779 هـ
اصبح الوضع حرجة بالنسبة للعثمانيين بعد أن دمر أسطولهم في موقعها "أينه بختى" البحرية. وقد تضافرت جهود قادة الأسطول الجديد قلبي علي باشا مع جهود الصدر الأعظم محمد باشا صقولي على إنشاء أسطول جديد على جناح السرعة، لتدرك الموقف الحرج الذي أصبح فيه العثمانيون.

وخلال شتاء نفس العام تمكنوا هذه الجهود المكثفة بتوجيه من السلطان سليم الثاني نفسه من إنشاء أسطول جديد متكامل، مكون من 250 قطعة بحرية، بدأ يجوب البحر الأبيض مع مطلع شهر يونيه 1572 م (صفر 980 هـ) مستعدياً نشاطه السابق.

ويعتبر المؤرخ التركي الدكتور خليل أينانج هذه المعركة أكبر معركة وقعت في البحر الأبيض بين العثمانيين وأعدائهم، حيث تحطم الأسطول العثماني وقتل 59 ألف جندي من الجانبين.

وعلى الرغم من أن معركة ليبيانت البحرية كسرت سيطرة العثمانيين التي تحققت لهم منذ معركة بروزه 1538 م على حد قول المؤرخ الأمريكي بارري Parry؛ إلا أنها يمكن أن تعتبر رمزاً لنصر عسكري مميز، أكثر من مسألة حيوية في نتائجها الفعلية.

كانت هذه المعركة وسيلة لكي ينقطع الأوروبيون أنفسهم ويتنفسون الصعداء. إلا أن الدول المتحالفة لم تستثمر هذا النصر الذي أحرز، ولم تفقد الدولة العثمانية شيئاً من أملاكها، رغم أن الضربة كانت عنيفة.

---

(1) Dr. Halil İnalcik: Op. Cit., pp.41,42
(2) C. Pasr: The Successors of Sulaiman 1566-1617. A chapter in : A history of the Ottoman Empire to 1730, by Parry and others, p.109
فقد جعلت هذه الهزيمة الأوروبية معتقدون في إمكانية هزيمة القوة العثمانية التي كانت لا تهزم في البر أو في البحر. أصبح الاعتقاد عندهم أن أي قوة يمكن أن تهزم كما تهزم قواتهم أمام العثمانيين (1). هزت هذه الهزيمة الساحقة الشهرة الكبيرة للدولة العثمانية في البحر الأبيض المتوسط. وتعد الحادثة الثانية بعد حادثة تيمورلنك في نظر نادي كمال (2).

الصلح مع البندقية:

تفرق التحالف بعد هذه المعركة، ولم يمكن المتحالفون من اقتناص الفرصة، ومالت البندقية للصلح، فوقعته مع الدولة العثمانية في أبريل 1523 م (14 ذي القعدة 930 هـ). وقد اعترفت البندقية بموجب هذا الصلح باستيلاء العثمانيين على قبرص، مع تعدها بدفع الجزية السنوية المقررة منذ عهد سليمان القانوني (3).

قلاقل اليمن:

أرسل الصدر الأعظم صوقولي باشا جيشاً عظيمًا إلى بلاد اليمن في سنة 1569 م (977 هـ)، تحت قيادة عثمان باشا ابن أوزدمر، الذي عين عاملًا عليها لمع ثورة أهاليها الذين أعلنوا العصيان على الدولة العثمانية، اتباعًا لأمر سلطانهم الشريف مهطل بن شرف الدين يحيى. فانتصر عثمان باشا عليهم،

(1) Ismail Hami Danışmend: Adigeçen Eser, Cilt 3, s.409,410
(2) Ismail Hakki: Adigeçen Eser, cilt 3, s.24-26
(3) Namik Kamal: Osmanli Tarihi, cilt 3, s.292 Istanbul 1971
بمساعدة سنان باشا والي مصر، ودخلت الجيوش المظفرة مدينة صنعاء بعد أن فتحت جميع القلاع.

إعادة فتح تونس:

توجه أولوج علي باشا أمير الجزائر إلى تونس أثناء حصار قبرص، واستولى عليها، إلا أن هذا الفتح كان ناقصاً، بسبب استمرار وجود الأسبان في حلق الوادي (قابليان أو قويليتا). وبعد عقد الصلح مع البندقية، توجه دون جوان إلى سواحل إفريقيا واستولى على تونس، فلجأ حامد ابن مولاي حسن إلى الأسبان، ولم يتمكن والي تونس العثماني حيبر باشا من الصمود أمام الأسبان، فانسحب إلى القروان. وقام دون جوان بتعيين مولاي محمود على تونس.

أمر سدران اليمن السابق سنان باشا وقبطان البحر قليج علي باشا باسترجاع تونس، فتوجه إليها بأسلوب كبير في عام 1574 م (982 هـ)، وتمكن من الاستيلاء عليها وطرد الأسبان من حلق الوادي أيضا في أغسطس 1576 م.

وفاة سليم الثاني:

توفي السلطان سليم الثاني في ديسمبر 1574 م (18 شعبان 982 هـ)، وهو أول سلطان من سلاطين آل عثمان لا يخرج للحرب بنفسه أبداً، مكتفياً من الحياة بعشيقة الصفاء والملذات. ولولا الدور البارز الذي لعبه الصدر الأعظم محمد فريد: المرجع السابق، ص 110


Ismail Hakki: Adigeçen Eser, cilt 3, s.23-30

تاريخ الدولة العثمانية 284
الفصل الرابع: فترة العصر الذهبي

صقولي باشا في تدبير شؤون السياسة وال الحرب، لهوت أركان الإمبراطورية العثمانية التي تزامن أطرافها، فهو بحق مدير أمور الدولة العثماني في عهد السلطان سليم الثاني.

ثم تولى مراد الثالث ابن سليم الثاني عرش الدولة العثمانية (1056 هـ = 1646م–1651م)، وقد ازدادت في عهده الأحقاد على الصدر الأعظم الناجح صقولي باشا، حتى فتك به بعد خمس سنوات من ولاية السلطان الجديد.

تجديد الامتيازات الأجنبية:

كانت علاقات هذا السلطان مع فرنسا حسنة جداً وكذلك مع جمهورية البندقية، فجدد لما الامتيازات القنصلية والتجارية، مع زيادة بعض بنود في صالحةهما، أهمها أن يكون سفير فرنسا مقدماً على كافة سفراء الدول الأخرى في المقابلات والاحتفالات الرسمية، حيث كثر توارد السفراء على باباه العالي، ليدعي في إبرام معاهدات تجارية، تكون ذريعة في المستقبل للتدخل الفعلي. وفي أيامه حصلت إسبانيا ملكة إنجلترا على امتياز خصوصي لتجار بلادها، وهي أن تحمل مراكب العلم الإنجليزي، و كان لا يجوز لها ذلك قبلة، بل كانت السفن على اختلاف أعجاسها ما عدا سفن البندقية لا تدخل إلى مواطن الدولة العثمانية إلا تحت ظل العلم الفرنسي ليس إلا، كما قضت بذلك العهد التي أبرمت مع السلطان سليمان القانوني وابنه السلطان سليم الثاني، وتجددت في أوائل حكم هذا السلطان (1).

(1) محمد فريد: المرجع السابق، ص 113

تاريخ الدولة العثمانية

285
الحرب مع إيران وفقاً:

مررت الحرب مع إيران في عهد مراد الثالث بثلاث مراحل: أولاً، بدأت سنة 1577م وانتهت 1589م (980 – 991 هـ)، واستمرت اثنا عشر عاماً.

قاد للا مصطفى باشا الجيش العثماني الزاحف على إيران، وتمكن بسهولة من الاستيلاء على كرجستان "بلاد الكرج" 1578م (981 هـ)، ثم فتح تقليص قشمون.

واستطاع القائد العثماني عثمان باشا ابن أوزدمر من استرجاع شمالي فيما بعد، واستولى على باكو، ثم توجه إلى كله لتدرب خان القرم محمد غيروي.

وقد تمكن من القبض عليه وقتله، وتعيين إسلام غيروي مكانه، ثم فجر راجعةً إلى استانبول. ومن الجدير بالذكر أن القتال كانت تدش برساها من حين لآخر في هذه البقاع، وكان الجيش العثماني يعاود الحلف إليها كلما دعت الضرورة.

وقد نجح عثمان باشا في دخول تبريز 1585م (993 هـ)، كما وفـق في رهاد باشا في فتح كنجه ومنطقة قهر باغ، ثم ضمت نواحده من قبل جاغلعة باشا.

وفي النهاية طلب الشاه عباس الصلح مع العثمانيين في سنة 1590م (998 هـ).

وهكذا تنتهي مرحلة العصر الذهبي، لكي تبدأ فترة الأزمات والاضطرابات والقلاقل التي أصابت الدولة العثمانية في الصعيد.

---

Ismail Hakki: Adigeçen Eser, cilt 3, s. 57-62

(1) انظر خريطة "الإمبراطورية العثمانية في أقصى اتساعها" ضمن قسم الخرائط واللوهات رقم (11).

(2) تاريخ الدولة العثمانية ٢٨٦.
تاريخ الدولة العثمانية تاريخ طويل ومستشعب تكتشفه الصعوبات ظنناً،
لامتداد هذه الإمبراطورية على مساحة زمنية طويلة، فهي أطول الإمبراطوريات
عمرها بعد الإمبراطورية الرومانية. وقد امتدت أراضيها في ثلاث قارات، هم:
أوروبا وآسيا وأفريقيا، وشملت منطقة استراتيجية هامة من العالم تتكون من
أجناس عديدة ولغات متنوعة وديانات كثيرة وثقافات مختلفة وحضارات عريقة.
وقد كانت الإمبراطورية رغم إتساعها وتغريتها تحكم كل هذه المناطق وتديرها
بقوة وعزمية أيام أن كانت قوية مرهوبة الجانب. أما عندما بدأ السوء يدب في
أوصالها وتنهال عليها الأزمات من كل حب وصوب، فقد أخذت في الانهيار
وتدهور تدريجياً، وتواجه عليها الهزائم والكوارث، وتقلصت أراضيها رويداً
رويداً. وتحملت ضدها الدول الأوروبية حتى سموها بالرجل المريض الذي يعيش
في النزاع الأخير من مراحل عمره الممتدة. وبدخل الدولة العثمانية ممتعاً
 الحرب العالمية الأولى في صف الدول التي انتهمت وانهارت، وتتفكك أوصالها
وتنهارى لكي تقوم على أنقاضها الجمهورية التركية.

عمرت الإمبراطورية العثمانية منذ نشأتها سنة 1299م حتى انتهائها وقيام
الجمهورية سنة 1923م مدة طويلة من الزمن تقدر بستة قرون ورباع القرن
تقريباً. وقد حملت بأحداث وحروب وفتوحات كثيرة طوال هذه المدة الكبيرة.
ورغم أن أسرة واحدة هي أسرة آل عثمان حكمتها، إلا أنه لابد لنا من أن نقسم

287
هذه المدة الزمنية الطويلة إلى فترات أو مراحل حسب الأوضاع والأحوال والظروف ومجريات الأحداث وانعكاساتها المتعددة، طبقاً لما تقضيه الدراسات التاريخية الحديثة والمعاصرة.

والمرحل التي مرت بها الدولة العثمانية هي سبع مراحل، تناولت أربع منها بالبحث والدراسة، أما الثلاثة الأخرى فهي تخرج عن نطاق هذه الدراسة، ولها لم أتناولها في هذا الكتاب لأن موضوعه ينتهي بانتهاء العصر الذهبي.

والمرجو أن يمد الله في العمر لإكمال المراحل المتبقية ويلقى الضوء عليها.
الخرائط واللوحات
مهد الدولة العثمانية

(رقم 1)
مخططة ميدان معركة قوصوه الأولى

رقم (4)
قلعة الأناضول

رقم (٥)
حدود الدولة العثمانية قبل معركة جيوبق آووه

جبل الينان

(رقم 6)
Çubuk Ova

مخطط ميدان معركة جوبوق اووه

(7)

ن. د.
مخطط معركة وارنه

رقم (٨)
الدولة العثمانية في عهد السلطان السادس: مراد الثاني

رقم (9)
قلعة الروملي

رقم (10)
أهمية موقع القسطنطينية وحصار الفاتح لها

رمز (11)
الدولة العثمانية في عهد السلطان السابع: محمد الثاني

رقم (12)
المملكة العثمانية حتى مطلع القرن السادس عشر

رقم (14)
مخطط ميدان معركة جالديران
الإمبراطورية العثمانية في عهد السلطان سليم الأول

رقم (16)
الإمبراطورية العثمانية في أقصى أتساعها

رقم (19)
المصادر

المصادر العربية

المخطوطات العربية:

1. مخطوط مجهول المؤلف: تحفة الأحباب بين منك مصر من الملوك والنواب، مخطوط بمكتبة متحف طريبور سراي باستانبول، تحت رقم A 5550.

2. ابن توري بردي: حوادث الدهور، مخطوط بمكتبة أيا صوفيا باستانبول، تحت رقم 3185.

3. الخطيب: نزهة النفوس والأبدان، مخطوط بدار الكتب المصرية، برقم 116 تاريخ (م).

4. السقاوي: التكر المسبوك ذيل السلوك، مخطوط بمكتبة أيا صوفيا باستانبول، تحت رقم 311.

5. الطيب: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم 1584 تاريخ.

المقالات والبحوث:

6. أحمد فؤاد منولي: البحرية العثمانية والبرتغالية في القرن العشرين الهجري (السادس عشر الميلادي)، على ضوء الوثائق التركية (بحث في حولية كلية العلوم الاجتماعية بالرياض، العدد الرابع سنة 1400هـ-1980م.)
المصادر

(2) محمد مصطفى زيدان: نهاية السلالتين المملوكيتين في مصر، المجلة التاريخية المصرية، م 4، ع 1، مايو 1951.

(3) الكتب العربية:
(1) مؤلف مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق، مكتبة المكتبي ببغداد 1979.
(2) إبراهيم طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة الخرطوم 1959.
(3) إبراهيم العدوي: الأمويون والبيزنطيون القاهرة 1952.
(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ القاهرة 1274 هـ.
(6) ابن زنبل: آخرة المماليك "واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني" تحقيق عبد المنعم عامر القاهرة 1962.
(8) أحمد جودت: تاريخ جودت، ترجمة عبد القادر أحمد الدنابيروت 1308 هـ.
(9) أحمد حسين شرف الدين: اليمن عبر التاريخ القاهرة 1980.
(10) أحمد السعيد سليمان: انتشار الإسلام في آسيا الرياض 1397 هـ.
(13). أحمد السعيد سليمان: منظورات في تاريخ الدولة العثمانية الرياضية 1397 هـ.


(18). توماس أربرن: دعوة إلى الإسلام، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن.


(26). الطبري: تأريخ الأمم والملوك القاهرة 1366 هـ.
القصور
(27) عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين بغداد 1949.
(29) عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث، من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مهدت باشا القاهرة 1968.
(31) عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر، من الفتح العثماني إلى حملة نابلس دمشق 1968.
(33) علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام القاهرة 1971.
(34) عمر عبد العزيز: دراسات في تاريخ العرب الحديث بيروت 1978.
(36) قطب الدين الهروالي: البرق اليمني في الفتح العثماني الرياض 1387 هـ (1967 م).
(37) كارل بروكلمان: تاريخ شعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البلكي بيروت 1977.
(38) محمد أنس: الدولة العثمانية والشرق العربي القاهرة 1977.
(39) محمد بن عبد الله آل عبد القادر الأنصاري الإحساني: تحفظ المستفيد بتاريخ الإحساء في القديم والناصر الديار 1960.
(40) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ميصر 1965.
(41) محمد جميل بيه: فلسفة التاريخ العثماني بيروت 1954.
المصادر

(42) محمد فريد: تاريخ الدولة العثمانية، نسخة بالأرست تصوير- دار الجيل بيروت 1977
(43) محمد فؤاد كويرلي: قيام الدولة العثمانية، ترجمة الدكتور أحمد السعيد
سليمان القاهرة 1967
(44) السعدي (أبو الحسن): مروح الذهب ومعادن الجوهر القاهرة
(45) منجم باشي أحمد دده: صحائف الأخبار في وقائع الأعصار، مخطوط
بمكتبة طوبيفو سرائي، برقم 2954
(46) هاملتون جب وهارولد بورون: المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة الدكتور
أحمد عبد الرحيم مصطفى القاهرة 1971

المصادر التركية

(أ) الوثائق التركية:

35 وثيقة تركية تحت أرقام: 3201-3671-3692-3948-31180-1/8
1180-31180-7/8
1180-0/0
17/12

(ب) المخطوطات التركية:

1) أحمد فريدون: منشآت الملوك والسلاطين، مخطوط بمكتبة طوبيفو سرائي
تحت رقم 1960 R.
المصادر

(2) جلال زاده قوجه تشانجي مصطفى: آثار سليم خانی طارح ثراث، مخطوطة بمكتبة طوبقی سرابی، تحت رقم 415.

(3) حیدر جلی: روزنامه حیدر جلی، ضمن مخطوطة رقم 1955.19 فی مكتبة طوبقی سرابی، بعنوان: سلطان سليمک ایران سفریه دائر مخابرات.

(4) مترقی نصوح: فتح نامه دیار عرب، مخطوطة وحید فی مكتبة نور اعظمیہ فی استنبول، تحت رقم 40874.

المقالات والبحوث:

1- Barbaros Hayreddin Pasanin Hatiralari (Tarih Mecmuasinda bir Makale), sayi 6, Temmuz 1965, S. 49.

المكتبة التركیة:

(1) ابن کمال: تواریخ الی عثمان استنبول 1332.

(2) محمد راسم: عثمانی تاریخی استنبول 1326 هـ.

(3) محمد مختار باشا: فتح جليل قسطنطنیة استنبول 1312 هـ.

(4) إسماعیل غلاب: تقویم مسکوکات عثمانیہ استنبول 1307 هـ.

(5) سعد الدين: تاج التواریخ استنبول 1305 هـ.

(6) صلوق زاده: صولات زاده تاریخی استنبول 1397 هـ.

(7) عاشق باشا زاده: تواریخ الی عثمان استنبول 1326.

(8) عمر فاروق: تاریخ أبو الفوارق استنبول 1370 هـ.

(9) قربی وروه: تاریخ سلطان محمد خان ثانی، ترجمه فرانسیسکو افونسی استنبول 1329 هـ.

(10) لطفی: تاريخ لطفي استنبول 1290 هـ.

(11) هامر: دولت عثمانیہ تاریخی: ترجمه عطا باک استنبول 1349 هـ.
14- Cavid Baysun: Cem Sultan İstanbul 1946.
16- Ducas: Rum Tarihi, Mirmiroğlu Tercumesi İstanbul 1940.
17- Feridun Dirimtekin: İstanbul’un Fethi İstanbul 1980.
18- Dr. Hakki Dursun Yıldız: İslamiyet ve Türkler İstanbul 1980.
20- Osmanlı Tarihi Ankara 1972
21- Kemal Çiğ: Topkapı Müzesi Mukaddes Emanetler Resimli Rehberi İstanbul 1950
22- Köprülü zade Mehmet Faut: Türk Edebiyatından ILK Mutasavvıflar İstanbul 1952.
24- Muallim Faut Güçlüyener: Yavuz Sultan Selim İstanbul 1945.
26- Nikola Barbaru: Kostantiniyye, nin Mühaseba Jurnalı (TD).
28- Phulyameres: İstanbul Tarihi, Ali Sevket Tercumesi İstanbul 1872.
29- Reşad Ekrem Kocu: Yeniçeriler İstanbul 1964.
30- Samih Aziz Ilter: Şimali Afrikada Türkler İstanbul 1936-1937
31- Yılmaz Oztuna: Türkiye Tarihi İstanbul 1964.
33- Zuhuri Danışmand: Osmanlı İmparatorluğu Tarihi İstanbul 1964.
المصادر الأوربية:

1- Gibbon (Edward): The Decline and Fall of the Roman Empire London 1900.
3- Dr. Halil Inalcik: the Ottoman Empire The Classic Age 1300-1600, translated by Itzkovitz and Colen Imber London 1975.
4- The Rise of the Ottoman Empire, A chapter in: History of the Ottoman Empire to 1730, by Parry and others Cambridge 1976.
5- Kinross (Lord): The Ottoman Centuries, the Rise and fall of the Turkish Empire London 1977.
6- Lewis (Bernard): the Emergence of Modern Turkey London 1968.
8- Price (Philips): A history of Turkey, from Empire to Republic London 1961.

المصادر العربية:

Chalcondyle: Histoire de la Decadence de l'Empire Grec et l'Etablissement de Celui des Turc paris 1632
فهرس الكتاب

المقدمة.................................................................................................................. 5
منهج الكتاب............................................................................................................. 11
الفصل الأول
فترة ما قبل تركيا العثمانية
(1071 - 1300 هـ / 474 - 699 م)
موطن الترك................................................................. 15
دخول الترك في الإسلام .......................................................... 18
توطن الترك في الأناضول........................................................... 21
الفصل الثاني
فترة الإمارة في الأناضول
(1300 - 1370 هـ / 699 - 777 م)
قيام الدولة العثمانية.......................................................... 27
نواة الجيش العثماني.............................................................. 43
عبور العثمانيين إلى البلقان ورد الفعل لدى الأوربيين........ 44
السياسة التي اتبعها العثمانيون في التوطن بالبلقان........ 48
الانكشارية................................................................. 56
الفصل الثالث
فترة التحول من الدولة إلى الإمبراطورية
(1370 - 1481 هـ / 777 - 886 م)
تقدم العثمانيين في البلقان.................................................. 63

تاريخ الدولة العثمانية
<table>
<thead>
<tr>
<th>صفحة</th>
<th>اسم المقالة</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>66</td>
<td>موقعة قوصوه الأولى ونهاية مراد الأول</td>
</tr>
<tr>
<td>70</td>
<td>ضم بايزيد الصاعقة لإمارات الأناضول</td>
</tr>
<tr>
<td>72</td>
<td>بعض المهام القتالية أمام بايزيد في البلقان وآسيا الصغرى</td>
</tr>
<tr>
<td>73</td>
<td>العلاقات مع المماليك في عهد بايزيد الصاعقة</td>
</tr>
<tr>
<td>75</td>
<td>التحالف الجديد وموقفة نيكوبوليس</td>
</tr>
<tr>
<td>77</td>
<td>حصار العثمانيين الأول للقسطنطينية</td>
</tr>
<tr>
<td>79</td>
<td>الخطر المغولي</td>
</tr>
<tr>
<td>85</td>
<td>فراغ في حكم السلطنة العثمانية</td>
</tr>
<tr>
<td>89</td>
<td>بعض الفتنة في عهد محمد الأول</td>
</tr>
<tr>
<td>91</td>
<td>الدوشارية</td>
</tr>
<tr>
<td>93</td>
<td>بعض القلاقل في عهد مراد الثاني</td>
</tr>
<tr>
<td>94</td>
<td>الحصار الثاني للقسطنطينية</td>
</tr>
<tr>
<td>94</td>
<td>استرجاع إمارات الأناضول</td>
</tr>
<tr>
<td>95</td>
<td>مراد الثاني وحروبه في أوربا</td>
</tr>
<tr>
<td>(1)</td>
<td>الأفلاق</td>
</tr>
<tr>
<td>(2)</td>
<td>الصرب</td>
</tr>
<tr>
<td>(3)</td>
<td>سلانيك والحرب العثمانية البندقية الأولى</td>
</tr>
<tr>
<td>(4)</td>
<td>الصرب والمجوس والقرمانيون</td>
</tr>
<tr>
<td>(5)</td>
<td>محاولة توحيد الكنيستين</td>
</tr>
<tr>
<td>(6)</td>
<td>التكتل العربي وموقفة وارنة</td>
</tr>
<tr>
<td>(7)</td>
<td>المورة</td>
</tr>
<tr>
<td>(8)</td>
<td>بلاد الأرناوتوت (ألبانيا)</td>
</tr>
<tr>
<td>(9)</td>
<td>التكتل الغربي مرة أخرى وموقعة قوصوه الثانية</td>
</tr>
<tr>
<td>100</td>
<td>العلاقات العثمانية المملوكة في عهد مراد الثاني</td>
</tr>
</tbody>
</table>
الفصل الرابع

فترة العصر الذهبي

(1481-1580م - 882-998هـ)

الصراع بين بايزيد الثاني والأمير جم على العرش

حروب بايزيد الثاني في أوربا

العلاقات العثمانية المماليكية في عهد بايزيد الثاني

النزاع بين أبناء بايزيد الثاني على العرش...
فتح بلاد فارس

فتح بعض مناطق الأناضول:

(1) أذربّج
(2) دوم لقادر
(3) ديار بكر
(4) بعض مناطق شرق الأناضول

فتح الشام ومصر وضم الحجاز

أسباب الفتح العثماني للشام ومصر

(1) إنهاء الممالك لل أمراء العثمانيين الصفويين
(2) الصراع على الإمارات المجاورة
(3) التحالف المملوكي الصفوي
(4) الأسباب الاقتصادية

العلاقة بين الفضري وسليم الأول

الاستعداد للحرب

معزلا مرجع دايع والرئاسة

انضمام الحجاز إلى الإمبراطورية العثمانية، وتسليم الأثار النبوية الشريفة

السلطان سليم يفكر في جعل الدين الإسلامي ديناً للإمبراطورية العربية لغة لها

تغيرات الاتجاهات في عهد سليم الأول

الثورة الأولى للشام ومصر ضد الحكم العثماني

الثورة الأولى للشام ومصر ضد الحكم العثماني

(1) جان بريد الفزالي والي الشام
(2) أحمد باشا العثماني والي مصر

فتح جزيرة رودس
فتح جزيرة رودس
الحرب مع المجر ومعركة مهاج
الحرب مع المجر ومعركة مهاج
الحرب مع النمسا وحصار فيينا لأول مرة
العودة إلى المجر
الحرب مع ألمانيا
تجديد الحروب مع المجر
حرب البغدان
حرب البغدان
عصيان الطوبيون وحرب إيران
(١) عصيان الطوبيون
(٢) الحرب مع الفرس

النشاط البحري للدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني
(١) في البحر الأبيض:

(أ) عروج الرييس وخضير الريس
(ب) فتح الجزائر وحكم الأخوين لها
(ج) اتصال بربروسا بالموثانيين
(د) ترك خير الدين بربروسا للجزائر وعودته إليها
(هـ) أول نزاع بين خير الدين وأندريه دوريا
(و) دعوة بربروسا للدخول في خدمة الدولة العثمانية
(ز) حروب بربروسا البحرية خدمة للموثانيين:

(١) الاستيلاء على تونس والتراجع عنها
(٢) الحرب مع البندقية وصلواتها
(٣) حرب بروزه والتحكم في البحر الأبيض
(4) انزاع العثماني الأسباني
267
(5) المساعدات التي قدمها الأسطول العثماني للفرنسيين
263
(ج) وفاة بربروسا
265
(2) في المحيط الهندي والخليج والبحر الأحمر
266
محاولة فتح جزيرة مالطة

الامتيازات الأجنبية
269
القوانين التي وضعها سليمان القانوني
270
وفاة السلطان سليمان القانوني
272
استمرار فترة العصر الذهبى بعد موت سليمان القانوني
274
فتح جزيرة ساقز
276
الصلح مع النمسا
279
فتح جزيرة قبرص
281
معركة ليبيا البحرية (ابنه يختى)
283
الصلح مع الهندية
285
قلائل اليمن
284
إعادة فتح تونس
285
وفاة سليم الثاني
286
تجديد الامتيازات الأجنبية
287
الحرب مع إيران ووفاقسيا
289
الخاتمة
289
القرائن واللوحات
311
المصادر
هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأته حتي نهاية العصر الذهبي من نظرة علمية جديدة يتمشى مع الدراسات التاريخية الحديثة التي قمت بتقسيم التاريخ إلى مراحل وفترات طبقا لمجريات الأحداث وتطور الأوضاع الداخلية والخارجية.

ويركز الكتاب على أعمال السلاطين وعلى ما أحدثه من تحول في تاريخ المسلمين بل وفي تاريخ البشرية جمعاء. فنظرة إلى فتح القسطنطينية 1453 م تبين أنه حدث ضخم يعتبر من العلامات البازرة التي غيرت مجرى التاريخ. كما أن فتح الشام ومصر 517 م يعتبر علامة أخرى بارزة تدل على تغير استراتيجية الإمبراطورية العثمانية في مجال الفتح.

وإذا أردنا فهم تاريخ العرب الحديث وتاريخ الشرق الأوسط أو تاريخ البلقان أو تاريخ القوقاز، فلا غنى لنا عن دراسة تاريخ الدولة العثمانية بأبعاده المختلفة لأنها حسمت هذه الديار جميعا.

ويتركز الكتاب مزود بالخرائط والصور واللوحات، وملى بالوثائق التي تنشر لأول مرة، كما أنه مزود بأول مرة أيضا بمخطاتها المعارك العسكرية الحاسمة التي دارت بين الدولة العثمانية وخصوصاها، والتي رسمها الخبراء العسكريون الكبار عن أرض المعارك موضحين موقع كل جانب من الجوانب في مواجهة الجانب الآخر.

صدر أيضا للناشر

د. توفيق علي - د. محمد السبعاوي

الدخول إلى تاريخ بني إسرائيل

اليهود مصر - بارونات وبوسات

شرطة للتوزيع

عمر الزيتوني

طريق غرب القاهرة عمارة (12) شقة (2) ص 202

هليوبوليس غرب - مصر الجديدة

القاهرة: 67774963 - فاكس: 67774963

صر 202

رقم بريد: 58281722